



حلبة الجليد



ترجمة:

رفعت عطفه

منشورات الجمل

رواية

روبرتو بولانيو

حلبة الجليد

ترجمة:

رفعت عطفه

منشورات الجمل



روبرتو بولانيو: حلبة الجليد

روبرتو بولانيو (١٩٥٣ ـ ٢٠٠٣)، وُلِدَ في تشيلي، روائيٌ وشاعر، فرض نفسه كواحدٍ من كتّاب أمريكا اللاتينية الذين لا غنى عنهم في زماننا. نُشِرَت مجموعاته القصصية في أناغراما: **مكالمات هاتفية، عاهرات قاتلات والفارس الذي لا يُطاق** وروايات **حلبة الجليد، النجم البعيد، تميمة، رواية صغيرة، ليل تشيلي، أمبيريس، رجال التحرّي المتوحشون** (جائزة هِرالْدِ للرواية وجائزة رومولو غايِّغو). روايته الأخيرة التي ظهرت بعد موته **٢٦٦٦** تعتبر بالإجماع أعظم أعماله. كما نُشر له بعد وفاته **بين قوسين، سرُّ الشرّ والرايخ الثالث.**

روبرتو بولانيو: حلبة الجليد، ترجمة: رفعت عطفه

الطبعة الأولى ٢٠١٧

Roberto Bolaño: La Pista de Hielo, Roman

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



إذا كنتُ سأعيش

فليكن من دون دقّة وفي الهذيان

ماريو سانتياغو

رِمو موران:

رأيته لأوّل مرّةٍ في شارع بوكارِلي

رأيته لأوّل مرّةٍ في شارع بوكارِلي، في مِكسيكو، أي في المراهقة، في المنطقة المغبّشة والمقلقلة التي تنتمي إلى شعراء الحديد، في ليلة مشحونة بالضباب الذي كان يُجبر السيارات على أن تسير ببطء وتجعل المارّةَ مستعدين لأن يُعلّقوا بسرور غريب، على الظاهرة الضبابيّة، غير المعهودة في تلك الليالي المكسيكية، على الأقل إلى الحدّ الذي أتذكّره. قبل أن يُقدّموه لي أمام باب مقهى هافانا، سمعتُ صوته، عميقاً، كما لو أنّه من قطيفة، الشيء الوحيد الذي لم يتغيّر مع مرور السنين. قال: هي ليلة على قدّ جاك. كان يُشيرُ إلى جاك نازع الأحشاء، لكن صوته جاء مُذكّراً بأراضٍ خارج القانون، حيث كلّ شيءٍ مُمكن. كنّا جميعاً مراهقين، مراهقين أشراراً، هذا صحيح، وشعراء، وكنّا نضحكُ. كان المجهول يُدعى غاسبّار هِرديا، غاسبّارين بالنسبة للأصدقاء والأعداء الجائرين. ما زلتُ أتذكّر الضبابَ تحت الأبواب الدوّارة والكلام الملغز يروح ويغدو. لا تكاد تُلمح الوجوه والأنوار، والناس الملفوفون بذلك الشال يبدون أقوياء وجهلة، مُجزّئين وأبرياء، كما كنّا حقيقةً. نحن الآن

على بعد آلاف الكيلومترات عن مقهى هافانا والضبابُ مصنوع على قدّ جاك نازع الأحشاء، وهو أكثر كثافة مما كان وقت ذاك. من شارع بوكارلي، في مكسيكو إلى القاتل!، سيفكّرون... الغاية من هذه الحكاية هي إقناعهم بعكس ذلك...

غاسبار هِرديا:

وصلتُ إلى ثِتا أواسط الربيع

وصلتُ إلى ثِتا أواسط الربيع، في ليلة من شهر أيّار، قادماً من برشلونة. بالكاد كان معي شيء من نقود، لكنني لم أكن قلقاً ذلك أن عملاً كان ينتظرني في ثِتا. رِمو موران، الذي لم أره منذ سنوات طويلة، لكنّي دائماً كنت أملك أخباراً عنه، باستثناء ذلك الزمن الذي لم يُعرف فيه عنه شيئاً، عرض عليّ من خلال صديقة مشترَكة عملاً موسميّاً من أيّار وحتى أيلول. عليّ أن أُوَضّحَ أنّني لم أطلب العمل، وأنّني لم أحاول إذ ذاك ولا قبله أن أتواصل معه. ولم أنوِ قط أن آتي لأعيشَ في ثِتا. صحيح أنّنا كنّا أصدقاء، لكنّ هذا كان منذ زمن بعيد وأنا لستُ مِمّن يطلبون إحساناً. عشتُ حتى ذلك الوقت في طابق مشترك مع ثلاثة أشخاص، في الحيّ الصيني، ولم تكن أموري تسير بشكل سيّئ تماماً كما يمكن أن يُتَصوّر. وضعي القانوني في إسبانيا، باستثناء الأشهر الأولى، كان، كي أقوله بطريقة ناعمة، محبطاً: ليس عندي إقامة، ليس عندي ترخيص بالعمل، أعيشُ في نوع من المطهر الغامض بانتظار الحصول على المال الكافي لأفرد جناحيّ أو أدفع لِمُحامٍ، كي يُسوّي

أوراقي. طبعاً كان ذلك اليوم يوماً طوباوياً، على الأقل بالنسبة للأجانب، من أمثالي، الذين يملكون قليلاً أو لا يملكون شيئاً. على كلّ الأحوال لم يكن وضعي سيئاً. بقيتُ زمناً طويلاً أمارس أعمالاً مؤقتة، بدءاً من القيام على محلّ في لا رامبلا وحتى خياطة حقائب جلدية بآلة سينجر مُفكّكة لمعمل قرصان، وهكذا كنتُ آكل، أذهبُ إلى السينما وأدفع أجرة غرفتي. تعرّفت ذات يومٍ على مونيكا، وهي تشيلية كان عندها بسطة في لا رامبلا، وبالحديث تبين أن كلينا، في مراحل مختلفة من حياتنا، أنا قبلها بعام وهي في أوروبا بطريقة أكثر نظامية، كنّا صديقين لرِمو موران. منها عرفت أنّه كان يعيش في ثِتا (كنتُ أعرفُ أنه كان يعيش في إسبانيا، لكن لم أكن أعرف أين) وأنّه لم يكن ليُغفر لي وأنا في وضعي ألّا أذهب لزيارته أو ألّا أهتف له. كي أطلب مساعدته! طبعاً، لم أفعل شيئاً: فالهوّة بيني وبين رِمو كانت تبدو لي غير قابلة للردم كما أنّها لم تكن مسألة إزعاج. وهكذا بقيت أعيشُ أو أعاني شظفَ العيش، بحسب الحالة، إلى أن حكت لي مونيكا أنّها رأت ذاتَ يومٍ رِمو في أحَدِ بارات برشلونة وأنّه قال، بعد أن شرحت له وضعي، إنّ عليّ أن أذهب فوراً إلى ثِتا فهناك أستطيع أن أعيشَ وأعمل على الأقل خلال موسم الصيف. موران يتذكّرني! الحقيقة، عليّ أن أعترف، لم يكن عندي شيء أفضل، والأفق كان أسود حتى تلك اللحظة، كان أسود مثل برميل نفط. ثمّ إنّ الاقتراح أثّر بي. لا شيء كان يربطني ببرشلونة، فقد خرجت توّاً من أسوأ زكام في حياتي (وصلت إلى ثِتا وأنا ما أزالُ محموماً)، مجرّد فكرة أن أعيش خمسة أشهر متتابعة بجانب البحر كانت تجعلني أبتسم مثل أبله، لم يكن عليّ غير أن آخذ قطارَ

الساحل وأرحل. من القول إلى الفعل: وضعتُ كتبي وثيابي في حقيبة الظهر وانطلقتُ بأسرع ما استطعت. كل ما لم تتسع له الحقيبة أهديته. عندما تركت محطّة فرنسا ورائي فكّرت أنّني لن أعود لأعيش في برشلونة أبداً. تركتها خلفي بعيداً عني!. بلا ألم ولا مرارة! بالقرب من ماتارو بدأتُ أنسى كلَّ الوجوه... لكن هذا طبعاً مجرّد كلام، فلا شيء يُنسى...

إنريك روسكيّس:

كان مزاجي حتى سنوات قليلة مضت مثال الوداعة

كان مزاجي حتى سنوات قليلة مضت مثال الوداعة، هذا ما يُصادق عليه أبناء عائلتي، رفاقي، مرؤوسيّ، وكل الأشخاص الذين سنحت لهم الفرصة للتعامل معي قليلاً. جميعهم سيقولون إنّ أقلّ شخص مؤهّل لأن يرى نفسه متورّطاً في جريمةٍ هو أنا. عاداتي مرتبة بل وصارمة. أُدخّنُ قليلاً، أكادُ لا أخرجُ ليلاً. قدرتي على العمل مُعتَرَف بها: يمكن أن أُمَدّد يوم عملي حتى يصل إلى ستّ عشرة ساعة، إذا تطلّبَ الأمرُ وطاقتي الإنتاجية لا تتراجع. في الثانية والعشرين من عمري حصلتُ على شهادة علم النفس، ويجب أن أؤكّد دون تواضع زائف أنّني كنتُ أفضل أبناء دفعتي. أدرس الآن الحقوق، الشهادة التي كان عليّ أن أكون قد أنهيتها منذ زمن، أعرف هذا، لكنّني فضّلتُ أن أحصل عليها بهدوء. لستُ مستعجلاً أبداً. الحقيقة أنّني كثيراً ما فكّرتُ أنّني ارتكبتُ خطأً بتسجيلي في الحقوق، إذْ ما حاجتي إليها، أليس صحيحاً؟ الدراسة التي مع مرور السنين تصير في كلّ مرّة أثقل وأثقل. وهذا لا يعني أنّني سأتخلى عنها. أنا أحياناً بطيء وأحياناً أخرى سريع، نصف سلحفاة

ونصف أخيل[1]، لكنني لا أهجر الشيء أبداً. من ناحية أخرى، لنُسجّل هذا، ليس سهلاً أن تعمل وتدرس في آنٍ معاً، وعملي، كما قلتُ، عادةً ما يكون مُكثفاً ومستحوذاً. الذنب طبعاً ذنبي. فأنا من كان يُحدّدُ الإيقاعَ. اسمحوا لي، بين قوسين، بسؤال: ماذا كنت أريدُ من كلّ ذلك؟ لا أعرفُ. فالأعمال تتخطاني للحظات. أُفكّرُ أحياناً أنني قمت بأسوأ الأدوار. أحياناً أخرى أفكّرُ أنني مضيتُ خلال كلّ ذلك الوقت معصوبَ العينين. لم تستطع الليالي التي قضيتها في المرحلة الأخيرة أرقاً أن تجعلني أعثر على الأجوبة. أيضاً لم يكن يُجديني نفعاً القدح والشتائم التي تحمّلتُها، بحسب ما يقولون حديثاً. الشيء الوحيد الأكيد هو أنني بدأت أتحمّل مسؤوليات في عمر مبكّر أكثر من اللازم. عملتُ خلال فترة قصيرة وسعيدة من حياتي كعالم نفس مع مجموعة من الأطفال غير المتكيفين. كان عليّ أن أبقى هناك لكن هناك أشياء لا يفهمها المرء إلا بعد مرور سنواتٍ كثيرة. من ناحيةٍ أخرى أعتقدُ أنّ من الطبيعي أن يملك الشابّ طموحات وتلهفاً للتفوّق، أهدافاً. أنا على الأقل ملكتها. بهذه الطريقة وصلتُ إلى ثِنا، بعد أوّل فوز للاشتراكيّين في الانتخابات البلدية بقليل. كانت بيلار بحاجة إلى أحدٍ يدير قطاعَ الخدمات الشخصيّة. طبعاً أنا أيضاً أحمل بطاقة الحزب (التي سأحرم منها جهاراً وصراحة بعد قليل، هذا إذا لم يكونوا قد فعلوا ذلك بعد) وإن لم يكن لهذا أيّ علاقة بالقرار المقرّ أخيراً: حصلتُ على موقعي بعد أن روقِبت بالمجهر، كما

---

(١) أخيل أحد أبطال طروادة، والإلياذة، المعروف بأنّه كان أسرع رجل في العالم. المترجم.

أنّ الأشهر الستة الأولى كانت إضافة إلى أنّها مضطربة، مُضنية. وبالتالي اسمحوا لي أن أرفع صوتي من هنا ضدّ الذين يريدون الآن أن يقحموا بيلار في هذه المسألة القذرة. هي لم تعطني المنصب لأنّني صديق؛ على الرغم من دورتين (في ثِتا يعبدون عمدتهم، ليموتوا بغيظهم) قام بيننا شيء يُشرّفني أن أسميه بهذه الطريقة: صداقة رفاق التعب وصداقة الحلم، تمتدّ بالنسبة إليّ إلى زوجها المُبجّل، سَميّي إريك خيبرت إي بيلاماخو. يستطيع الآن أبناء آوى المقنّعون بالصحافيين أن يقولوا ما يشاؤون. إذا كان هناك من خطأ ارتكبتْهُ بيلار فهو أنّها أودعت ثقتها فيّ. إذا ما نظرنا بوضعِ مختلف الأقسامِ قبل وصولي ووضعها، لنقلْ بعد عامين، فالنتيجة فورية: كنتُ محرّكَ بلديّة ثِتا، عضلاتِها ودماغَها. لا يهمُّ كم كنت مُتْعَباً، دائماً كنتُ أُنجِز عملي وعملَ البقيّة في مناسبات ليست قليلة. أيضاً أثرتُ أحقاداً وغيرة، حتى بين أشخاص من دائرتي ذاتها. أعرف أنّ كثيرين من مرؤوسيّ كانوا يكرهونني في سرّهم. راح طبعي ذاته مع مرور الزمن يجفُّ ويفرغ من الآمال. أعترف أنّني لم أُفكّر قط بأن أُمضي حياتي كلّها في ثِتا. فالمهنيّ يجب أن يطمحَ دائماً إلى الأكثر؛ في حالتي كان بودي أن أُستدعى لشغلِ منصبٍ مشابهٍ في برشلونة أو على الأقل في خيرونا. كثيراً ما حلمتُ، لا أخجلُ من قول ذلك، أن يضعني عمدة عاصمة كبرى على رأس مشروع، فيه مخاطرة، للوقاية من الجريمة أو مكافحة المخدّرات. في ثِتا عملت كلّ هذا! سيأتي يومٌ لن تكون فيه بيلار عمدة فماذا سيصير بي، أمام أيّ نوع من السياسيين عليّ أن أزحف! كانت مخاوف ليلية وكنتُ أخفّف من ثقلها سائقاً سيّارتي كلَّ ليلة إلى البيت كلّ ليلةٍ أسوق وحدي ومنهكاً. يا

إلهي، كم من الأشياء كان عليّ أن أعملها، كم كان عليّ أن أبتلع وأهضم منفرداً مع روحي. إلى أن تعرّفتُ على نوريا ووقع بين يديّ مشروع قصر بِنفينغوت...

رِمو موران:

أعترف أنني منحت عملاً لغاسبار هِرِديا في أيّار

أعترف أنني منحت عملاً لغاسبار هِرِديا في أيّار، غاسبارين بالنسبة للأصدقاء، مكسيكيّ، شاعر، معوز. على الرغم من أنني لم أكن أبغِ الاعتراف بذلك، ففي أعماقي كنتُ أنتظر وصوله بنفاد صبر وعصبية. ومع ذلك حين ظهر في باب كارتاغو[١] لم أعرفه إلّا بشقّ النفس. لم تمرّ السنون عبثاً. تعانقنا وهناك انتهى كلّ شيء. كثيراً ما فكّرتُ لو أنّنا تكلّمنا وقتها أو تمشينا على الشاطئ ثم شربنا زجاجة كونياك ونحن نبكي، أو لو أنّنا ضحكنا حتى الفجر لاختلف الأمرُ جدّاً الآن. لكنّ قشرة من جليد غشت وجهي بعد العناق وصرتُ غير قادر على القيام بأدنى حركةٍ تدل على الصداقة. كنتُ أعرفُهُ مهجوراً، صغيراً ووحيداً، جالساً على التابرويه بجانب طاولة عرض البار ولم أفعل شيئاً. هل خجلتُ؟ أي نوعٍ من المسوخ حرّكَ وجودُهُ المُفاجئ في ثِتا؟ لا أعرفُ. ربّما ظننتُ أنّني رأيتُ شبحاً وكانت الأشباح في تلك الأيّام تُثير حفيظتي جدّاً. لا، الآن لا. الآن بالعكس تُفرِح مساءاتي. حين خرجنا من كارتاغو

(١) Cartago قرطاجة، اسم بار. م.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ليلاً، ولم أقدر حتى على أن أبدأ معه حديثاً. على كلّ الأحوال لاحظتُ أنّه كان سعيداً في صمته. في مكتب استقبال المخيّم كان كاراخيّو ينظر إلى التلفاز ولم يرنا. تابعنا دون توقّف. كانت الخيمة الكندية، التي سيعيش فيها منذ تلك اللحظة، منصوبةً في مكان منعزل، بجانب كوخ المعدات. كان من الضروري أن أؤمّن له حدّاً أدنى من الصمت نظراً لأنّه كان سينامُ نهاراً. بالنسبة لغاسبارين بدا كلّ شيء تاماً، قال بصوته العميق إنّه سيكون كمن ينام في الريف. على حدّ معرفتي لم يعِش قط في مكان لم يكن مدينة. على جانب من الخيمة شجرة صنوبر صغيرة جدّاً، أقرب إلى شجرة عيد الفصحِ منها إلى شجرة مخيّم. كان ألبكس هو من اختار المكانَ: في هذا يُلاحظ الجهد الذي كان يبذله في كلّ شيء، ألعابه العقلية غير المفهومة. (ترى ماذا أردتُ أن أقول بهذا؟ هل أردتُ أن أقول إنّ وصول غاسبارين كان مثل وصول عيد الفصح؟) أخذته بعد ذلك إلى المغاسل، شرحتُ له كيف كانت تعمل الحمّامات وعدنا إلى غرفة الاستقبال. كان هذا كلّ شيء. لم أره بعدها إلا بعد أسبوع، أو ما يقارب الأسبوع. صار غاسبارين وكاراخيّو صديقين حميمين. ليس صعباً، حقاً، أن يصير المرء صديقاً لِكَاراخيّو. كان دوام غاسبارين مثل دوام أيّ حارس ليليّ، من العاشرة ليلاً وحتى الثامنة صباحاً. من المفروغ منه أنّ الحرّاس ينامون أثناء العمل. الراتب كان جيّداً، أعلى من الراتب الذي يدفعونه عادة في المخيمات والعمل لم يكن ثقيلاً. كان كاراخيّو عجوزاً جدّاً ويكاد يبقى سكران إلى حدّ أنّه لا يستطيع أن يخرج بجولاتٍ في الرابعة صباحاً. كان الطعام على حساب الشركة، أي على حسابي: كان لغاسبارين الحقّ بالإفطار والغداء والعشاء في كارتاغو. لم يكن يُقْبَضُ منه ولا بيزتا

واحدة. كنتُ أستعلمُ أحياناً من النُدُل: هل جاء الحارسُ ليأكل؟ هل يتعشّى الحارس أم لا؟، منذ متى لم يظهر الحارس هنا؟ وأحياناً كنتُ أسأل لكن أقل: هل يكتب الحارس؟ هل رأيتموه يملأ هوامش كتابٍ ما بالخربشات؟ هل ينظر الحارسُ إلى القمر مثل ذئب؟ قليلاً ما كنتُ أُلِحّ، هذا صحيح، لم يكن لديّ وقت لذلك... أو بالأحرى كنتُ أُكرّسُ وقتي لمسائل لم يكن فيها أي شيء مشترك بيني وبين غاسبار هِرِديا، البعيد، والمنكمش كمن يدير ظهره إلى العالم، مخفياً هويته، كيف كان يتصرّف، بأي شجاعة مشى وكان يمشي (لا، كان يركض!) نحو الظلمة، نحو الأعلى...

غاسبار هِرديا:

كان يُسمّى ستِلا ماريس

كان يُسمّى ستِلا ماريس (اسم يُذكر بالنُزُلِ) وكان مخيّماً غير ذي نظم مفرطة، غير ذي مشاجرات مفرطة، غير ذي سرقات مفرطة، كان نزلاؤه عائلاتِ عُمّالٍ قادمين من برشلونة وعمّالاً شباباً من فرنسا وهولندا وإيطاليا وألمانيا، الخليط كان في بعض المناسبات انفجاريّاً أو سيكونه لو لم تُطبق منذ الليلة الأولى النصيحة الذهبية التي أسداها كاراخيّو ومفادها اتركوا الناس يقتلُ بعضهم بعضاً. قسوة التصريح التي جمّدتني في البداية، ثم أدهشتني، لم تكن تنطوي على قلّة احترام تجاه زبائن ستِلا ماريس، بالعكس، كانت تنطوي على درجة عالية من التقدير لحرّيتهم الشخصية. كان كاراخيّو، كما استطعت أن أتأكّد سريعاً، محبوباً من الناس، وبخاصّة من الإسبان ومن هذه أو تلك العائلة من الأجانب، الذين راحوا يُصيّفون سنة وراء سنة في ثِتا، وكانوا خلال جولته الوحيدة والطويلة التي كان يقوم بها لا يفعلون شيئاً آخر غير دعوته إلى الدخول إلى بيوتهم المقطورة أو خيامهم حيث هناك دائماً كأس، قطعة حلوى، مجلّة خلاعية كيلا يسأم ليلاً. يسأم ليلاً! كان هذا محالاً. في الثالثة صباحاً يكون سكران سكراً مبرّحاً وشخيره يمكن أن

يُسمع في الشارع. في هذه الساعة ذاتها تقريباً كانت السكينة تهبط على الخيام ويصير التجوالُ لطيفاً في شوارع المخيّم الداخلية، الضيقة والمغطاة بالحصى، والمصابيح مطفأة، دون أيّ همّ آخر غير أن يسمع المرء وقع خطواته ذاتها، حتى هذه الساعة كنّا نجلس أنا وكاراخيّو على المقعد الخشبيّ بجانب الباب الرئيسي نتكلّم ونتلقى تحيات الساهرين واللاهين. أحياناً كان علينا أن نحمل سكران إلى خيمته. كان كاراخيّو يشقّ الطريق فهو دائماً يعرف أين كان يُخيّم كلُّ شخص، وأنا أتبعه والزبون على ظهري. كنّا أحياناً نتلقى إكرامياتٍ على هذه الخدمة وخدمات أخرى غيرها، لم يكونوا بعامّة يتفضلون علينا ولا بكلمة شكر. حاولتُ في الليلة الأولى أن لا أنام. تبعتُ بعدها مثال كاراخيّو. كلانا كنّا نغلق على نفسنا الاستقبال، نُطفئ الأضواء ونستريح على كرسيين جلديين كبيرتين. كانت غرفة استقبال ستِلا ماريس عبارة عن صندوق مسبق الصنع بجدارين زجاجيين يُطلّان على المسبح، ولذلك كان من السهل القيام بمراقبةٍ من الداخل هي إلى هذا الحد أو ذاك فعّالة. عادة ما كانت تنقطعُ الإنارة في كامل المخيّم وكان عليّ أنا أن أدخل في غرفة القواطع وأحلّ المشكلة بطريقة آمنة، على الرغم من أنّ على المرء أن يمشي جانبياً في غرفة القواطع محاولاً ألا يلمس بعضَ الأسلاك الكثيرة السائبة، وكان فيها أيضاً عناكب وحشرات من كلّ الأنواع. أزيز الكهرباء! كان المستخدمون الذين قَطَعَ عليهم انقطاعُ التيار برنامجاً تلفزيونياً يصفقون حين كانت تعود الكهرباء أخيراً. أحياناً، ليست كثيرة، كان يظهر رجال الحرس المدنيّ. كان كاراخيّو هو من يستقبلهم، يحتفل بمزاحهم ويدعوهم لينزلوا من السيارة، الشيء الذي لم يفعلوه قط. كان يُقال إنّهم يشربون في بار ستِلا ماريس مجاناً. لكنّني لم أرهم قط

يدخلون. أحياناً أخرى كانت تظهر الشرطةُ الوطنية والبلديّة. إنّها زيارات روتينية. من حسن الحظ أنّهم لم يكونوا يقولون لي ولا حتى ليلة سعيدة. أو حين كانوا يصلون كنتُ أبحث عن مبررات لأقوم بجولة داخل المخيّم. أتذكّرُ أنّ الحرسَ المدني جاء ذات ليلة يبحث عن امرأتين من سرقسطة دخلتا في ذلك اليوم ذاته. قلنا لهم ليستا موجودتين. حين ذهبوا نظر إليّ كاراخيّو وقال: يا لهما من فتاتين مسكينتين لندعهما تنامان بسلام. بالنسبة إليّ كان الأمر سِيّان. في الليلة التالية لم تكونا موجودتين؛ أعلمهما كاراخيّو فَوَلّتا الأدبار على وجه السرعة. لم أطلب توضيحات. في الصباحات حين كان يبدأ الفجر كنتُ أذهب إلى الشاطئ، إنّها أفضل ساعة، فالرمل نظيف كأنّه مشّط توّاً ولا يوجد سيّاح، فقط زوارق صيد تجمع الشباك. كنتُ أخلع ملابسي، أسبحُ وأعود إلى المخيّم قافزاً فوق القصب. حين كنتُ أصل إلى غرفة الاستقبال أجدُ كاراخيّو مستيقظاً والنوافذ مفتوحة لتهوية الغرفة. نعود لنجلس على مقعد المدخل، نرفع الحاجز ونتكلّم بعامّة عن الطقس. غائم، خانق، معتدل، يرافقه نسيم، متلبّد، ماطر، مشمس، حارّ... كان الطقس يشغل كاراخيّو جدّاً، لم أعرف قط لماذا. ليلاً لا. ليلاً كان موضوع حديثه عن الحرب، أو بالأحرى آخر سنوات الحرب الأهليّة، كانت القصّة ذاتها مع بعض الاختلافات: مجموعة من جنود الجيش الجمهوري، المُسلحة بالقنابل اليدويّة كانت تتقدّم باتّجاه تشكيل من العربات المدرّعة؛ كانت العربات تقصف الجنود؛ وهؤلاء ينبطحون على الأرض وبعد لحظات يعاودون تقدّمهم، ومن جديد ترشق التشكيل بنيران رشاشاتها؛ يعود الجنود لينبطحوا وبعد برهة يتابعون من جديد إلى الأمام؛ في المرة الرابعة أو الخامسة يُضاف عنصر جديد ومريع:

العربات التي كانت ثابتة حتى تلك اللحظة تتقدّم باتجاه الجنود. في كلّ مرتين من ثلاث كان كاراخيّو حين يصل إلى هذه النقطة يحمرُّ، كما لو أنّه يختنق، ويذرف دموعه. ماذا كان يحدث إذن؟ بعض الجنود يدورون نصف دورة ويبدؤون الجري، يتابعُ آخرون تقدُّمَهم لمواجهة العربات، الغالبية كانوا يسقطون بين الصراخ واللعنات. هذا كلّ شيء. كانت القصّة تمتدّ أحياناً أكثر قليلاً وأستطيعُ أن أرى عربة أو عربتين تشتعلان بين القتلى والفوضى. دائماً إلى الأمام وقد تبرّزوا خوفاً، تبرّزوا خوفاً، إذن لماذا أريدُ رِجْلَيْن. لم يتضح قط في أيّ من المجموعتين كان كاراخيّو، لم أسأله قط. ربّما كان كلّ شيء من اختراعه، لم توجد عربات مدرّعة كثيرة في الحرب الأهلية الإسبانية. في برشلونة تعرّفتُ على قصّاب عجوز، في سوق لا بوكِريّا، كان يُقسم أنّه كان في أحد الخنادق على بعد أقلّ من مترين من الماريشال تيتو. لم يكن كذّاباً، لكن في نطاق معرفتي لم يتواجد تيتو في إسبانيا قط. كيف ظهر في ذكرياته إذن؟ لغز. كان كاراخيّو يتابع شربه، بعد أن يمسح دموعَهُ، كما لو أنّ شيئاً لم يحدث أو يقترح عليّ أن نلعب لعبة الصينيين[1]. بالممارسة تحوّلتُ إلى خبير. ثلاث مع ما في يدك، ثلاث اثنتان وواحدة معك، واحدة واللتان معك ثلاث، الثلاث لي، الثلاث لك، ثلاث الأعور، ثلاث وانتهى الكلام. لم يكن يخلو الأمر من زبائن ساهرين، برشلونيين، لا يستطيعون أن يناموا وسط كلّ ذلك الصمت، أو متقاعدين يُصيّفون

---

(١) لعبة يضع فيها كلّ اللاعبين عدداً من القطع النقدية (من صفر وحتى ٥ قطع)، عندها يقول كلّ لاعب ما يتكهّن به من مجموع عددها عند الجميع. يفوز من يعرف العدد الكامل. م.

لثلاثة أشهر مع نسائهم وأولادهم، ينضمون إلى اللعبة. أصدقاء كاراخيّو. كنتُ في مرّات أخرى حين أكون متعباً من غرفة الاستقبال أقضي الساعات في بار المخيّم. هناك في الشرفة كانت تتواعد كائنات غريبة الأطوار وغامضة، كما لو أنّها خرجت من حلم. كانت دردشة من نوع آخر، دردشة الموتى الأحياء لجورج روميرو[1]. كان مسؤول البار يغلق الأبواب ويطفئ الأنوار بين الواحدة والثانية صباحاً. كان يتوسّلُ، قبل أن يأخذَ سيّارته ويذهبَ، إلى الموجودين أن يتركوا الكؤوس والزجاجات على طاولة مُحدّدة. لم يولوه اهتماماً قط. كان آخر من خرج امرأتين. أو بالأحرى امرأة طاعنة في السن وفتاة. واحدة كانت تتكلّم وتضحك، كما لو أنّ مع الضحكة ستخرجُ روحُها؛ الأخرى، كانت تُصغي ساهية. الاثنتان كانتا تبدوان مريضتين...

---

(١) فيلم للمخرج المذكور أنتج في عام ١٩٦٨. م.

إنريك روسكيس:

أعرفُ أنّ كلّ ما أقوله لن يُساهم إلّا في تحطيمي

أعرفُ أنّ كلّ ما أقوله لن يُساهم إلا في تحطيمي أكثر قليلاً، ومع ذلك اسمحوا لي أن أتكلّم. لستُ بعبعاً، لا ولا الشخص المستهتر ولا الكائن الذي لا تراوده الشكوك كما صوّرتموه بكل هذه الألوان الحيّة. مظهري الجسدي ربّما يجعلكم تضحكون. لا همّ. مرّ زمنٌ كان الناسُ يرتعدون خوفاً منّي. أنا بدين ولا يبلغ طولي أكثر من متر وثلاثة وستين سنتيمتراً. أيضاً أنا اشتراكيّ وأومن بالمستقبل. أو كنتُ أومن. اعذروني. أنا لا أمر في أيّام سارّة جدّاً بمعنى السارّة. كنتُ أومن بالعمل... وبالعدالة... وبالتقدّم. أعرف أنّ بيلار كانت تتباهى أمام عُمَدِ المقاطعة الاشتراكيين بأنّ عندها في فريق عملها رجلاً مثلي. من المحتمل أن تفعل ذلك على الرغم من أنّني كثيراً ما تساءلتُ في وحشة هذه الأيّام كيف أمكن أن أحداً من أولئك اللصوص الكبار لم يحاول أن يأخذني معه، بعيداً عن ثِتا وبيلار، أقرب قليلاً إلى برشلونة. ربّما تبجحتْ بيلار كفايةً. ربّما كان عند الجميع رجلهم ولا يحتاجون إلى آخر. نمت قدرتي واقتصرت على ثِتا. هذا حاسم. نفّذت في ثِتا أعمالي الجيّدة وآخر سيكون عليّ أن أدفع ثمنه. بلدية ثِتا التي تبصقُ عليّ الآن، مليئة

بالمشاريع والدراسات المدارة من قبلي. كنتُ رئيس قطاع الخدمات الشخصية، سبق وقلتُ ذلك، لكنني أيضاً كنتُ أشرف على مكتب تخطيط وتنظيم المدينة بل ورئيس مكتب الرياضة، حارف القاصرين الذي يتجرّأ الآن على شتمي، كان يأتي كلّ صباح ليطلب نصائحي. كنتُ أنا من يكون بجانب بيلار في الاحتفالات والنشاطات العامّة. لا تسيئوا الظنَّ: زوج عمدتنا كان يكره، أجهل أسبابه، أيّ اجتماع يتجاوز ستة أشخاص. سمّي إنريك خيبرت هو من يسمونه بالمثقف. وحده الله يعرف ما إذا كان أفضل لي لو أنني قلّدتُهُ ولم أخرج من مكتبي، هكذا حصل في نشاط عام في مجمع ثِتا الرياضي أن تعرّفتُ على نوريا... نوريا مارتي... عينايَ تغيمان حين أتذكّرُ ذلك المساء. كنّا نُكرّم بعضَ الرياضيين البارزين في ثِتا. من بين الذين كُوفِئوا كان فريق شباب كرة السلّة الذي قام بحملة رائعة؛ شابّ من فريق كرة القدم من دوري الدرجة الثانية فئة أ؛ مدرّب فريق كرة القدم في ثِتا الذي كان يعمل في الدرجة الرابعة، وكان سيتقاعد في تلك السنة؛ أشبال واتربولو الذين أحرزوا بطولة الدوري؛ وأخيراً النجمة، نوريا مارتي، التي كانت قد عادت توّاً من كوبنهاغن حيث دافعت عن علم إسبانيا، لا أكثر ولا أقل في منافسة للتزلج الفني على الجليد... كان السرادق مليئاً بطلاب التعليم العام الأساسي (الذين جاء بهم معلموهم) وحين قدمت نوريا نفسها تحوّل المكان إلى مشفى للمجانين. كانوا جميعهم يصرخون ويصفقون! صبي في العاشرة من عمره راح يصفر ويهتف لِنوريا! لم يسبق أن رأيت شيئاً مماثلاً. التفسير طبعاً لم يكن وَلَهاً مُعمّماً ومفاجئاً بالتزلج الفني، رياضة الأقلّية كما يعرف الجميع. بعضُ الأطفال، وخاصّة بعضَ الطفلات كانوا قد تابعوا إعادة النقل التلفزيوني للحدث وبالطبع شاهدوا

نوريا تتزلّج. كانت نوريا بالنسبة إلى عدد قليل منهن معبودة. ومع ذلك فالغالبية كانت تُصفّق مجذوبةً إلى شهرتها وجمالها. لأنّ هناك، أمامي كانت أجمل امرأة رأيتها في حياتي. الأجمل التي لن أرى مثلها أبداً! يقولون إنّ الأطفال لا يُخطئون عادةً. وأنا كعالم نفسٍ وموظّفٍ لم أصدّق هذا قط. هذه المرّة كانوا على حقّ. كلّ صفات العالم كانت تنطبق على صورة نوريا الوضّاءة. كيف أمكن أن أعمل كلّ تلك السنوات في ثِتا دون أن أعرفها؟ التفسير الوحيد الذي وجدته هو أنني لم أكن أعيش في ثِتا، ونوريا كانت قد أمضت حتى ذلك الوقت زمناً طويلاً في الخارج بمنحة من اللجنة الرياضية الإسبانية. خلال الأيام التي تلت، اسمحوا لي أن أسميه هكذا: هذا الظهورَ، كرّستُ نفسي دون أن أنتبه للبحث عن مبرّر يسمح لي، إن لم يكن بصداقتها، فعلى الأقل بإمكانية السلام عليها، وربّما الدردشة قليلاً معها، حين نلتقي في الشارع. اخترعتُ لهذه الغاية في قسم المعارض والأعياد مقعدَ ملكة معرض منتجات الحليب والخضار السنوي، الفكرة التي سبّبت في البداية ذهولاً بين لجنة الفلاّحين الذين كانوا يشغلون قاعات المعرض، لكنّهم استقبلوا الفكرةَ، بعد بعض التوضيحات، بحماس. بالطريقة ذاتها اقترحتُ أنّه لم يكن هناك من أحد أكثر أهلية لتجسيد الملكة من نوريا، مُتَزَلِّجَتِنا الدولية. دور بروتوكولي وصوريّ. بعض الكلمات في الافتتاح وانتهى. سُعد الجميع وانتقلتُ على الفور إلى الجانب الأصعب في المسألة وهو أن أنجح في أن تقبلَ، بَدْءاً من تلك الذريعة، أن تنظر إليّ، أن تعرفني... من نافلة القول إنّ مصير المعرض لم يكن يهمّني قيد أنملة؛ لقد فرض قلبي نفسه لأوّل مرّة على عقلي وأنا كنتُ أتبعه وكنت ما أزال مطيعاً ومتحمّساً له. حدث هذا في الربيع، بحسب ما أظنُّ، وما من

لحظة إلّا وكنتُ أحسُ فيها بأنّني في طريقي إلى الهاوية والدمار، ولكن لم يهمّني. إذا كنتُ أذكره ببساطة فلكي لا أعطي صورة مشوّهة عن نباهتي. أيضاً لا يهمّني الآن. منسّق المعارض والأعياد كان هو المكلّف بتقديم التاج لها، وتماماً كما توقّعت، رفضته نوريا. كان المنسّق قد أخبرني بين أشياء أخرى أنّ عودتها للفريق الإسباني للتزلج كانت قريبة. فلا وقت كي نضيعه. كان عندي سبب مقنع كي أهتّم بها، فهتفت لها في ذلك اليوم ذاته واتفقنا دون مماطلة على موعد في محلّ من مدينة ثِيّا القديمة. طبعاً لم أنجح بإقناعها، ولم يكن هذا هدفي، بأن تكون ملكة، لكنّني نجحتُ أخيراً بجعلها تقبل دعوة للعشاء معي في ذلك الأسبوع. هكذا بدأ كلّ شيء. لم أعرف قط ما إذا كانوا قد اختاروا ملكة في ذلك الربيع. تتالت العشاءات بعد ذلك العشاء بسرعة شيطانيّة. بدأت أقيم علاقاتٍ مع ناس كانت هي تُعاشرهم وراحت عاداتي الاجتماعية تتبدّل شيئاً فشيئاً. راحت لقاءاتنا العرضيّة تتكرّر وفي كلّ مرّة أكثر سعادة. عليّ أن أعترف أنّه كان باستطاعتي أن أستمرّ هكذا بقيّةَ حياتي، لكن لا شيء يدوم. رحتُ مع تَعَمُّق صداقتنا أُحِسّ بجلاء أكبر بمشاكل نوريا؛ المشاكل، التي لم تكن، إذا ما نظر إليها من منظور معيّن، مشاكلَ، لكنّ مزاجها الفنّيّ كان يخرج عن نطاقه فوراً. لن أذكر هنا المطبّات الصغيرة التي بدأت الحياة تضعها في طريقها في تلك الأيام. سأذكر فقط المطبين اللذين يبدو لي أنّهما الأكثر خطورة. الأول تكشّف لي ذات ليلة بعد عشاء لطيفٍ برفقة أصدقاء جيّدين، بعضهم يتسلّى الآن بالبصق في وجهي. حين خرجنا أمرتني نوريا أن أذهب إلى الخلجان بدل أن أذهب مباشرة إلى بيتها. في أبعد خليج، في خليج سان بِليساريو، راحت تتكلّم بطريقة متقطّعة ومزاجيّة، عن قصّة حبّ بينها وبين غندور لم أكن

أعرفه. استنتجتُ أنّهما كانا خطيبين. استنتجت أنّهما ما عادا خطيبين. استطعتُ أن أُلاحظ ألمها وغرابتها. من حسن الحظّ أنّ داخل السيارة كان مظلماً وإلّا لكانت قرأتِ في وجهي الشاحب الريبة العميقة، الاستنكار، بل وريبتي بوجود رجلٍ قادر على أن يتركها. على أيّ حال بهذه المُسارّة التي كانت تعذّبها، صرتُ صديقاً حميماً لها. ما الكلمات التي قلتها لمواساتها؟ انسيهِ. أصررتُ مرّةً وأخرى على أن تنساه وأن تفرّغ جسداً وروحاً لشأنها، للتزلّج. المشكلة الثانية كانت بالضبط على علاقة بالتزلّج. حدثت بعد بضعة عشر يوماً من مغادرة نوريا لِثِنا. كان الفريق الإسبانيّ قد تجمّع في خاكا، في مركز عالي المردود نصف مبني، وتلقيت من هناك في الثانية عشرة ليلاً مكالمة هاتفية من نوريا وقد صارت بحراً من الدموع. قطعوا عنها المنحة! كان قد اجتمع في خاكا كلّ الخسيسين وبدؤوا يمنحون، يُجدّدون ويقطعون منحاً! بالفعل لم تكن نوريا الوحيدة التي تأذّت من تلك المصيدة. خلال ساعات قليلة أصبح بلا عمل مدرّبان نرويجيان وهنغاريّ، إضافة إلى عدد من أبناء البلد، ومن دون منح كلّ المتزلّجين الذين تخطوا التاسعة عشرة من أعمارهم تقريباً. الاستثناءات كانت بحسب قولها جديرة بكل الريبة. ظهر الخبر في اليوم التالي داخل الصحف الرياضية في عمود واحد في الأقسام المخصّصة للرياضات الشتوية، ولم يستحق اهتمامَ الصحف الوطنية. لكنّ بالنسبة إلى نوريا كانت ضربة قاسية جدّاً. كان على سياسة الاتحاد الإسباني للتزلّج أن تتجدّد أو أن تموت، وهذا شائع في بلدنا ولا يلقى بعامّة اهتماماً يُذكر. جميعنا معتادون على أن نموت بين فترة وأخرى وفي الحقيقة نصبح شيئاً فشيئاً أكثر حيويّة. شيوخ إلى ما لا نهاية وأحياء إلى ما لا نهاية. بالنسبة إلى نوريا، أُبعِدَت عن الفريق الوطني

وليس عن الاتحاد المستقل، الذي كان باستطاعتها أن تستمرّ بالتدرّب والمنافسة في منشآته. لا حاجة للقول إنه لم يكن لها مكان في منتخب التزلج الفنّي، وإن كانت بحسب قولها متفوّقة على الصغيرتين اللتين تشتركان في الريادة. استطعتُ بعدها بوقت قليل أن أتحقّق من خلال قراءة الصحف ومهاتفة بعض الأصدقاء الصحافيين في خيرونا، من أنّ غالبيّة المتزلّجين الكتلانيين عانوا المحنة ذاتها. هل كان تأجيلاً مركزيّاً؟ لست أدري ولا يهمّني، ففي تلك المرحلة من حياتي فقط كان يهمّني ما يُسعد ويُشقي نوريا. الوضع الجديد كان بطريقة ما لصالحي، فحرمانها من المنحة كان يُحتّم عليها أن تعيش مستقرّةً في ثِنا. لكنّ الحبُّ ليس أنانيّاً، اكتشفتُ هذا منذ زمن ليس طويلاً، واستطاع فراغ نوريا وتكيّفها المؤلم مع عالم ما عاد فيه أسفار إلى الخارج، ربّما سفرة في القطار مرّتين في الأسبوع إلى حلبة التزلج في برشلونة، أن يُدمي قلبي. بعد عودتها إلى ثِنا تحادثنا عدّة مرات، أحياناً في مكتبي، خلال ساعات العمل (كانت الوحيدة التي كان باستطاعتها أن تُقاطعني في الساعة التي تشاء؛ طبعاً هي وبيلار) ومرّات أخرى في مرفأ الصيادين، مستندين إلى زوارق قديمة ما عاد يستخدمها أحد والغريب أنّه كان لها رائحة مستحضرات زينة الوجه ونتكلّم دائماً عن الشيء ذاته: محاباة القادة الرياضيين، الظلم الذي ارتُكِبَ بحقّها، موهبتها التي ستتبخّر مع مرور الأشهر. ستتساءلون كيف استطعنا أن نُقَلّب الموضوعَ ذاته، أمر تافه أولاً وأخيراً رغم أنّ عندنا أشياء كثيرة مهمّة وربّما لطيفة كي نتبادل قولها؟ هكذا كانت نوريا، وحيدة الموضوع: حين كانت تتعثّرُ بشيء لا تفهمه كانت تنطحه مرّات متكرّرة برأسها الأشقر حتى يخرج الدمُ منه. كنتُ قد تعلّمت أنّ أفضل شيء هو أن أُصغي وأسكت، إلّا إذا كنت سأساهم

بحلّ. لكن ماذا كان بمقدوري أن أفعل أمام اتحاد التزلّج الفنّي، الذي لا يمكن الوصول إليه. بوضوح: لا شيء. أن أترك الزمن يمرّ. وأن أتلذّذَ خلال ذلك باللحظاتِ التي نكون فيها معاً، وصارت يوميّة، وأن أنظر إليها وأتمتّع بأيّام ثِتا الرائعة، وأن أكون سعيداً. تسألون عمّا إذا ألمحت خلال هذه الفترة؟ إطلاقاً لا. لا أعرف ما إذا كان بسبب جبني أو خوفاً من أن أُفسد صداقتنا، بسبب الفتور أو الخجل، لكنّني اعتقدت أنّ من الحكمة أن أترك هامشاً أوسع من الزمن. يصنع الواحد منّا فاجعته بنفسه، سبق وسمعتُ هذا، في تلك الأثناء كنتُ الأميرَ التام ولم يكن هذا يزعجني. كنّا نخرج للسينما، لنتناولَ بعض الكؤوس أو لنتنزّه في السيّارة، نتعشّى أحياناً في بيتها، مع أمّها وأختها الصغيرة ابنة العشر سنوات، لايا التي كانت تستقبلني، لا أدري، كخطيب، أو كخطيب مستقبليّ، لم أتوصّل قط لفهم ذلك، على كلّ الأحوال دائماً بلطف وألفة كبيرين. كنّا نُشاهد بعد العشاء فيديو، عامّة ما كنتُ آتي به أنا، أو نبقى وحدنا في الصالون الصغير نرى قصاصات وصور ألبومها. كانت سهرات لطيفة. كثيراً ما فكّرتُ أنّه كان عليّ في تلك اللحظة أن أصرَّ، أن أقول إلى هنا وكفى، أنا سعيد، ماذا أستطيع أن أطلب أكثر؛ لكنّ الحبَّ الذي لا يَفهم بالغايات، ولا بالإصرار، كان يدفعني. هكذا كان أن بدأ مشروعُ قصر بِنفيغوت يأخذُ شكله...

رِمو موران:

لم يعد يُجدي الآن أن أحاول إصلاحَ ما ليس له إصلاح

لم يعد يُجدي الآن أن أُحاول إصلاح ما ليس له إصلاح، فقط أريد أن أوضح مشاركتي في الأحداث التي وقعت في الصيف الماضي في نِتا. لا تُطالبوني بأن أتكلّم برصانة وعن بُعد، فأوّلاً وأخيراً هذه بلدتي وإن كان من المحتمل أن يكون عليّ أن أرحل، لا أريد أن أفعل ذلك مخلّفاً ورائي جبلاً من الملابسات والمخاتلات. لستُ، كما جئت أحكي، فزّاعةَ تاجرِ مخدراتٍ كولومبيي، لا أنتمي إلى أيّ مافيا أمريكية لاتينية لتجارة اللحم الأبيض، لستُ على علاقة بالفرع البرازيلي للمذهب الإنكليزي، وإن كان، أعترف بذلك، لا يزعجني أن أكون. أنا فقط رجل حالفه الحظ كثيراً، أيضاً أنا كاتب، أو كنتُ كاتباً. وصلتُ إلى هذه البلدة، في مرحلة من حياتي كانت تبدو لي غامضة وبائسة. لماذا الكلام عن ذلك الوقت. يكفي أن أقول إنني عملت بائعاً جوّالاً في لوردِس وبامبلونا وسرقسطة وبرشلونة وإنّه كان معي بعض المُدّخرات. كان باستطاعتي أن أستقرّ في أي مكان، شاءت المصادفة أن يكون في نِتا، بالأموال المدّخرة اشتريتُ محلّاً حوّلته إلى حانوت للحلي الرخيصة، أرخص محلٍّ استطعت أن أعثر عليه واستنفد آخر بيزتة عندي. سرعان ما انتبهتُ إلى أنّه سيكون من المحال عليّ أن أُدير

المحلّ دون مساعدة من أحد وذلك نظراً لأسفاري الدائمة إلى برشلونة لشراء البضاعة بكمياتٍ مضحكة، فاضطررت للبحث عن مستخدم. التقيت في أحد تلك الأسفار بالضبط بِأليكس بوباديّا. كنتُ عائداً في قطار المساء ومعي بضاعة بأربعة آلاف بيزتة وكان هو يقرأ دليل الرحالة بشغف، إلى جانبه على مقعد فارغ كان يظهر من حقيبة ظهر صغيرة وقديمة كيس فستق كبير. كان أليكس يأكلُ ويقرأ ليس أكثر؛ كان يبدو راهباً بوذيّاً قرّر أن يصبح كشّافاً أو العكس؛ كان يبدو قرداً. سألته بعد أن تأمّلته باهتمام عمّا إذا كان ذاهباً إلى الخارج. أجاب بأنّ هذا ما كان يُفكّر أن يفعله حين ينتهي الصيف، في أيلول أو تشرين الأوّل، لكن عليه قبل ذلك أن يحصل على عمل. وعلى الفور عرضته عليه. هكذا كان أن بدأ صعودنا في التجارة وصداقتنا. في السنة الأولى نمنا أنا وأليكس في الحانوت ذاته، على الأرض، بجانب الطاولات التي تُعرض عليها في النهار الأطواق والأقراط. عندما انتهى الموسم في أيلول، كانت النتيجة جيدة. كان باستطاعتي أن أخبّئ النقود، أن أحصل على شقّة لائقة أو أن أرحل من ثِنا، لكن ما قمت به هو أنّني استأجرتُ باراً مفلساً. هذا البار هو بار كارتاغو. أغلقت الحانوتَ وعملتُ خلال الشتاء في البار. استمرّ أليكس معي، ولم يغب إلا نهاية أسبوع واحدٍ ذهب فيها ليزور والديه، وهما عجوزان ظريفان متقاعدان، يكرّسان وقت فراغهما للعناية ببستان لهما في بادالونا ويأتيان عادة إلى ثِنا مرّة في الشهر؛ الحقيقة أنّهما يبدوان جدّين له أكثر من والدين. حوّلنا الحانوت في ذلك الشتاء إلى بيتنا، أي هناك كانت وسادتانا وكيسا نومنا وكتبنا (على الرغم من أنّني لم أرَ أليكس يقرأ شيئاً آخر غير دليل الرحالة) وثيابنا. غطّى بار كارتاغو طعامنا وفي الصيف التالي صار عندنا تجارتين تعملان. حانوت المجوهرات الرخيصة، وقد تعزّزت، أعطت مالاً، لكنّ البار أعطى أكثر

بكثير. صيفي الثاني في ثِتا كان رائعاً، كل الناس كانوا يريدون أن يعيشوا أيّامهم الخمسة عشر أو أسبوعهما دون تحفّظ، كما لو أنّ الحرب العالمية الثالثة على وشك أن تبدأ. حين انتهى الموسم استأجرتُ حانوت مجوهرات رخيصة آخر، هذه المرة في إي[1]، على بعد كيلومترات قليلة من ثِتا، وتزوّجتُ أيضاً، لكن هذا ما سأتكلّم عنه لاحقاً. الموسم التالي لم يكن أقل من المواسم السابقة واستطعت أن أضع قدماً في إكس، إلى الجنوب قليلاً من إي، لكنها قريبة بما يكفي من ثِتا كي يراقب أليكس حركةَ الصندوق. بعد ثلاثة مواسم كنتُ مُطلّقاً، وفي تلك المرحلة بلغت أرباحنا أوجها، فبالإضافة إلى البار والحوانيت صار عندنا مُخَيّم وفندق ومحلان آخران كنا نبيع فيهما المجوهرات الرخيصة والهدايا التذكارية وزيوت البشرة للبحر. الفندق صغير لكنّه مريح، كان اسمه فندق البحر. اسم المخيّم ستِلا ماريس. الحوانيت: فواكه الموسم، الشمس البازغة، القرصان، كوستا برافا ومونتانية وأولاده. يسرّني أن أقول إنّني لم أغير أسماءها الأصلية. فندق البحر كان يعود لأرملة ألمانية. مُخيّم ستِلا ماريس لأسرة عريقة من ثِتا، ناس تقدميون حاولوا في البداية أن يستثمروا المخيّم، لكن أمام النتائج الوخيمة اختاروا أن يؤجروه. كانوا يرغبون في بيع الأرض لكنّ أحداً لم يتجرّأ على شرائها، إذ لا يمكن البناء عليها. لا شكّ أن كلّ مخيمات ثِتا ستتحوّل يوماً ما إلى فنادق وأبنية شقق، إذن كان عليّ أن أقرّر ما بين شرائه أو أن أنساه. من المحتمل أن أكون بعيداً عن هنا حين يأتي هذا

(١) يستخدم المؤلف الحرف الأوّل من أسماء هذه البلدات، أو هذه الحروف كرمز لها، فثِتا هو حرف زِد في الإنكليزية وحرف إي هو المسمى في الإسباني إي يونانية وفي الإنكليزية واي. وإكس هو نفسه حرف إكس في الإنكليزية، م.

اليوم. حانوتي الأوّل كما يدلّ اسمه كانت بضاعته هي البقول والخضروات. ما أستطيع قوله عن الحوانيت الأخرى قليل: ماضي مونتانية وأولاده هو الأكثر غموضاً. من هم أو من كان السيّد مونتانية وأولاده؟ المحل مستأجَر من وكالة، لكن على حدّ معرفتي ليس اسمها مونتانية. كنتُ أقولِ أحياناً لأليكس، لمجرد القول، في ذلك المحلّ يجب أن تكون قد قامت تجارة أشياء جنائزيّة فاخرة، أو أثريّات، أو أنّه كان متخصصاً بأدوات الصيد الرياضي، وهي أشياء جميعها لا تروق لمُساعدي. جميعها غير اجتماعيّة، يقولُ، وتأتي بسوء الحظّ. ربّما كان على حقّ. فإذا كان محل مونتانية وأولاده محل صيّادين، فمن الممكن أن يكون قد جلبَ لي قليلاً من سوء الحظّ، الذي رأيت نفسي متحرّراً منه في السابق... الدم... القتل... الخوف من الضحيّة... أتذكّرُ قصيدةً، منذ زمنٍ... ينامُ القاتل بينما الضحيّةُ تُصوِّرُه... هل قرأتُها في كتاب ما، أم أنّني كتبتها أنا نفسي؟ بصراحة نسيتُ، وإن كنتُ أعتقدُ أنّني من كتبتها، في مكسيكو العاصمة الفيدرالية، حين كان أصدقائي شعراء الحديد، وكان غاسبارين يظهر في بارات ضاحية غِررّو أو شارع بوكارلِي بعد أن يسير من طرف المدينة إلى طرفها الآخر، بحثاً عن ماذا؟ بحثاً عمَّنْ؟ عينا غاسبارين السوداوان وسط الضباب المكسيكي، ترى لماذا حين أُفكّرُ به يكتسب المشهدُ أجواء ما قبل الطوفان؟ هائل وبطيء؛ داخل وخارج الأبخرة... لكن ربّما لست من كتبها... القاتل ينام بينما الضحية تلتقط له صوراً، ما رأيكم؟ في المكان الأمثل للجريمة، قصر بِنفينغوت....

غاسبار هِرديا:

كنتُ أحياناً حين أطلّ فجراً على سياج المخيّم الحديدي

كنتُ أحياناً، حين أُطلُّ فجراً على سياج المخيّم الحديدي، أراه يخرج من مرقصِ الطرفِ الآخر من الشارع، سكران ووحيداً، أو مع ناس لا أعرفهم، ولا هو يعرفهم بالحكم عليه من شروده، من حركاته التي لرجل فضاء أو غريق. رأيتُهُ ذات مرّةٍ برفقة شقراء، وكانت المرّة الوحيدة التي بدا لي فيها مسروراً، كانت الشقراء جميلة وكلاهما يعطي انطباعاً بأنّه آخر الخارجين من المرقص. في المرّات القليلة التي رآني فيها كنّا نسلّم على بعضنا رافعيْن أيدينا وكان هذا كلّ شيء. الشارعُ عريض وله في تلك الساعة مظهر شبحيّ، الأرصفة مليئة بالأوراق وبقايا الطعام والعلب الفارغة والزجاج المكسّر. بين مسافة وأخرى يلتقي المرء بسكارى يمضون كلٌّ إلى فندقه ومخيّمه، وينتهي أكثرهم ضياعاً إلى النوم على الشاطئ. عبر رِمو مرّةً الشارع وسألني من بين القضبان عمّا إذا كان العمل يسير بشكل جيّد. قلتُ بلى وتبادلنا الليلة السعيدة. لم نكن نتكلّم كثيراً، هو كان لا يظهر في المخيّم تقريباً. بوباديّا هو الذي كان يأتي كلَّ ليلة، قبل أن تبدأ مناوبتي ويبقى برهة ينظر إلى الكتب والملفات. لم يحصل أنّني وصلت إلى التوادّ معه. كان يتلقى مخصصاته

كلَّ خمسة عشر يوماً وهنا كان ينتهي التعامل بيننا، تعامل مهذّب، هذا صحيح. كان رِمو وبوبادِيا مقدَّرَين من قبل مستخدميهما، الأخير بدرجة أقل، كانا يدفعان جيّداً ويعرفان كيف يظهران تفهّمهما إذا ما ظهرت ذات مرّة مشكلة ما. عاملا الاستقبال، فتاة من ثِتا وبيروي كان الكهربائيّ أيضاً، ونساء النظافة الثلاث ـ واحدة سنغالية تعرف فقط أن تقول مرحباً ومع السلامة ـ كانوا يعملون بقدر استطاعتهم في جوّ مريح بل ويدعو للرومانسية. كان بين البيروي وعاملة الاستقبال مسألة غرامية. على كلّ الأحوال كانت المشاكل بين المستخدمين وأصحاب العمل في حدودها الدنيا ولم يكن هناك مشاكل بين المستخدَمين، أحد الأسباب المحتملة لهذا الانسجام يمكن أن يكون في غرابة المجموعة التي تعمل هناك: ثلاثة أجانب بلا إذن عمل وثلاثة إسبانيين مسنين لم يكونوا يقبلونهم في أيّ مكان آخر، وبذلك كان النصاب مكتملاً. أجهل ما إذا كانت الأطقمُ في متاجر رِمو الأخرى لها مثل هذه الميزات، أظنّ لا. بين نساء النظافة وحدها مريم السنغالية كانت تنامُ خارج المخيّم. الاثنتان الأخريان، روسا وأثوثِنا كانتا من طوق برشلونة وتنامان في خيمة عائلية من غرفتين بالقرب من المغاسل الرئيسيّة. أختان وأرملتان، كانتا تكملان يوم عملهما بتنظيف بيوت تابعة لوكالة تأجير شقق. كان ذلك أوّل صيف تعملان فيه في ستِلا ماريس: في العام السابق عملتا في مُخيم آخر من ثِتا، فصلتا عن العمل فيه نظراً لتعدّد أعمالهما مما كان يجبرهما أحياناً على الغياب حين يكونون بأمسّ الحاجة إليهما. وعلى الرغم من أنّهما كانتا تعملان خمس عشرة ساعة وسطيّاً إلّا أنّ الوقت كان يفيض عنهما، لتتناولا ليلاً بعض الكؤوس على ضوء مصباح غازيّ، جالستين على كرسيين بلاستيكيين في باب خيمتهما بينما هما تذبّان البعوض وتتحدّثان

عن أشيائهما. تتحدثان أساساً عن قذارة الكائنات البشرية. الخراء، سهل التشكّل، الذي يكاد يكون لغة تحاولان عبثاً أن تحلا لغزها، كانت موجودة في كلّ أحاديثهما الليليّة بعد العشاء. منهما عرفت أنّ الناس يتغوّطون في الحمّامات، على الأرض، على جانبي جرن المرحاض وعلى حوافّه، عملية التوازن الضروري، التي لا تخلو من بعض المهارة البسيطة والعميقة. بالخراء كانوا يكتبون على الأبواب وبالخراء يوسخون المغاسل. خراء يتغوّطُونه أولاً ثمّ ينقلونه إلى أماكن رمزية وملفتة للانتباه: المرآة، عبوة إطفاء الحرائق، الصنابير، خراء معجون يلصق بعدها مشكلاً حيواناتٍ (زرافات/ فيلة، الفأر ميكي) شعارات كرة قدم، أعضاء من الجسد (عيون، قلوب، قضبان). أكثر ما كان يثير غضب الأختين، هو أنّ الشيء ذاته كان يحدث في مغاسل النساء وإن كان حدوثه أقلّ وببعض التفاصيل المهمّة التي كانت تجعل ممارسة هذا التمادي تُلصق بشخص محدّد. بـ«امرأة قذرة لعينة» كانتا مستعدتين لصيدها. من أجل ذلك أقامت الأختان مع السنغالية مراقبة حذرة تقوم على نهج الاستبعاد المثابر والمضجر. أي إنهنّ كنّ يمعنّ بانتباه بمن كنّ يستخدمن المغاسل، فيدخلن بعد خروجهنّ مباشرةً ليتحقّقن من الحالة التي تركنها فيها. هكذا اكتشفن أنّ تلك الأعمال السيّئة كانت تحدث في ساعة معينة من الليل، والمشكوك بها كانت واحدة من المرأتين اللتين كنتُ أراهما في شرفة البار. أبلغت روسا وأثوثِنا عمال مكتب الاستقبال بذلك ونقل هؤلاء الأمر إلى كاراخيّو، وكاراخيّو أبلغه بدوره لي وطلب مني أن أكلّم المذكورةَ بطريقة حسنة ودون إهانة وأن أفعل ما أستطيع. لم تكن المهمّة سهلة، كما تدركون. انتظرتُ في تلك الليلة في الشرفة حتى ذهب الجميع. وكانت المرأتان، كما هو الأمر دائماً، آخر من

ذهبتا، كانتا جالستين في الطرف الأقصى المقابل لطاولتي، شبه خفيتين تحت شجرة هائلة حطّمت جذورُها أرضيةَ الشرفة. ما اسم هذه الأشجار؟ موز؟ صنوبر ثمري؟ لا أعرف. اقتربتُ منهما حاملاً فنجاني في يدٍ ومصباح الحراسة بيد أخرى؛ فقط حين أصبحت على بعد أقلّ من متر منهما أظهرتا أنّهما لاحظتا حضوري. سألتُ عمّا إذا كان باستطاعتي أن أجلس إلى جانبهما. أطلقت العجوزُ ضحكةً وقالت طبعاً، كيف لا، يا حلو. كلتاهما كانت يداها نظيفتين. كلتاهما بدا أنّها تستمتع برطوبة الليل. ماذا باستطاعتي أن أقول؟ لا شيء غير الترهات. هالة من الوقار الغريب كانت تلفّهما، تحميهما. كانت الشابة صموتة وغامضة. العجوز على العكس منها، مهذارة ولها لون القمر، لون قمرٍ مُتَشظٍّ راح ينهار. عمّا كانتا تتكلّمان في تلك المرّة الأولى. لا أتذكّر. ولا حتى بعد دقيقة من تركي لهما استطعتُ أن أتذكّر. وحدها ضحكات العجوز وعينا الشابة المنبسطتان كانتا تظهران بصفاء، بصفاء أقصى. هل كما لو أنّها تنظر إلى داخلها؟ ربّما. هل كما لو أنّها منحت عينيها إجازة؟ ربّما، ربّما. وكانت العجوز خلال ذلك تضحكُ، تقول كلمات مُلَغّزة، كما لو أنّها رموز، كما لو أنّ كل ما هو موجود هناك، الأشجار، أرض الشرفة غير المستوية، الطاولات الفارغة، انعكاسات مدخل البار، راحت تنمحي تدريجياً ولا أحد غيرهما يلاحظ ذلك. فكّرتُ أنّ امرأة كهذه لا يمكن أن تفعل ذلك الشيء الذي يُعزا لها، وإنْ هي فعلت فلها أسبابها. في الأعلى على أغصان الأشجار كانت جرذان المخيّم تمارس ألعابها الليلية. (جرذان وليست سناجب كما ظننت في الليلة الأولى!). عندها راحت العجوز تُغنّي، بصوت لا هو مرتفع ولا هو منخفض، كما لو أنّ صوتها بانتباهها إليّ، كان يهبط أيضاً رصيناً من بين الأغصان. صوتٌ

مُهذَب. اعتقدتُ، على الرغم من أنني لا أعرف شيئاً عن الأوبرا، أنني ميّزت مقاطع من أغانٍ منفردة مختلفة. ومع ذلك فأبرز شيء عندها هو أنّها كانت تُغنّي بلغاتٍ مختلفة، مقاطعَ صغيرة راحت ترسلها دون صعوبة، رفرفة بالنسبة لاستمتاعي وحدي. وأقول استمتاعي وحدي لأنّ الفتاة بقيت ساهية طوال الوقت. كانت أحياناً تحمل رؤوسَ أصابعها إلى عينيها لا غير. مريضة بين تغريدات المغنّية، بقيت مالكة لقوّةِ إرادةٍ ظاهرة، مَنَعَتْها من أن تسعل عندما كانت العجوز تُغنّي. هل نظر الواحد منّا إلى عيني الآخر ذات لحظة؟ لا، لا أعتقد ذلك، وإن كان ممكناً. وإذا كنتُ قد نظرتُ إليها فلا بدّ أنني لاحظتُ أن لوجهها فضيلة ممحاة. تروح وتغدو! كثيراً وبقوّة جعلت حتى إنارة المعسكر راحت تومض، تنمو وتضعف، أجهل ما إذا كان على إيقاع لقاءاتي مع وجهها أو متبعةً مسار صوت المغنّية. شعرتُ خلال لحظةٍ بشيء شبيهٍ بالنشوة: كانت الظلال تتطاول والخيام تنتفخ مثل أورام غير قادرة على أن تنفصل عن الحصى، بريق السيارات كان يتمعدن حتى الألم الخالص. بعيداً عن الشرفة في التقاطع الذي يؤدّي إلى الخارج رأيتُ كاراخيّو. بدا تمثالاً وإن عرفتُ أنه لا شكّ كان يُراقبنا منذ برهة. وهنا قالت العجوز شيئاً بالألمانية وأوقفت غناءها. ما رأيك، يا حلو؟ قلتُ رائع ونهضتُ. لم ترفع الفتاة نظرها عن فنجانها. كان بودّي لو أدعوهما للشراب أو الطعام، لكنّ بار المخيّم كان مغلقاً منذ وقت طويل. تمنيت لهما ليلة سعيدة وذهبتُ. حين وصلت إلى التقاطع لم أجد كاراخيّو. وجدته في غرفة الاستقبال. كان التلفاز مشتعلاً. سألني، كما لو أنّه لا يولي الأمرَ أهمّية، ما الذي جرى. قلتُ لا أعتقد أنّ تلك المرأة كانت المُتَغَوِّطة التي كانت روسا وأثوثِنا تبحثان عنها. أتذكّر أن البرنامج التلفزيوني كان

إعادة نقل لبطولة غولف من اليابان. نظر كاراختيو إليّ بحزن وقال: بلى كانت هي، لكن ليس للأمر أهمية. ماذا كنّا سنقول لنساء التنظيف؟ سنقول لهنّ إنّنا نتابع الموضوع وإنّ هناك مشتبهاً بهنّ أكثر، وإن تلك كانت مسألة تحتاج لتفكير، سيخطر لنا شيء...

إنريك روسكيّس:

يقولون إنّ بِنفينغوت هاجر في نهاية القرن الماضي

يقولون إنّ بِنفينغوت هاجر في نهاية القرن الماضي، عاد بعد الحرب العالمية الأولى وبنى القصر في ضواحي البلدة، تحت الجرف، في الشرم المعروف اليوم باسم شرم بِنفينغوت. في المدينة القديمة يوجد اليوم شارع باسمه: شارع جوان بِنفينغوت. محل خبز، محل أزهار، محل سلال، وبعض الشقق القديمة والرطبة تُحافظ على ذكر ذلك الكتلانيّ الشهير. ماذا فعل بِنفينغوت في ثِتا؟ عاد، يبدو لي، وتحوّل إلى مثال ملموس لما يمكن أن يفعله ابن بلدٍ غنيّ في الأمريكتين. أُوَضِّحُ مُقَدَّماً أنّني لا أميل إلى هذا النوع من الأبطال. يعجبني الذين يعملون ولا يتبجّحون بمالهم، يعجبني من يُحدِّثون البلدَ ويكونون قادرين على أن يهبوه ما هو ضروريّ مهما واجهوا من صعوبات في طريقهم. بحسبِ ما أعرف لم يكن عند بِنفينغوت أيّ شيء من هذا. ابن صيادين، قليل التعليم، يتحوّل عند عودته إلى زعيم ثِتا وإلى واحد من أثرى أثرياء المقاطعة. طبعاً كان أوّل من ملك سيّارة. أيضاً كان أوّل من بنى مسبحاً وحمّامَ بخارٍ في منزله. صُمِّمَ القصرُ في جزء منه من قبل معماريّ شهير في تلك السنوات، لوبِّتْ إي بّورتا، ورِيث غاودي ومن قبل بِنفينغوت

نفسه، وهو ما يشكّل تفسيراً مقبولاً لطبيعة المنزل المتداخلة، الفوضوية، المزعزعة في الكلّ وفي كلّ طابق من طوابقه. عمليّاً كم عدد طوابق قصر بِنفينغوت؟ قليلون من يعرفون ذلك معرفة أكيدة. حين تنظر إليه من البحر يوحي بأنّه مكوّن من طابقين، ويولد إضافة إلى ذلك انطباعاً بأنه يغور، كما لو أنّه يرتكِزُ على الرمل المتحرّك وليس فوق حجارة حيّة. بمشاهدته من المدخل الرئيسي أو الطريق الذي يخترق الحديقة النبيلة يستطيع الزائرُ أن يُقسِمَ بأنه من ثلاثة طوابق. الحقيقة أنّه من أربعة طوابق. الخديعة تكمن في توزيع النوافذ وميلان الأرض. من البحر يُرى الطابقان الثالث والرابع. كم من المساءات اللطيفة أمضيتُ هناك مع نوريا، حين كان مشروع بِنفينغوت مجرّد مشروع، مجرّد إمكانيّة أن تنفخ في روحيَ الشعر والإيثار اللذين ظننتُهما ملازمين للحب! بكم من السعادة المذهلة طفنا في غرفه، وفتحنا شرفاته وخزائنه، مكتشفَيْن فناءاتٍ داخلية، وأركاناً مخفية وتماثيلَ حجرية تغطيها الأعشاب! وكم كان لطيفاً أن نجلس متعبين في نهاية النزهة على شاطئ البحر ونتنبه إلى الشطائر التي حضَرتها نوريا مسبقاً. (لي عبوة بيرة ولها مياه معدنية في عبوة كرتونية!) كثيراً ما سألتُ نفسي خلال تلك الليالي الأبديّة ما الذي دفعني إلى أن آخذها للمرّة الأولى إلى قصر بِنفينغوت. الذنب، بمعزلٍ عن الحبّ الذي يحاول أن يكون بشكل مؤسف ممتعاً ويُورِّط، ذنبُ *البحيرة الزرقاء*. بلى أقصد الفيلمَ، فيلمَ بروك شيلدز القديم. على شرف الحقيقة، وكمعلومة غريبة عليّ أن أقول إنّ جميع أفراد عائلة مارتي كانوا يُحبّون البحيرة الزرقاء: الأمّ، نوريا، لايا مستهلكات متحمسات لمغامرات بروك شيلدز في الجنّة. هل رأيتم *البحيرة الزرقاء*؟ أنا ابتلعته خمس مرّات بالفيديو، في صالون بيتهن الصغير، على الرغم من أنّني

لم أعرف مزيّاته السينمائيّة. السعادة التي كانت تُحدثها عندي بدايةً، ليس الفيلم، بل صورة نوريا الجانبيّة وهي تتأمّل ذينك الطفلين المستوحشين، تبدّلت من كثرة ما استعمل الشريط إلى قلقٍ وخوف. كانت نوريا ترغب بأن تعيش، على الأقل حين كنّا نشغّل الفيلم، في جزيرة بروك شيلدز! كان جمالها الملائكيّ، جسدها التام والرياضيّ يستحقّان المقارنة وتغيير المشهد. المتضرّر من هذا الاستنتاج كنتُ أنا. إذا كان من حقّ نوريا أن تعيش في تلك الجزيرة، فمن حقّها أن تحظى برفيق ناعمٍ، قويّ وجميل، كي لا أقول شاباً مثل فتى الفيلم. عليّ أن أعترف أنّه لم يكن باستطاعتي أن أطمح إلا لأن أكون بيتر أوستينوف (قالت لايا في إحدى المُناسبات مشيرة إلى أوستينوف إنّه بدين طيّب على الرغم من أنه كان يبدو بديناً شريراً، شعرت بأنّني المقصود. احمررتُ خجلا). كيف سأقارن بدانتي، استداراتي غير اللطيفة بعضلات نيك القاسية؟ كيف سأقارن طولي الأقل من المتوسّط، بطول الأشقر البالغ متراً وثمانين سنتيمتراً. المسألة موضوعيّاً كانت مُضحكة. لو كان أي شخص آخر لضحك من هذه المخاوف. بالمقابل عانيتُ كما لم أعانِ قط. صارت الملابس والمرآة آلهة خيّرة ورهيبة. مُذّاك حاولت أن أجري في الصباحات، وأرفع أثقالاً في قاعة الرياضة البدنية، أجرّب حميات تخفيف وزن. بدأ الناس في العمل يلاحِظون شيئاً غريباً فيّ، كما لو أنّني أستعيد شبابي. أسناني رائعة! شعري لا يسقط! تطمينات محلّلٍ نفسي كنتُ أقدمها أنا نفسي لنفسي أمام المرآة. لي راتب استثنائي! سيرة حياة واعدة! لكنّني وددت لو أستبدل كلّ هذا ببقائي مع نوريا وبأن أصبح مثل نيك. عندها فكّرتُ أنّ قصر بِنفينغوت كان جزيرة، وأخذت نوريا إليه. أخذتها إلى جزيرتي. جزء لا بأس به من الواجهة والبرجين اللذين

يبرزان من بين الأبنية الملحقة ملبّسة ببلاط أزرق. أزرق بحريّ في القسم السفلي منها وأزرق سماوي في القسم العلوي من البرجين كليهما، حين تَنْصَبُّ عليهما الشمس كاملة يمكن للمتنزّه أن يلمح بريقاً أزرقَ، تدرّجاً أزرق ينهض باتجاه التلال. من منعطف في الطريق رأينا أولاً من السيارة القصرَ يلمع، دعوتها بعد ذلك للدخول. كيف كانت المفاتيح معي؟ ليس هناك ما هو أسهل من ذلك: كانت ملكية القصر تعود منذ سنوات لبلديّة ثِتا. طلبتُ من نوريا أن تُعَبّر عن رأيها وأنا أرتعد. وجدتُ كلّ شيء رائعاً. هل هو بجمال جزيرة بروك شيلدز؟ أجمل بكثير! أجمل بكثير! ظننتُ أنّه سيُغشى عليّ. راحت نوريا ترقصُ على امتداد القاعة، تُحيّي التماثيلَ وتضحك طوال الوقت. طال مشوارنا في القصر ولم نتأخّر في أن اكتشفنا تحت عنبر هائل مسبحَ جوان بِنفينغوت الأسطوري تعلوه الأوساخ مثل مستودع للخرق، المسبح الذي كان أبيض قديماً بدا أنه يعرفني، يُسلم عليّ. بقيت هناك جامداً غير قادر على أن أكسر السحرَ بينما نوريا تجوب غرفاً أخرى. لم يكن باستطاعتي أن أتنفّس. أستطيع أن أقول إنّ المشروع قد وُلدَ، بخطوطه المتقنة، برغم أنّني عرفتُ دائماً بأنّهم سيكتشفونني في النهاية...

رِمو موران:

تعرّفت على لولا في ظروف استثنائية

تعرّفت على لولا في ظروف استثنائية خلال شتائيَ الأوّل في تِتا. أحد، روح بارّة أو شيطانية استنفر الخدمات الاجتماعية في البلدة وذات ظهيرة ساطعة ظهرت هي في الحانوت المغلق. استطاعت من خلال البلور أن تراني. كنتُ جالساً على الأرض، أقرأ كما كنتُ أفعل في كلّ الصباحات، فبدا لي وجهها على الجانب الآخر من البلور رصيناً ورائعاً مثل بقعة شمسية. لو عرفتُ أنها المساعدة الاجتماعية وأنّها جاءت بحكم عملها، دون شكّ ما كانت لتبدو لي بمثل ذلك الجمال. لكنّني عرفت هذا بعد أن نهضتُ لأفتح لها الباب وبعد أن قلتُ لها إنّ الحانوت سيبقى مغلقاً حتى شهر أيّار. وبابتسامة لن أنساها أبداً قالت إنّها لم تكن تريد أن تشتري شيئاً. سبب زيارتها شكوى. كانت اللوحة إلى هذا الحدّ أو ذاك هي التالية: طفل أليكس، لا يذهب إلى المدرسة؛ أخوه الكبير، أو أبوه، أنا، لا أعمل شيئاً غير القراءة حين كانت الشمس تسخّن واجهة المحل؛ حانوت في وسط المنطقة السياحيّة يتعرض لخطر أن يتحوّل إلى زريبة بسبب بعض الأمريكيين اللاتينيين المستهترين. حملتها على الفور إلى كارتاغو، على بعد خطوات من هناك، حيث كان

أليكس يُراجع بمنأى عن الزبائن للمرّة المئة لائحة المحلات سيّئة السمعة في إسطنبول. بعد التعريف دعوناها لتتناول كأس كونياك، برهن أليكس بعدها وهويته في يده، على بلوغه سنّ الرشد. بدأت لولا تقول إنّها تأسف جدّاً، وإنّ هذه الأخطاء شائعة. عندها رجوتها أن تعود معي إلى الحانوت كي ترى أنّه ليس زريبة أبداً. وأريتها الكتب التي كنتُ أقرؤها، قلتُ لها من كان شاعري الكتلانيّ المفضّل ومن هم شعرائي الأسبان المفضّلون. يعني الأسطوانة ذاتها دائماً. على كلّ الأحوال لم تستوعب قط لماذا كنّا ننام في الحانوت وليس في شقّة أو نزلٍ. خلصتُ من ذلك الحادث إلى بعض الأشياء الواضحة. أوّلاً أنّه كان يُنظرُ إلى الأمريكيين الجنوبيين بعين الريبة، ثانياً أنّ بلدية يِتا لا تريد تجاراً ينامون على أرض محلاتهم التجارية ذاتها؛ ثالثاً أنّ أليكس بدأ يكتسب نبرتي، وهذا مقلق. كانت لولا في ذلك الوقت في الثانية والعشرين من عمرها وكانت قويّة الإرادة وذكية لكن ليس كثيراً، وإلّا لما تورّطت معي. كانت مرحة!، لكن أيضاً لديها إحساس عال بالمسؤولية واستعداد هائل للسعادة. أعتقد أنّنا لم نكن تعساء. كنّا معجبين الواحد بالآخر، بدأنا نخرج وبعد أشهر تزوّجنا، أنجبنا ولداً وحين أتمّ الثانية تطلّقنا. معها عرفتُ لأوّل مرّة عالمَ البالغين، على الرغم من أنّني عرفت هذا بعد انفصالنا. كنتُ بالغاً، أعيشُ بين بالغين وكانت مشاكلي ورغباتي مشاكل ورغبات بالغ، وكانت ردود فعلي ردودَ فعل بالغٍ، حتى أسباب انفصالنا كانت بوضوح أسباب بالغين. الصداع التالي كانَ طويلاً وأحياناً مؤلماً، لكن حالفتني مَيْزَة أنّني اندمجتُ في مرحلة مؤقتة كنتُ في أعماقي توّاقاً لها. هل سبق وقلت إنّ رئيس لولا كان إريك روسكيّس؟. خلال عيشنا المشترك استطعتُ أن أكوّن فكرة تقريبية عن هذا الشخص. كان كريهاً؛

طاغية صغيراً مليئاً بالمخاوف والنزوات، مقتنعاً بأنه مركز العالم في الوقت الذي كان الشيء الوحيد الذي قد يتمكن من الوصول إليه هو أن يكون بديناً مقرفاً جاهزاً للطبخ. شاء القَدَرُ أن تكون كراهيته لي طبيعية ولحظية. لم أفعل ما يُغذي كراهيته التي كنتُ أعرف أنّها غير عقلانية ومستمرة (فقط التقينا ثلاث مرّاتٍ). حاول على طريقته المواربة أن يوقع بي في مناسبات عديدة: كان يُراقب التنفيذ الصارم لساعات الإغلاق، باحثاً عن أخطاء في تراخيصي الماليّة الطبيعية والفجائية؛ مُحرّضاً مفتشي العمل ضدّي، لكنّه لم يَنجح في شيء. ما الذي كان يدفعه لهذا الإمعان في التصيّد؟ أخمّن أنّها كانت ملاحظة ما تافهة من قبلي، تعليق ما غير لطيف لم أنتبه إليه، لكنّه أهانه بعمق. أظنّ أنّ هذا التعليق تمّ بحضور ليس لولا وحدها، بل بحضور كامل طاقم الخدمات الاجتماعية في ثِتا. أتذكّر بشكل مشوّش حفلة، ماذا كنتُ أفعل هناك؟، لا أعرف، أرافق لولا، أعتقد، وإن كان مستغرباً: كانت لكلّ منا صداقاته المحدّدة، هي كان لها أصدقاؤها في العمل، كان بينهم روسكيِّس، وأنا كان لي أليكس والناس الذين كانوا يذهبون ليشربوا في كارتاغو، الحزن الخالص. الصحيح هو أنّ من المحتمل أنّني أهنته. بالنسبة لشخص من نوع روسكيِّس يمكن لملاحظة، ربّما خبيثة قليلاً، وربّما قيلت بنيّة سيّئة، أن تُغذّي حنقه بشكل مطلق. على كلّ الأحوال لم تتجاوز كراهيته الحدود البيروقراطية التقليدية؛ على الأقل حتى الصيف الماضي. وقتها بدا أنّه يجنّ بشكل غير مفهوم. صار تصرّفه أكثر شذوذاً من المعتاد وكان مرؤوسوه، بحسب ما حكت لي لولا، لا يرغبون بشيء آخر غير أن تأتي الإجازات. كراهيته للأمريكيين الجنوبيين كان لها مقصد دقيق. في نهارات وليالٍ كثيرة شعرتُ بظلّه المشغول دائماً حولي، بقُباع خنزير

مُجنّح خبيث، كما لو أنّ شَرَكَهُ صار له هذه المرّة أَوْجُهَ الفعل. كان الوضع بطريقة ما مهماً وجديراً بالدراسة، بالرغم من أنّ الشيء الوحيد الذي كان يهمّني في تلك الفترة فعلاً هو نوريا مارتي. ماذا كان يهمّني أن يكون روسكيّس عصبياً بشكل جليّ وأنّه كان يُرغي ويُزبد. المسألة، التي شكّلت مثلثاً أصيلاً جدّاً، كان من الممكن أن تكون مسليةً، لكن نادراً ما يكون الموت كذلك. أعتقد أنّني خلال كلّ السنوات التي قضيتها مقبوراً في ثِتا كنُت أُحَضّر نفسي كي أعثر على الجثّة...

غاسبار هِرديا:

مغنّية الأوبرا لم تنزل قط

مغنّية الأوبرا لم تنزل قط في المخيّم بشكلٍ شرعيّ ولا اسمها يرد في سجل الاستقبال، ولم تدفع في حياتها بيزتة واحدة لأنّها نامت هناك أو في أيّ مكان آخر. هذا ما لم تكن تعرفه نساء التنظيف ولا مستخدمو الاستقبال: وحدنا أنا وكاراخيّو كنّا نعرف ذلك. كان اسمها كارمن وكانت تمضي أيّامها في إتا منذ بداية الربيع وحتى أواسط الخريف، تنامُ بسهولة حيث تستطيع ويسمحون لها، تحت مظلات محلات بيع المثلجات على الشاطئ أو غرف قمامة بعض الأبنية. كان كاراخيّو يعرفها جيّداً ويبدو أنّه يُحبّها، على الرغم من أنّ أجوبته حين كنتُ أستجوبه عنها عادة ما كانت غامضة؛ يبدو أنّهما من عمر واحد، وهذا يهمُّ أحياناً. كانت تكسب أودها بالغناء في شرفات المقاهي وشوارع المدينة القديمة. كانت تقول إنّ الشيء الوحيد الذي تتذكّر أنّها تحتفظ به من سنوات مجدها هو لائحة أغانيها المتنوعة. نجاحها المُطلق كان يسمى نابولي ويعود تاريخها إلى مرحلة الأبهة والهول التي لم تبغ قط أن تدخل في تفاصيلها، لكنّها أيضاً كانت تُغنّي لموزات أو لخوسِهْ ألفرِدو خيمِنِث. وكان الناسُ يكافئونها بإعطائها مئة بيزتة. كانت العلاقةُ بين كارمن والفتاة أقربُ إلى القَسَمِ الخاصّ منه إلى الصداقة. كانتا تبدوان

أحياناً أمّاً وابنةً، أو جدّةً وحفيدة، وأحياناً تمثالَيْن وُضِعا مصادفةً الواحد بجانب الآخر. كان اسم الفتاة كاريداد وكانت هي من تُمرّرُ سراً العجوزَ على مرأى من كاراخيّو شارد الذهن. كانتا تقتسمان خيمة كنديّة بالقرب من ملاعب الكرات الخشبية، وكانتا معتادتين على النوم متأخرتين والاستيقاظ متأخرتين. لم يكن من الصعب تمييز منطقة المرأتين من بعيد؛ القمامة، أو بالأحرى الأشياء المستهلكة وغير المفيدة، ليست مستنفدة تماماً، كانت تتكوّم بارتفاع ثلاثين سنتمتراً على امتداد محيط الخيمة، كشرفات حصن بائس. بصراحة كان أعجوبة أنّ الشكاوى ضدّهما لم تنهل علينا يوميّاً. ربّما كان جيران كاريداد سياحاً عابرين وسئموا من تعكير مزاجهم دون أيّ جدوى. في الاستقبال كان اسمها يتصدّر المتأخرين عن الدفع (كانت مدينة بأجرة شهرين) وسيطلبان منها بحسب البيروي أن تغادر المخيّم بسرعة. أليس من الأفضل أن نعرض عليها عملاً. كان عمال الاستقبال قد فكّروا بذلك، لكنّ القرار يجب أن يتخذه بوباديّا وهذا، على ما يبدو، كان يخاف من الفتاة. لم يندر أن تُرى، بحسب البيروي، مُسَلّحةً بسكين. رفضتُ أن أصدق ذلك، على الرغم من أنّ صورة مليئة بالاحتمالات كانت تفرض نفسها على عدم تصديقي: كانت كاريداد تتسكع في البلدة (التي لا أكاد أعرفها، فأنا لا أخرج تقريباً من المخيّم) وسكين مطبخ تحت قميصها وهي تتأمّلُ مُغَبّشَةَ العينين شيئاً لا أحد يستطيع أن يلمحه. كانت للسكين قصّتها بحسب ما علمت لاحقاً. وصلت كاريداد قَبْلَ بدايةِ الموسم إلى ستِلا ماريس برفقة صديقٍ. تفرّغا في الأيّام الأولى للبحث عن عمل. أمطرت في ذلك الشهر كما لم تمطر أبداً، يحكي كاراخيّو (أنا كنتُ في برشلونة) وأتذكّر بشكل مبهم وقع المطر على نافذة غرفتي، في ذلك الوقت بدأت كاريداد تسعل وراح وجهها يكتسب ملامحَ المرض. لم يكن معهما نقود

وتغذيا بشكل أساسيّ على اللبن الرائب والفواكه. كانا يَسكران بالبيرة أحياناً ويمضيان النهار بكامله في الخيمة، يتأففان ويتهادلان. سرعان ما عثرا على عمل في بار في الكورنيش البحري، الاثنان في المطبخ، يجليان الصحون، لكنّ كاريداد عادت إلى المُخيَّم بعد خمسة عشر يوماً إبان عملها ولم تعد إلى العمل بعدها. بعدها بقليل بدأت المشاجرات. وذات ليلة حدثت ملاحقة حتى المقاصِب. سمع كاراخيّو من الاستقبال ضجة فدار حول المسبح ليرى ماذا كان يحدث. وجد كاريداد مليئةً بالخدوش مرميةً بوجهها على الأرض، بلا حراك، ولا تنفّس تقريباً. لم تكن ميتة، كما ظنّ كاراخيّو؛ كانت مفتوحة العينين وتنظر إلى العشب والتراب الرملي. تأخرت في الانتباه إلى أنّ لا أحداً كان يريدُ مساعدتها. كانت الصرخات تأتي أحياناً من الخيمة ولا أحد يعرفُ معرفة اليقين ما إذا كانت صرخات ألم أم سعادة. كان الفتى شاحباً ويمضي دائماً بقميصٍ طويل الكمّين. كان عنده درّاجة نارية، وهي الآلية التي وصلا بواسطتها إلى المخيّم، لكنّ نادراً ما استخدماها بعدَ استقرارهما هناك. كانت كاريداد تُحبّ أن تمشي، تمشي دون وجهة معيّنة أو أن تبقى لا تتحرّك أبداً. هو ربّما كان يُحب أن يوفّر نقودَ المحروقات. ما من أحدٍ منهما كان قد تتجاوز العشرين وعليهما مظهر المرضى اليائسين في مراحلهم الأخيرة. ظهرت ذات ليلة في الشرفة ومعها سكّين، وحيدة، وفي صباح اليوم التالي غادر صديقها ستِلا موريس كي لا يعود بعدها. على الأقل تلك كانت الرواية الأكثر انتشاراً، الرواية التي سمعها بوباديّا حين كان يأتي في المساءات كي يُباركَ سيرَ العمل. كانت كاريداد تمضي وقتاً قليلاً في المخيّم. رآها كاراخيّو تصل ذات ليلة مع كارمِن ولم يقل شيئاً. في الليلة التالية اشترط عليهما شرطاً واحداً كي يغضّ الطرف عنهما: ألّا تُغنّي العجوز. في صداقة المرأتين كان الحظُّ والحاجة يتحالفان

بالتساوي: كانت كارمن تدفعُ ثمن القهوة بالحليب وكاريداد تُقدّم لها الخيمة الكندية ومكاناً للنوم؛ في النهار كانتا تترافقان وتتسكعان في ثِنا من زاوية إلى أخرى. العجوزُ تُجْهِدُ صوتَها بالغناء وكاريداد تتأمّل الناس، الشمسيّات، الطاولات المليئة بالمرطبات. كانت كلتاهما تكره الشاطئَ والشمسَ. وذات مناسبة اعترفت لي العجوز، الوحيدة التي كانت تتكلّم، أنّها كانت تسبح ليلاً في المنطقة الصخرية عاريةً تماماً، منتبهة إلى سعال كان يبدو أنّه يأتي من البحر. لم أنجح قط في جعلِها تبتسم لي، على الرغم من أنني بذلتُ كلَّ ما كان في استطاعتي بذله. كنتُ قبل دخولي إلى العمل أشتري بيرةً وشطائرَ وبطاطا مقلية من سوبر ماركت المنطقة، كي أستطيع أن أدعوهما ليلاً في الشرفة. انتظرتهما ذات مرّة ومعي علبة بوظة وثلاث ملاعق بلاستيكية. كانت البوظة شبه ذائبة، لكنّنا أكلناها. كانت العجوز تُعَبِّرُ عن شكرها على هذه التفاصيل قارصةً إياي من ذراعي أو مطلقة عليّ ألقاباً. بالنسبة إلى كاريداد كانت كمن يُشاهد فيلماً مُسقطاً على السماء. مع مرور الأيّام، جاء الصيف إلى ثِنا بكمٍّ جيّد من السياح، وفي كلّ مرّة كان وقتي يضيق أكثر فلا ألتقي بهما. بدا وكأنّهما مع وصول الناس راحتا تبتعدان، سائرتين إلى الخلف، خارج العالم. عرفت ذات ليلة أنّ بوباديّا والبيروي طرداهما. خرج كاراخيّو من الحادث بخدشٍ وهناك انتهى كلّ شيء. الخيمة الكندية الآن في المخزن، محجوزة حتى تُسدّدا الدين. في تلك الليلة ذاتها دخلتُ إلى المخزن دون أن يراني أحدٌ وبحثت بمصباحي عن الخيمة حتى عثرتُ عليها، موضوعةً بشكل سيّئ في زاوية. جلستُ بجانبها وأدخلتُ أصابعي في طيات قماشها. كان لداخل المخزن رائحة بنزين. فكّرتُ أنّني لن أراهما بعد الآن أبداً.

إريك روسكيّس:

عثرتُ على عامل تمديدات مياه، على كهربائيٍّ على نجّار

عثرتُ على عامل تمديدات مياه، على كهربائيٍّ على نجّار، وضعتهما جميعاً تحت إمرة البنّاء الوحيد في يِتا الذي كان باستطاعتي أن أثق به، شخص قاس وبائس وأطلقتُ مشروع قصر بِنفينغوت. أخرجت مالاً من حيث لا يوجد غير الحجارة، لا أحد أراد أن يتحقّق من مصير تلك المبالغ أو الأجزاء من المبالغ في بلدة الشكّاكين هذه، لا أحد تجرّأ على التشكيك بي؛ أنا لم أكذب، أو على الأقل لم أكذب دائماً. نجحتُ في جعل بيلار وثلاثة نوّابٍ في المجلس البلدي يصدقون أنّ أعمالي ستعود بالفائدة على البلدة. لم يكن لدى البنّاءِ فكرة دقيقة عمّا كنتُ أريد عمله (هو رجل يميني، بل ومن أقصى اليمين ودائماً خفت من الابتزاز) لماذا استخدمته دون غيره؟ واضح، لأنّ أيّ شخصٍ آخر كان سيفلت لسانه. عثرتُ في إحدى مكتبات برشلونة على المخطّط الذي كنتُ أبحثُ عنه. رسمته بصبرٍ، حتى فهمت عمله. سرعان ما بدأ يصل عمّال وعادت الكهرباء إلى قصر بِنفينغوت. عندها أعلنتُ عن هدف وأبعاد الإصلاحات المنفّذة بغموض ورصانة، كما لو أنّني أريدُ أن أتلقى التهاني مُقدّماً. وضعت خمس سنوات لإنهاء الأعمال وتنبّأت بأنّ

هذه ستُعزّز نشاطات الأقسام التالية: الخدمات الاجتماعية. التعليم، المعارض والأعياد، الثقافة: الصحة!، مشاركة المواطنين، الشباب والحماية المدنية! اعذروني لأنني لا أستطيع أن أكبح ضحكتي. كيف استطاعوا أن يبلعوا كلَّ الذي قلته لهم، إنّه لغز الطبيعة البشرية. وحده أحد الكتبة الصغار في قسم المعارض والأعياد تجرّأ على أن يسألني (الآن أعرف أنّه كان دون خبث) عمّا إذا كنت أفكّر ببناء ملجأ ذريّ في أساسات القصر الصخرية. صعقته بنظرتي فندم الرجل المسكين لأنّه تكلّم. كم كانوا جميعاً سذّجاً وحمقى! في أقل من عام كان المشروع منتهياً. احتفظتُ للحفاظِ على الوهم ولأنّني كنتُ أُفكّر على المدى الطويل بتأهيل القصر للمصلحة العامّة (بالرغم من أنّ أحداً لا يُصَدّقني الآن)، بعاطلَيْن عن العمل استمرّا في تنظيف أجنحة أخرى من البيت الكبير، من الثامنة صباحاً وحتى الثانية مساءً. طبعاً بالكاد كان يعملان، وكنتُ أعرفُ ذلك، لكنّني تركتهما يفعلان. كنتُ أُرسل من حين لآخر شاحنةً محمّلة بالدهان، أو بالألواح، أو أجعلهم ينقلون مثلاً طاولة كرة الطاولة من المركز المفتوح إلى إحدى قاعات القصر، فقط كيلا يتدنّى الإيقاع. لا بيلار، التي كانت ذكيّةً، ارتابت. ظنَّ المتضامنون والشيوعيون أنّنا سنتقدّم إلى الانتخابات المقبلة. الجميع يقولون الآن العكس، لكنّ ثقتي كانت تُجرّدُهم من سلاحهم. كان يبدو أنّ المتعةَ التي كانت تجوب كلّ جُزَيء من جسمي، لا نهاية لها. المتعة المختلطة بالخوف، أعترفُ، كما لو أنّني وُلدتُ توّاً. لم يسبق لي أن شعرتُ بنفسي أفضل، هذه هي الحقيقة. إذا كانت الأشباح موجودة، فشبحُ بِنفينغوت كان إلى جانبي.

رِمو موران:

تعرّفت على نوريا بفضل جمعية ثِتا البيئيّة

تعرّفت على نوريا بفضل جمعية ثِتا البيئيّة، النادي الذي لا يتجاوز أعضاؤه العشرة أشخاص، الذي اعتاد أن يعقد اجتماعاته في المقاهي والدكاكين شتاءً وفي شرفات الفنادق والبارات صيفاً. لم يكونوا يلتقون في آب عادة، لأنهم جميعاً في إجازات. كان أليكس من أنصار النادي المذكور، ونوريا صديقة لنصيرةٍ أو شيء من هذا القبيل. وذات ليلة تمّ اختيار بار دِل مار لذلك، وبما أنّني كنتُ أعيش هناك كان لا مفرّ من أن نرى بعضنا بعضاً. كانت نوريا جالسةً بجانبِ النافذة فالتقت نظراتنا ولم تنفصل كما يقولون عادةً، منذ اللحظة التي غادرت فيها طاولة عرض البار ومعي صينية مليئة بكؤوس البيرة في طريقي إلى طاولتها وحتى قَدّمهم لي أليكس جميعاً. قرّرتُ أن أبقى معهم وأستمع إلى نقاشهم حول شواطئ وحدائق ثِتا. تبعتهم بعدها إلى مرقص في إي، حيث كانوا يحتفلون لا أدري بأي عيدٍ قمري أو شمسي. المشترك الذي كان بيني وبين نوريا هو أنّ ذلك كان أوّل اجتماع بيئي لنا. أراد القدرُ أن نرجع معاً مع أليكس وفتى آخر من إي، وأنّ أحداً، أليكس أو الفتى الآخر،

اقترح أن نوقف السيارة في أحد الشروم كي ننتظر الفجرَ ونحن في الماء. في الحقيقة وحدنا أنا ونوريا سبحنا؛ فأليكس كان مفرطاً في سكره ولم يخرج من السيارة، والفتى الآخر بقي جالساً على الرمل، متربعاً، ربّما متأمّلاً أشكالاً غامضة أو ربّما مسرّحاً نظره في ساقي نوريا، في جسد نوريا الخارق. هل يمكن للمرء أن يسبح ويتكلم؟ بلى، يمكن، طبعاً يمكن. أنا في الحقيقة أتعبُ كثيراً، أدخّن علبتي سجائر يوميّاً، ولا أمارس أيّ تمارين، لكنّني تَبِعْتُ نوريا في تلك المرّة مئتي متر، ثلاثمئة متر في العمق، أربعمئة مترٍ، ربّما أكثر، وفكّرتُ أنّني لن أكون قادراً على العودة. كانت أقسام من شعرها تتبلّل كما لو أنّها تمثال، وحين بدأت تطلعُ الشمسُ، كان رأسُها أكثر ما يلمع في ذلك البحر المشؤوم الذي كان يبتلعني. عندما انفصلنا، قالت لي لولا، اخرج مع فتاة حلوة، فتاة مدلّلة من أبيها، لكن أسرع قبل أن تشيخ. بعض الفتيات يقلن أشياءَ أسوأ. في تلك اللحظة بينما كنتُ أظنّ أنّني لن أتأخر في الغرق، تذكّرتُ كلمات لولا وحزنتُ جدّاً لأنّ نوريا لم يكن لها أب، وهذا يُنحيها عني. كنّا قد تكلّمنا في المرقص، لكن دون أن نسمع بعضنا بعضاً تقريباً؛ أستطيع أن أقول إنّ حديثنا الأوّل ذهب في البحر، والإحساس الذي انتابني وقتها، يقين أنّني لن أستطيع أن أعودَ إلى الشطّ، توجّس الموت غرقاً تحت سماء زرقاء مطفأة، سماء تبدو رئة في جرّة مليئة بالدهان الأزرق، رافقني على امتداد جميع الأحاديث التي تلت ذلك. عدتُ إلى الضفّة على ظهري، ببطء شديد، وأنا أشعر من حين لآخر بيدي نوريا تلمسان كتفيّ. لم تتوقّف ـ بينما كانت تُساعدني ـ عن الكلام عن أشياء جميلة، عن أشياء تستحق برأيها أن يجهد ويعمل

المرء لأجلها. أتذكّر أنها ذكرت مسبحاً وأنواعاً من السباحة قامت بها في الخامسة من عمرها. لا شكّ كانت سبّاحة رائعة! كان لون السماء حين وصلنا إلى الضفّة قد انتقل من الأزرق إلى الورديّ، ورديّ جَزّارٍ مُثقّف. في ذلك المساء ذاته بينما كنتُ أنام القيلولةَ، كما هي عادتي في غرفتي في الفندق، حلمتُ بابتسامة ـ باردة ـ حارّة واستيقظت صارخاً. بعد ثلاثة أيام وفي ساعة الغداء، ظهرت في فندق دِل مار، وجلست إلى طاولتي. كانت قد أكلت لكنها قبلت فنجانَ قهوة، من دون سكّر، تركته من نصفه. لم أتأخّر في اكتشاف أنها كانت تعتني بغذائها بصرامة خاصّة. كان طولها متراً وسبعين سنتيمتراً ووزنها خمسة وخمسين كيلوغراماً؛ تنهض صباحاً باكراً وتجري ما بين الثلاثين دقيقة والساعة؛ تلعبُ تِنس بمثابرة ودرست الرقص الكلاسيكيّ والحديث؛ لم تكن تُدَخّن ولا تشرب كحولاً؛ كانت تعرف كم حُرَيْرة وكم من البروتين والمعادن والفيتامينات يحتوي كلّ غذاء؛ كانت مسجلة في المعهد الوطني للتربية البدنية، في الصف الأوّل، وإن كانت تُضيفُ بحزن أنّه كان يجب أن تكون في الثالث، لكنّ التدريبات والمنافسات كانت تمنعها. أيّ تدريبات وأي منافسات؟ هذا ما عرفته بعدها بكثير، ليس لأنّني بالتحديد غير مهتمّ بل لأنّها كانت تُفضّل أن تتكلّم عن أشياء أخرى. استمرّ حديث ما بعد الطعام حتى لم يبقَ في المطعم غير بضع عجائز مرتديات الأبيض، سرعان ما انتقلن إلى طاولة في الشرفة ليحِكْنَ بالسنارة. بعد أن تناولتُ بوظة بالفانيلا (نوريا رفضت مبتسمةً كلّ عقبات اللائحة). صعدنا إلى غرفتي ومارسنا الحبّ. انفصلنا في السادسة. رافقتها إلى الشارع الذي وضعت فيه درّاجة سباقها المطلية بالكروم والبراقة. جمعت، قبل أن

تركب، شعرَهَا فوق نقرتها بشريطة سوداء وقالت إنّها ستهتف لي. فقط استطعت أن أؤكّد لها أنّ باستطاعتها أن تفعل ذلك متى تشاء وفي أيّ ساعة من ساعات النهار والليل. ربّما شدّدتُ على كلامي كثيراً. انتابني إحساس بأنّني أفكّر بأنني أمضي سريعاً أكثر من اللازم. هل أنت عاشق لي؟ لا تعشقني، لا تعشقني، بدا أنّها تقول لي. شعرتُ بنفسي هشّاً ومرتبكاً مثل مراهق.

غاسبار هِرديا:

بدأتُ أعتادُ المشيَ في البلدة

بدأتُ أعتادُ المشيَ في البلدة يحدوني أمل بعيد بأن أعثر على كاريداد. كانت ثِنا وقتها مليئة بالسياح والموسيقى النحاسية في الشوارع دائمة. سرعان ما انتبه كاراخيّو إلى أنني في كلّ صباح وبدل أن أذهب لأنام في خيمتي الكندية، كنتُ أتناولُ فطوري معه في أحد بارات منطقة المخيّمات وأنطلق بعدها لأجوبَ شوارع البلدة. لكنّني لم أكن أعثر على أيّ أثر لكاريداد وحتى مغنية الأوبرا العجوز، التي كانت بحسب الدلائل، تكسبُ نقودها من الشارع، اختفت. في أكثر من مناسبة ظننت أنني أسمعها فأركض إلى الشرفة أو الزقاق من حيث يبدو أنّ الصوت يأتي، لكنّهم كانوا بعامّةٍ سياحاً مغنين أو المذاع الذي كان يقدمُ أغنية لِروثيّو خورادو. بدأ برنامج عملي يتأثر. كنتُ أعمل من العاشرة ليلاً وحتى الثامنة صباحاً وأنام من الظهيرة حتى السابعة ليلاً، بالرغم من أنّ النوم مع تدفّق السياح الجماعي لم يكن سهلاً. شيئاً فشيئاً رحتُ أتأخر في النوم حتى التقت ساعةُ نومي مع ساعة دخولي إلى العمل. طبعاً التقطَ كاراخيّو الحالة على الفور ولم يكن يهمّه أن أغفل عن مهامي بالحراسة لصالح نومي: كنتُ أنام على كرسيّ الاستقبال الجلديّ الكبير

بحدود الساعة أو الساعتين، يتخلّلها مشاوير في المخيّم، مشاوير كانت تنتهي دائماً في المنطقة التي كانت قد شغلتها كاريداد. هناك كنتُ أجلسُ عادةً تحت شجرة صنوبر عند حدود ملاعب الكرات والمصباح اليدويّ مُطفأ. وأعود لأرى عينيها الضبابيتين وطيفَها بارزَ العظام يضيع باتجاه أضواء السيارات التي كانت تتنقّل في المخيّم. لا قراءة الشعر في هذه الحالات كانت تواسي ولا السكر ولا البكاء. ولا علاقة جديدة يمكن أن تنسي سابقتها. وهكذا عاودت تجوالي في ثِتا وأعدت ترتيب برنامجي: كنتُ أنام من التاسعة صباحاً وحتى الثالثة مساء وحين أستيقظ (كان يوقِظُني الحَرُّ وعرقي وإحساسي بأنّني مقبور) أخرج على الفور بحذر متفادياً المرور بمكتب الاستقبال، كيلا يروني ويكلّفوني بعمل هو دائماً موجود. في الخارج كنتُ أشعر بنفسي حرّاً، أمشي بخطوات سريعة من جادّة المخيمات وحتى الكورنيش البحري، أدخل بعدها في المدينة القديمة، حيث كنتُ أتناول فطوري وأقرأ الصحيفة بهدوء. بعدها أبدأ فوراً بالبحث عنهما، مفترضاً أن كاريداد وكارمن ما زالتا معاً، ممشطاً أحياءَ ثِتا من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، دائماً دون نتيجة، دائماً وأنا أتكلّم مع نفسي وأتذكّر أشياءَ كان من الأفضل ألّا أتذكّرها، وأضع خططاً، أنا أظنّ نفسي مرّةً أخرى في المكسيك، تلفّني طاقةٌ ما، هي بلا أيّ غموض مكسيكية، مقتنعاً بأنهما غادرتا البلدة. لكنّني توقّفت ذات مرّة في منطقة المرفأ المكشوفة أثناء عودتي إلى المُخيّم ورأيتُها: كانت بين الجمهور الذي اجتمّع بجانب الشطّ ليحضر عرضَ طيرانٍ شراعي. عرفتها على الفور. شعرتُ براحة في معدتي، برغبة بالتقدم نحوها ولمس ظهرها بأصابعي. شيءٌ ما، لم أعرف فكَّ لغزه، نبّهني بألّا أفعل. بقيتُ خارج هلالِ المتفرجين، وجميعهم كانت

نظرتهم معلّقة بالسماء، يجتمعون حول منصّة المُحَلّفين. من التلّ الذي كان يهيمن على البلدة خرجت طائرة شراعية حمراء اختلطت بلون الغروب، هبطت عبر سفوح التلّ، وارتفعت قبل أن تصل إلى مرفأ الصيادين، حلّقت فوق نادي اليخوت وبدا للحظة أنّها مقذوفة باتجاه الشرق إلى داخل البحر: الطيار، شبح منكمش، لا يكاد يُلمَح نتيجة ميلان الطائرة. في الأعلى، في القلعة كان مشارك آخر يجهّز نفسه. لم أرَ قط شيئاً مماثلاً. فجأة شعرتُ بنفسي مسترخياً بين الغبش الذي راح يعزّز ليلاً حقيقيّاً في ليلٍ صيفيّ. كان باستطاعتي أن أمرّ كسائح؛ ثمّ إنّ أحداً لم يكن يوليني أدنى انتباه. الطائرة الشراعية الحمراء كانت قد أصبحت على بعد أمتار قليلة من الهدف الدائري الموضوع على الشاطئ؛ حاولتْ بعضُ الأصوات أن تُشجِّعَ الطيار في المرحلة الأخيرة. من القلعة أقلعت الطائرة الشراعية البيضاء، آخر المتسابقين أعلنوا بمكبّر الصوت، فرنسيّ. كانت كاريداد ترتدي قميصاً أسود طويلَ الكمّين وبنطلوناً أسود، وككل الناس تخلّت عن النظر إلى الطيّار الأوّل كي تتأمّل تطورات من قذف بنفسه توّاً، بدا أنّ عنده مشاكل في التحكّم بالآلة. خلال ثانية حدث شيء في كاريداد، في شعر كاريداد وفي ظهر كاريداد عاد ليولّد عندي إحساساً بالغرابة والخطر. علمتُ من التصفيق بأنّ طيّار الطائرة الشراعية الحمراء قد حطّ. قرّرتُ أن أقترب أكثر قليلاً. على المنصّة كان الحكّام يراجعون ساعاتهم ويتمازحون. ثلاثتهم كانوا شباباً جدّاً. مجموعات من الفتية والفتيات على امتداد المنطقة المكشوفة راحوا يستقبلون باحتفالية الفريقَ الذي سبق وشاركوا فيه. عنصر، افترضت أنّه طيّار، وإن لم أكن متأكداً من أنّه الطيار الذي هبط توّاً، كان يجلس على الرمل، قريباً جدّاً من الضفة الرطبة ويداه على ركبتيه ورأسه غائر في حضنه. أحد بجانبي

علّق قائلاً إنّ الطائرة الشراعية البيضاء كانت تهبط من التلّ إلى الشاطئ وليس من البحر إلى الشاطئ كما يجب أن تفعل. اعتقدت أنّني لمحت على وجوه بعض المتفرّجين، الأكثر خبرة في الموضوع، ذرّةً من الاستنفار، وأيضاً ذرّةً من السرور. طبعاً لم يكن ذاك هو الطريق للاقتراب من منطقة الشطّ حيث ينتظر الحكّام. في الأعلى كان الطيار يُحاول أن يميل بالطائرة باتجاه الميناء كي يخرج بعدها إلى البحر، لكنّه خسر ارتفاعاً ولم يَعُدْ باستطاعته أن يصّحح مساره. خرجتُ من المجموعة وبحثت عن مكان في الحديقة بجانب المنطقة المكشوفة، من حيث أستطيع أن أتابع تأمُّلَ كاريداد. بين الأسيجة وأحواض الأزهار كان بضعة أطفال يلعبون بعيدين تماماً عمّا كان يجري على الشاطئ؛ ثلاثة عجائز كانوا ينظرون وهم جالسون على المقاعد إلى سواري اليخوت التي كانت تبرز فوق الجدار الطويل الذي يخفي رصيفها. فجأةً عادت الطائرة الشراعية البيضاء لترتفع وفي لحظة توضّعت عمودية فوق الجمهور الذي هو في كلّ مرّة أكثر عدداً، بحيث إنّه كان عليّ أن أرفع رأسي كي أراه. كان الجسمُ الأبيض، المتجمد يبدو أنّه يصعد أكثر وأكثر، كما لو أنّه محصور في أنبوب هواء. انفصلت كاريداد في تلك اللحظة عن المجموعة. بجانبي كان شخص يمسك طفلاً وطفلة من يديهما لاحظَ أنّ الطيار راح يتخبّط فاقداً كلّ قوامه الرياضيّ. عبرتُ الحديقةَ باتجاه شرفات المطاعم بعكس الناسِ الذين راحوا يهرعون تاركين طاولاتهم دون أن يدفعوا، وآخرين سدّدوا بسرعة، والغالبية يمسكون كؤوسهم بأيديهم ليتأملوا الطيار العالق في الهواء، من تلك النقطة من الطريق وخلال أغصان الأشجار فقط يمكن أن يُخدَسَ به. عندها عدتُ ورأيتُها: كان ظهرها إلى البحر تنظر إلى واجهة مطعم،

هادئة جدّاً، كما لو أنها لا تنوي أن تجتاز الشارع. تراها كانت تنتظرُ أحداً؟ وما تلك الكتلة التي كانت تبرز على خصرها ولا يستطيع القميصُ أن يخفيها كلّياً. حين قفزت كاريداد باتجاه الجادّة وضاعت في الشوارع الجانبية، عرفت دون أدنى شكّ (بل وشعرتُ بقشعريرة وتشنّج في المعدة) أنّ ما كانت تحمله بين الزنار والقميص الداخلي كان سكّيناً. بدأت أتبعها تماماً في اللحظة التي سقط فيها الطيار مُتَدَحرِجاً، فاقداً كلّ تحكم، نحو الشاطئ بين صيحات المتفرّجين. لم أنظر إلى الخلف. اجتزت الجادةَ ودخلت في شارعٍ ضيّق بأبنية مكاتبٍ على الجانبين كليهما. خرج من إحدى البوابات مجموعة من الفرنسيين متوسّطي الأعمار، جميعهم بملابس الأعياد، وظننتُ للحظة أنّني أضعتها. عندما وصلتُ إلى الزاوية رأيتُها: كانت واقفة أمام صالة ألعاب فيديو. توقّفت مجبراً وانتظرتُ. سمعتُ على بعد أمتارٍ صوتَ سيّارة إسعاف لا شكّ كانت ذاهبة بحثاً عن الطيّار. تراه مات؟ يا ترى هل جراحه بليغة؟ تابعتْ كاريداد طريقَها دون أيّ إخطار ودون أن تبدي أنّها رأتني، ومنذ تلك اللحظة راحت تتوقّف أمام كلّ الحوانيت، بل وفي أبواب المطاعم التي راحت تندر مع ابتعادنا عن الشاطئ. لا أنكر أنّه مرّ في خاطري أنّني كنتُ أُلاحق قاطعة طريق. متلازمة الحرمان، سرقة بطريقة يائسة. سيكون وضعي في حال تمّت السرقة مُحْرِجاً. ترى ألن يعتبروني متواطئاً؟ فكّرتُ بأوراقي ـ بأنّني لا أملك أوراقاً (نظامية) ـ وبما يمكن أن أخترع للشرطة. على بعد عشرين متراً منّي أوقفت كاريداد مارّاً، سألته عن الساعة (نظر إليها الشخص كحشرة غريبة) وانعطف إلى اليسار، في طريقه إلى مرفأ الصيّادين. توقّفتْ قبل ذلك بكثير، عندما وصلت إلى شاطئ كورنيش لا مانسترانثا، وجلست على كاسر الأمواج، هكذا وساقاها متدليتان

وظهرها مقوّس، صارت الكتلة التي تشكلها السكّينُ أكثر وضوحاً. لكنّ الليلَ ولونَ القميص كانا يساعدانها على تمويهها. تخبّأتُ بين بعض القوارب الموضوعة للإصلاح وأشعلتُ سيجارة، لم يكن عندي أدنى فكرة عمّا يمكن أن تكون الساعة، لكنّني كنتُ أشعر بنفسي مرتاحاً. من مخبئي كان باستطاعتي أن أتأمّلها بحصانة تامّة: بدت حزينة جدّاً، مثل شجرةٍ نمت فجأة في كاسر الأمواج. ومع ذلك حين نهضتْ مدفوعةً بنابض قاسٍ ودقيق اختفى هذا الإحساس وحلّ محلّه مَلمحُ صورة مهزوزة ويقينٍ وحيد بأنّني وحدي. عادت كاريداد أدراجها، لكن هذه المرّة في الطريق المعاكس، متفادية طاولات الشرفات وداخلة أحياناً إلى المحلات الدافئةِ والمفرطة في إنارتها بإيقاع بطيء ولدانة يحس فيه بإرادة راقصة، بقوّةٍ تتناقضُ مع نحولِ أطرافها المفرط. أوشكتُ أن أضيعها في واحدة من تلك الشرفات: هي دخلتْ إلى المحلّ وأنا بقيت في الخارج متمترساً خلف لوحة الأسعار، وفجأةً التقت عيناي بعينَي رِمو موران جالساً إلى إحدى الطاولات برفقة شخصين برونزيين جدّاً. شعرتُ لثانية بأنّني عالق، في تلك الساعة كان عليّ أن أكون في العمل، وبدا أنّ نظرة رِمو تنهض مثل روح مستحضَرة وتطرقني بمطرقة على جبيني، لكنّه كان في الحقيقة ينظر كما ينظر النائمون، كما ينظر الحالمون، وربّما لم يكن يسمع حتى كلمات العنصرين البرونزيين، وفكّرتُ في تلك اللحظة: إنّه يموت أو إنّه كان سعيداً جدّاً. على كلّ حال استدرت نصف استدارة، عدت واجتزتُ الجادّةَ وانتظرتُ في الحديقة. بعد برهة قصيرة بدأت تَرُذُّ. حين خرجت كاريداد من المطعم كان خطوها مختلفاً، أكثرَ تصميماً وأطول، كما لو أنّ المشوار قد انتهى وصارت الآن مستعجلة. تبعتُها دون تردّدٍ (ألم ينتبه أحد في المطعم إلى

أنها كانت تحمل سكّيناً؟) رحنا نبتعد تدريجيّاً عن مناطق مركز المدينة المنارة. مررنا بحيّ الصيّادين، صعدنا في شارع شديد الانحدار محاطٍ بالشاليهات، تنتصبُ في نهايته مدرسة من أربعة طوابق، حديثة وبائسة، تعلوها، مثل كلّ المدارس، ملامحُ بناء غير منتهٍ ورحنا نسير في طريق ليس فيه أي بناء، طريقِ الشروم باتجاه إي. كانت أضواء السيارات تظهر لي من حين لآخر طيفَ كاريداد المصغّر وهي تتقدّم دون أن تمنح نفسها نَفَساً. سمعتُ في مناسبتين أصواتاً ذكورية، صرخات ينطق بها شاغلو سيّارةٍ على كلّ حال لم تتوقّف. من المحتمل أنّهم رأوني. من المحتمل أنّهم رأوا كاريداد وخافوا. وحدها الريح بين الأشجار رافقتنا حتى النهاية. هكذا سرنا برهةً طويلة. كان البحر يظهر عند كلّ منعطفٍ، يخدشه ضياءٌ حليبي وتظهر الغيوم فيه، وصخور ورمل شواطئ ثِتا. تركت كاريداد عند وصولها إلى الشرم الثالث الطريقَ الإقليمي وانحرفت فيما يشبهُ الطريق الفرعي الترابي. كانت قد توقّفت عن المطر والبيتُ الكبير صار مرئيّاً. عندها عَلِقتُ بشيءٍ وسقطتُ على الأرض. توقّفت كاريداد خلال ثوانٍ بجانب الباب الحديدي، قبل أن تفتحه وتختفي. نهضتُ بحذرٍ، شاعراً بأنّ ساقيّ ترتجفان. ما من ضوءٍ واحدٍ في البيت يشي بوجود سكّان فيه. بقيت البوّابة الحديدية مشقوقةً. عندما أدخلتُ رأسي حدستُ بوجود بقايا حديقةٍ هائلةٍ ونافورة شبه خربة، وأعشابٍ تنمو في كلّ مكان. كان الدرب الحجري يقود إلى نوع من الرواق القديم بمستويات مختلفة. هناك اكتشفتُ أنّ الباب الرئيسيّ كان مفتوحاً أيضاً، ظننتُ أنّني سمعتُ صوتاً، موسيقى خفيفة جدّاً، لا يمكن أن تأتي إلّا من داخل البيت الكبير، خلصتُ إلى ذلك، وأنا أقف في الرواق ويدي اليسرى تستند إلى إطار الباب، ويدي اليمنى على شكل بوق على

أذني، متحوّلاً إلى تمثال مبلّلٍ بالمطر، إلى أن قرّرتُ أن أدخل. غرفة الاستقبال، ما اعتقدتُ أنها غرفة استقبال، فارغة إلا من بعض الصناديق المكوّمة في زاوية، تمتدّ حتى بابٍ زجاجي. عندما اعتادت عيناي على الظلمةِ تسلّلتُ محاولاً ألّا أُحدِث أدنى ضجّة محتملة. حين فتحتُ البابَ الزجاجيّ وصلت الموسيقى واضحة. وجدتُ أمامي ممرّاً يتفرّع على بعد خطوات قليلة إلى فرعين. اخترتُ الطريق الأيسرَ. بالرغم من أنَّ الأبواب كانت مفتوحة إلّا أنّه كان يسود الغرف ظلمة مُطلقة. لم يكن الأمر كذلك في الممرّ المضاء في أحد جوانبه بنافذة هائلة كانت تمتدُّ على طول الجدار بلا انقطاعٍ وتُطلّ على أحد الفناءات الداخلية، حيث استنتجتُ حين أطللتُ عليه أنّ مستواه أدنى بكثير من حديقة المدخل. أخيراً كان الممر يتوسّع ليشكل قاعة دائريّة تُشبه غرفة قيادة غوّاصة مستحيلة، من حيث يبدأ درجان، واحد باتجاه الطابق العلوي وآخر نحو الحديقة الغائرة التي حالفني الحظّ ورأيتها من قبل. كانت الموسيقى تصدر من هناك. كانت الأرضية من الرخام، والجدران مزيّنة بلوحةِ حفرٍ جصّيٍّ بارز أخذ الهجران على عاتقه تشويهها. شيء ما تحرّك بين الأعشاب. ربّما جرذ. على كلّ الأحوال تركّز انتباهي على الباب ذي المصراعين. من هناك كانت تأتي الموسيقى ومعها هواء مُثلج جفّف فجأةً عرقَ وجهي. في الداخل المضاء بأربع بؤر متدلية من دعامات عملاقة، كان هناك فتاة تتزلّجُ فوق حلبة جليد.

إريك روسكيّس:

كنتُ أترك السيارة مصفوفةً تحت الدالية القديمة

كنتُ أترك السيارة مصفوفةً تحت الدالية القديمة، دالية بِنفينغوت الرومانية التي قاومت مرور السنين وكانت ما تزال هناك مغطاة بالغبار لكنّها ما تزال منتصبة. وصلت نوريا في حدود الساعة السابعة على درّاجتها وكنتُ أنا دائماً في الباب تقريباً، جالساً على كرسيّ خيزران وجدتُه في إحدى الغرف وضعته بعد أن نظّفتُه وعقّمته في مكان رطب وظليل من حيث كان باستطاعتي أن أرى دراجةَ نوريا حين كانت تظهر في طريق إي، بعدها كانت الأشجار تخفيها برهة إلى أن تعود وتظهر في الطريق الطويل المؤدّي إلى القصر مباشرةً. طبعاً صرنا نلتقي يوميّاً عندما انتهى العمل في الحلبة. كنتُ أحمل معي عادة بعض الفاكهة، درّاقاً، عنباً، أجاصاً وترمسَ شايٍ مرّ والمسجلة ـ المذياع التي كانت تستخدمها نوريا في تدريباتها. هي كانت تأتي معها بحقيبتها الرياضية وفيها بدلتها وزلاجتاها وزجاجة ماء. أيضاً كانت معتادة على أن تأتي معها بدواوين شعرية، ديوان مختلف كلّ ثلاثة أيّام، كانت تتصفّحه في استراحاتها، مستندة إلى واحد من صناديق المعدات التي فضّلت ألا أخرجها من العنبر كيلا أثير الريبة. من غيرها كان يعرف بوجود الحلبة؟

حسن أستطيعُ أن أقول لا أحد وكثيرون في آن معاً. الجميع في ثِنا كانوا يعرفون شيئاً، قليلاً، لكن ما من أحدٍ ملك ذكاء كافياً ليجمع بين نتفِ المعلومات في كلٍّ متجانس. كان خداعهم سهلاً. في أعماقي أعتقد أن لا أحد كان يهمّه ما يحدث في القصر أو بالأموال. بلى، الأموال كانت تهمّهم، كيف لن تهمّهم؟ لكن ليس إلى حد أن يعملوا ساعاتٍ إضافية كي يُحقّقوا في مصيرها. على كلّ الأحوال كنتُ حليماً. نوريا نفسها لم تكن تعرف كامل الحقيقة، قلت لها إنّ الحلبة ستكون ذات فائدة عامّة، وكان هذا كلّ شيء، لم تسأل أكثر، على الرغم من أنّنا وحدنا ذهبنا إلى قصر بِنفينغوت. طبعاً كان لِنوريا مشاكلها الخاصّة وكنتُ أحترم هذا. يقولون إنَّ الحبّ يجعل الأشخاص كرماء. لا أدري، لا أدري؛ أنا جعلني كريماً مع نوريا فقط، لا أكثر. صرتُ أنانيّاً ولا أثق ببقيّةِ الناس، بخيلاً وشريراً، ربّما لأنّني كنتُ واعياً لكنزي (لنقاء كنزي غير المُدنَّس) وكنتُ أقارنه بالفساد الذي كان يلفُّهم. في حياتي، أقول هذا دون خوف، لم يوجد قط ما يشبه العصرونيات ـ العشاءات التي كنّا نأكلها على الدرجات التي تهبط إلى البحر. هي كانت لها، لا أدري، طريقتها الفريدة بأكل الفواكه؛ تأكلها وعيناها ضائعتان في الأفق. تلك الآفاق الرائعة حقيقة. كنّا لا نكاد نتكلّم. كنتُ أجلس على درجة أدنى منها وأنظر إليها، وإن لم يكن كثيراً ـ فالنظر إليها كثيراً كان مؤلماً ـ وأشرب الشايَ بتلذّذٍ واعتدال. كان عند نوريا طقمان رياضيان واحد أزرق بخطوط عرضية بيضاء، الرسمي، أظنّه، لفريق التزلج الأولمبي وآخر أسود كجناحي غراب كان يبرز شعرها الأشقر وبشرتها التامّة المتورّدة بسبب الجهد، تورّد فتاة بوتيتشيلي؛ هذا الأخير هديّة من أمّها. ولكي لا أنظر إليها كنتُ أنظر إلى طقمها وما زلت أتذكّر كلّ تجعيدة فيه، انتفاخ

الأزرق عند الركبتين، الرائحة اللذيذة التي كانت تفوح من الأسود على جسد نوريا، حين كانت نسمة المساء تمنعنا عن قول أية كلمة. رائحة فانيلا، رائحة خزامى. لا شكَّ كنتُ نشازاً بجانبها. كنتُ آتي إلى مواعيدنا اليومية من العمل مباشرة، لا تنسوا ذلك، وكنتُ أحياناً لا أملك الوقت كي أخلعَ طقمي وربطة عنقي. أحياناً أخرى، حين كانت تتأخر نوريا، كنتُ أُخرِجُ من الحقيبة بنطلونَ جينز وقميصاً رياضيّاً سميكاً ومريحاً، سنيلدر أمريكي، وأبدِّل حذائي بحذاء خفيف ماركة دي ألبي، التي تُنتعل من دون جوارب، وإن كنتُ أنسى أحياناً أن أخلعها، كلّ هذا تحت الدالية وأنا أتصبب عرقاً وأسمع ضجيج الحشرات. لم أبغِ قط أن أرتدي طقمي الرياضي أمامها، لأنه يجعلني أظهر ضعف ما أنا عليه من بدانة ويعرّضُ الخصر بشكل مريع، بل وأخاف أن أظهر أقصر مما أنا عليه. وذات مرّة أرادت نوريا منّي أن أتزلّج برهة معها، اعذروني لأنّني أضحك. أعتقدُ أنّها كانت ترغب بأن تراني وسط الحلبة ولهذه الغاية جاءت معها بمزلاجين وأصرت بإلحاح على أن أضعهما في قدميّ؛ بل وكذبت، هي التي لم تنطق قط بكذبة واحدة، قالت إن الدور الذي ستتدرّب عليه يحتاج إلى شخصٍ بجانبها. لم أرها من قبل هكذا، مثل طفلة مزاجيّة، وزعلانة، بل وحتى إذا أردتم، مُسْتَبِدّة قليلاً، لكنّني عزوت ذلك للتعب، الروتين، وربّما للتوتُّر العصبي. موعدها المفصلي كان يقترب ومع أنّني كنتُ أقول لها إنّها تتزَلّج بشكلٍ رائع، فمن أنا، في الواقع، كي أعرف. الحقيقة أنّني لم أنتعل قط حذاء تزلّج، جبناً، خوفاً من أن أصبح مسخرة وخوفاً من أن أسقط، لأنّ الحلبة كانت هناك لأجلها وليس لأجلي. حلمتُ أحياناً أنّني أتزلّج، هذا صحيح. إذا كان هناك متسع من الوقت وسمحتم لي سأحكيه لكم. أيضاً

ليس هناك الكثير ليُحكى، ببساطة كنتُ هناك، وسط الحلبة والمِزلاجان في قدمَيّ وكلّ شيءٍ حولي كان كما يمكن أن يكون إذا لم يكتشفوني، المقاعد الجديدة والمريحة على جانبي الحلبة، قاعة حمّامات وتدليك، مشلح برّاق، وكامل قصر بِنفينغوت كان يلمع في حلمي، وأنا لا أستطيع أن أتزلّج، أن أدور وأقفز، وكنتُ أنزلق على الجليد ممتطياً صمتاً مطلَقاً...

رِمو موران:

أحتفظ عن زيارة نوريا الثانية للفندق

أحتفظُ عن زيارة نوريا الثانية للفندق بصور قليلة جدّاً ودقيقة. وصلتْ إلى فندق دِل مار في الساعةِ ذاتها التي وصلتها في المرّةِ الأولى، ساعة الغداء، لكنّها لم تشرب قهوة ولم تبغِ الصعودَ إلى غرفتي. كان الفندق يخنقها فخرجنا. مَنْ شَعَرَ داخلَ السيارة بأنّه يختنق كنتُ أنا الذي أقود بشكل سيّئ، لا أحبّ السيّارات، والسيّارة التي عندي أستخدمها فقط للقيام بمشتريات الفندق، التي لا أقوم بها بنفسي أيضاً. بقينا برهةً ندورُ في شوارع الداخل؛ كان الحرُّ خانقاً وكلانا يتصبّب عرقاً دون أن يقول أحدنا للآخر كلمةً واحدة. فجأة شعرتُ بنفسي حزيناً جدّاً لأنّني فكّرتُ أنّ تلك كانت زيارة لقطع العلاقة. أشجار صنوبر، بساتين، مضامير خيول فارغة، دكاكين سيراميك بالجملة كانت تمرّ ببطء مُغيظ. أخيراً قالت نوريا وسط التثاؤب أن نعود إلى الفندق. عندما وصلنا صعدنا فوراً إلى الغرفة. أتذكّر بشرتها تحت الماء الساخن، أنا كنتُ في الخارج، لكنّ البخار جعلني أتصبب بحوراً من العرق. كانت مغمضة العينين بقوّة كما لو أنَّ شيئاً يتسرَّب بين قطرات الماء

وحدها كانت تُحسُّ به، نوع من الصراع بين الجلد والقطرات الحارقة، التي لا حصر لها. ساقا نوريا التامّان كانا يتركان أثرهما على البلاط. شغّلت الهواء المُكيّف وراقبتها وهي تخرج إلى الشرفة وتتأمّل البحر. راجعتُ قبل أن تدخلَ في الفراش كتبي والخزائن. لم يكن هناك شيء مهمّ. أبحث عن لواقط صوت، وضّحتُ. إحدى خصائص حركاتِ نوريا هي أنها حتى بعد ذهابها بزمن طويل يبدو أنها تبقى (هذه الحركات) تهتزُ بطريقة خفيفة في الغرفة. بكتْ تحتي بشكل غير متوقّع، وهذا ما أوقفني بغتة. هل أؤلمُكِ؟ تابعْ قالت. لو كان الزمن زمناً آخرَ لأخذت دموعها برأس لساني، لكنّ السنين لا تمرّ عبثاً، إنّها تُجَمّدُ. كان كما لو أنهم رموني برفسة على مؤخّرتي إلى غرفة أخرى، غرفة الهواء المُكيّف ليس ضروريّاً فيها، سحبتُ الستائر، قليلاً فقط، وهتفتُ إلى مطعم الفندق طالباً منهم أن يصعدوا إلي بفنجاني شاي بالليمون؛ جلستُ بعدها على حافة السرير وداعبتُ كتفها دون أن أدري ماذا سأفعل. شربتْ نوريا كامل الإبريق، بلا توقّف وبعينين جافتين. اعتدتُ في الليل حين أستلقي أن أتكلّم كما لو أنها معي في الغرفة؛ كنتُ أناديها بالنور الأولمبي وبأشياء من مثل هذه الحماقات، لكنّها كانت تُضحكني، بل وتجعلني أحياناً أتلوّى من الضحك، كانت تمنح روحي سكينة، لا، بل شفافيةً، لم أَخْبَرْها منذ زمن طويل. لم نَتكلّم قط عن الحبّ، ولا عن أيّ شيء يمكن أن يربط بين ما كنّا نفعله من الرابعة وحتى السابعة مساءً وبين الحبّ. كانت قد حظيت بخطيب، فتى من برشلونة وكثيراً ما كانت تحكي لي أشياء عنه. تسردها بطريقة غريبة، بعيدة، كما لو أنّ شبحه يتنزه حولها: كانت تمتدح مزاياه الرياضيّة، الساعات التي يقضيها في

مركز الرياضة البدنية، اندماجه التام. كثيراً ما فكّرتُ أنّها ما تزال تُحبّهُ. في بعض المساءات كانت غرفتي تبدو مرجلاً على وشك أن ينفجر. بحسب أليكس لا يمكن الإبقاء على علاقة ضمن أربعة جدران، سينتهي أحدنا بالبشم. كنتُ أقول هذا صحيح، لكن ماذا أستطيع أن أفعل. دائماً حين كنتُ أدعوها للخروج إلى مكان ما كنتُ أتلقى جواباً سلبيّاً؛ في الليل تبقى دائماً متعبة جدّاً، أو ما كان، وأنا أيضاً لم أكن أرغب في أعماقي بأن أدور على المراقص. ومع ذلك خرجنا ذات ليلة، بعد قرابة الأسبوعين من تعارفنا وجرى كلّ شيء بشكل رائع. كانت سهرة قصيرة وسعيدة. عندما رافقتها إلى بيتها، الذي لم تدعني قط للدخول إليه قلتُ لها إنّ جمالها يُقلقني. تصريح متهوّر، إذ كنتُ أعرفُ أنّها لم تكن تُحب أن نتطرّق لهذا الموضوع، أتذكّرُ جوابها كأهم حدث في تلك الليلة. (في الحقيقة لم تكن تلك الليلة بمجملها غير تتالي ضحكات). قالت بنبرة تعصّبية لم تترك مجالاً لأدنى شكّ، بأنّ المرأة الأجمل التي عرفتها كانت مُتَزَلّجة من ألمانيا الديمقراطية، البطلة العالمية. مريان لا أعرف غير ذلك. كان هذا كلّ شيء. لكنّني بقيت جامداً. لا شكّ أنّ نوريا كانت فتاة تعرف ما تريد. سألتني في مساء آخر، باهتمام ظننتُهُ صادقاً، ما الذي كان يبقي عليّ في ثِنا، البلدة الضيقة حيث لا يوجد مكتبة ولا سينما لائقة. قلت لها أعمالي هنا (كذبة فاسدة). عملك هو الأدب، قالت هي، وبناء عليه عليك أن تعيش في برشلونة أو مدريد. عندها لن أراك، أجبتُها. قالت هي على كلّ الأحوال لن أراها ثانية، لأنّها كانت تنتظرُ أن تلتحق قريباً جدّاً بفريق التزلج الأولمبي وتستعيد منحتها. وماذا ستفعلين لو أنّ هذا لم يحدث؟ نظرت إليّ نوريا كما يُنْظَرُ لطفلٍ وهزّت

كتفيها، ربّما أنهي دراستي في المعهد الوطني للتربية البدنية، أُعطي دروساً بالتزلّج في إحدى المدن الأوروبية الكبرى أو في إحدى الجامعات الأمريكية، لكنّها كانت في أعماقها واثقة من أنّها ستعود إلى الفريق. لذلك أعملُ، كانت تقول، لذلك أجهد نفسي...

غاسبار هِرديا:

الموسيقى التي كانت تُسمع هي موسيقى رقصة النار

الموسيقى التي كانت تُسمع هي موسيقى رقصة النار، لمانويل دي فايا وعلى إيقاعها استطعتُ أن أرى جذع المُتَزَلّجة وذراعيها في الأعلى وهي تتحرّك بشكل سيّئ جدّاً (بالرغم من أن شيئاً كان ينبض داخل الارتباك) عملية تقديم هدية لإلهٍ منمنم وغير مرئيّ. ما تبقى: حلبة التزلّج، ساقا الفتاة، حذاءا التزلّج الفضّيان؛ بقيت مخفية جزئيّاً خلف الصناديق الخشبية الموجودة هناك كي تمنع المرور وتولّد، بالنظر إليها من الحلبة، انطباعاً بأنّها مدرّج وإن كانت تبدو من منظوري وبالطريقة التي كانت تحيط بها، أشبه ما تكون بالمتاهة المصغّرة. هكذا فقط استطعت أن أرى ظهرَ الفتاة، ذراعيها المنحنيتين في عناق أثيري والأضواء الكاشفة التي تُضيء الحلبةَ والتي تُذكّرني بحلبة ملاكمة في تيخوانا. كانت الأرضية إسمنتية مع ميلان قليل نحو الوسط وكانت الجدران تنهض فوق حجارة غير متساوية ومُدَخّنة. انزلقت بين منعطفات الصناديق، التي كان بعضها ما يزال يحتفظ بتغليفه الأصلي، إلى أن عثرت على أفضل نقطة مراقبة. كان هناك على حافة المنطقة المنارة شخص بدين يجلس على كرسيّ بحريٍّ ملوّن، يتسلى بقراءة وثائق

يُسَجّل عليها بريشةٍ ملاحظات؛ عند قدميه مسجلة بكرة عالية الصوت تنشر ألحان رقصة النار في كلّ زوايا العنبر. كان البدين يبدو مُرَكّزاً جدّاً على ما يفعله، وإن كان يرفع نظره من حين لآخر ويُراقب المُتَزَلّجة. اكتشفتُ تحت الأضواء الكاشفة شيئاً زاد من ارتباكي: في إحدى زوايا الحلبة هناك سلّم يغوص في الجليد وحزمة أسلاك ملوّنة متشابكة بالسلم مختفية أيضاً تحت الطبقة البيضاء الضاربة للزرقة حين كانت تقوم المُتَزَلّجة الغريبة بحركاتها البهلوانية. على الرغم من البرد إلا أنني شعرت بقطرات من العرق تنزلق على وجهي. فجأة قال البدين شيئاً. تابعت الفتاةُ الغريبة عن كلّ شيء حولها، تزلّجها. عاد البدين ليتكلّم، فقرة أطول، أجابته الفتاة، وهي تَتَزَلَّجُ إلى الخلف، بجملة قصيرة، كما لو أنّ الأمر لا يتعلّق بها. لم أفهم ما قالا لأنهما كانا يتكلّمان بالكتلانيّة، ومن ناحية أخرى لأنني كنتُ متوتراً أكثر من اللازم، لكنَّ إحساسي بأنني في كهف ازداد. كانت المُتَزَلّجة قد راحت تتدرّبُ على بعض القفزات والانثناءات حين خرج طيفُ البدين من الظلمة واقترب من حافّة الحلبة؛ هادئاً ويداه في جيبيه وراح رأسه يتحرّكُ ببطء مع حركة مؤخرة الفتاة، عيناه لامعتان مركزتان لا ترفّان. الثنائيُ، الذي كان دون شكّ فريداً ـ هي كلها ملاحة وسرعة، وهو مثل واحدة من تلك الدمى الواقفة دائماً ـ أحدثَ في روحي، إضافة إلى القلق، نوعاً من السرور الصامت والشرس ساعدني على ألا أنهض وأخرجَ هارباً. الشيء الوحيد الذي كنتُ واثقاً منه هو أنهما لم يرياني وأنّ كاريداد كانت موجودة في مكانٍ ما، وهكذا تهيّأت لأن أتحمّلَ وأبقى دون حراك طوال الوقت الضروري. بدأت المُتَزَلّجَةُ تدورُ حول نفسها وسطَ الحلبة بسرعة تزداد تدريجياً. ذقنها إلى الأعلى، ساقاها مضمومتان، ظهرها مُقَوَّس، بدت

للنظرة الأولى بلبلاً لا يخلو من سحر. فجأة حين كنّا ننتظر أنا والبدين، أفترضُ ذلك، نهايةَ الدور، خرجت مثل سهمٍ نحو أحد أطراف الحلبة، سيّدةً لحركاتها، بإيماءة كان فيها من السعادة أكثر مما فيها من الانضباط. صفّق البدينُ. رائع، رائع، رائِع، قال بالكتلانيّة. كلمات من هذا النوع (رايع، رايع) بلى أفهمها. قامت المُتَزَلّجة بدورتين أخريين قبل أن تتوقّف حيث كان ينتظرها البدين. سمعتُ بعدها تكّةَ توقّفِ شريطِ التسجيل والبدين يعود إلى المنطقة شبه المعتمة ويقف مديراً ظهره بينما المُتَزَلّجة ترتدي ملابسَها. التي اقتصرت على ارتداء الطقم الرياضي فوق ثوبِ الشبك، لكنّ البدين حافظ على موقفه الخجول. قالت المُتَزَلّجة بعد أن خبّأت المِزلَجَيْن في حقيبة رياضية، هناك شيءٌ لم أفهمه. كان صوتها شبيهاً بالمَخْمَل. استدار البدينُ واقترب من المنطقة التي كنستها الكاشفاتُ الضوئيّة كما لو أنّه يقيسُ خطواته. كيف كنتُ؟ سألت هي منخفضة النظرة وبنبرة صوتٍ آخر. رائعة. ألا تعتقد أنّني كنتُ بطيئة أكثر من اللازم؟ لا، لا يبدو لي كذلك، لكن إذا كنتِ تعتقدين... كلاهما كان يبتسم، لكن بطريقة مختلفة. تنهّدت الفتاةُ. أنا مُنهكة، قالت، هل ستحملني إلى البيت؟ طبعاً، تلعثم البدينُ، شفتاه منحنيتان بابتسامة خجولة، انتظريني في الممرّ، سأُطفئ الأنوار. دخل البدين خلف كدسةٍ من الصناديق وغرقت الحلبةُ بعد لحظات في ظلمة تامّة. عاد البدين ليظهر مستضيئاً بمصباح يدوي ثمّ اختفى. سمعتُهما يصعدان الدرج. والآن ماذا أفعل؟ فكّرتُ. من السقف كان يتسرّبُ نور باهت. القمر؟ كان أقرب إلى حباحبٍ تائه. لفت انتباهي صوت مرّ حتى تلك اللحظة دون أن يسترعي انتباهي: في مكانٍ ما من البيت الكبير كانت تعمل مولّدة كهربائية بكلّ طاقتها. هل من أجل الحفاظ على حلبة الجليد؟

جلستُ على الأرض الجليدية، مستنداً بظهري إلى أحد الصناديق وأنا غير قادر على فهم أشياء كثيرة قادتني إلى هناك، وحاولتُ أن أُرتِّب أفكاري. لم أستطع. استنفرني صوتٌ مختلف عن صوت المولِّدة. أحدٌ أشعل عودَ ثقابٍ عند حافّة الحلبة وبدأتْ الظلالُ على الفور تتراقص على جدران العنبر. نهضتُ ورأيتُ بجانب الحلبة، التي كانت تُشبه الآن مرآةً: كاريداد واقفة هناك وعود ثقابٍ في يد والسكين في أخرى. من حسن الحظّ أنّ عودَ الثقاب لم يتأخّر في الانطفاء والظلمة المُستعادة أحدثت عندي تأثيرَ مُهَدِّئ. ربّما كانت، فكّرتُ، متخفّيةً طوال الوقت في إحدى الغرف وجاءت الآن لتتأكّد من أنّ المُتَزَلِّجة والبدين ما عادا موجودَين، وربّما كانت هي أيضاً زائرة مُتَخَفِّية في ذلك البيت. أدركتُ حين أشعلتْ عودَ الثقاب الثاني أنّها كانت مُترَصِّدة وبدا لي من غير اللائق ألا أخرجَ من مخبئي، لكنّني خفتُ أن أخيفها بظهوري المفاجئ أكثرَ من أن أترك الأمور على حالها. أيضاً يتحمّل لون السكين، الذي راح يقتربُ في كلّ مرّة أكثر من لون الجليد، جزءاً من المسؤولية في قراري. عاد عودُ الثقاب، بعد أن أومض مرّات متكرّرة، لينطفئ ولمْ توجد هذه المرّة فترة ظلام: فقد أشعلت على الفور عوداً آخرَ وتراجعت بفجاجة عن حافّة الحلبة، كما لو أنّها عانت من بداية دوار. رافقتْ نهايةَ عود الثقاب السريعة تنهيدةٌ. مرّة واحدة سمعت أحداً يتنهّد بتلك الطريقة، بقوّة وبما يُمزّق القلب، يتنهّد من شعره، وبمجرّد تذكره شعرتُ بنفسي مريضاً. تقوقعت بين الصناديق حتى عاد صوتُ المولّدة وتنفُّسي المضطرب ليكونا الوحيدين المسموعين. فضّلتُ لبرهةٍ طويلة ألا أتحرّك. حين لاحظتُ أنّ إحدى ساقيَّ أعطت علامات تنميل لا تُخطئ بدأتُ تراجعي مُركّزاً كلَّ قواي كيلا يدفعني الرعب إلى الجري

عبر ممرات البيت الكبير الملتوية. عثرتُ فجأةً على الطريق دون أية صعوبة. كان البابُ مُغلقاً بالمفتاح. قفزتُ من نافذة. وحين أصبحت في الحديقة لم أُحاول حتى أن أفتحَ البوّابة الحديدية بل اعتليت من أوّل قفزة الجدار مجازفاً بحياتي.

إريك روسكيّس:

بدأنا التدريبات مع بداية الصيف

بدأنا التدريبات مع بداية الصيف. عفواً، نوريا بدأت تتدّرب مع بداية الصيف، وظننا أنا وهي أنّها بالعمل القاسي خلال تموز وآب وأيلول قد تستطيع أن تجتاز امتحانات الاختيار التي كان يجريها اتحادُها في تشرين الأوّل في حلبة جليد مدريد، وأنّه لا يهمّ كم كان المدربون والحكام والمدراء متآمرين. فالمهارة أو النضج أو ما تريدون أن تسموه، الذي أحرزته نوريا أو أتمّته في تلك الأشهر ستجعلهم بالضرورة ينظرون إليها فاغري الأفواه دون أيّة إمكانية أخرى غير أن يقبلوها من جديد في الفريق الأولمبي، الذي سينتقل في تشرين الثاني إلى بودابست، إذا لم أخطئ، للمشاركة في التزلّج الفني الأوروبي السنوي. إذا أردتُ أن أكون صريحاً فإنّ احتمال ألا أرى نوريا خلال شهرين على الأقل (تشرين الأوّل في مدريد مع تركيز وتدريبات يوميّة، وتشرين الثاني في بودابِست) كان يُدمي قلبي. من المفروغ منه أنّني لم أكن أُظهِرُ هذه المشاعر. كان من المحتمل أن تُقصى نهائياً في تشرين الأوّل، لكنّني فضّلت ألا أفكّر بهذا لأنّني كنتُ أستشعر بالألم الذي سيجلبه لها وأجهل تماماً ما يمكن أن يكون ردُّ فعلها. بنزاهة لم أكن أُريد أن يرفضوها، كل

ما أردته هو سعادتها. الحلبةُ، صراحةً، قد أُنشئت كي تعدَّ نوريا نفسَها بوعيٍ ليختاروها ثانية. أعرف، مثلاً، أنه كان عليَّ أن أتعاقد لها مع مُدرِّب، لكن حتى ولو خطر لي ذلك يومها، كيف كنتُ سأُبرِّرُ نفقات مُدرِّبٍ من هذا الاختصاص؟ ومن أين سآتي به؟ في الصيف يكثر مدرّسو اللغة الإنكليزية وليس مدرّبي التزلّج الفنّي. تكلّمتْ نوريا في مناسبة ما، إذا لم تخنّي ذاكرتي، عن بولونيّ منفيّ، شخص ما يزال شاباً، عمل خلال فصل دراسيّ ستة أشهر لصالح الاتحاد الكتلانيّ، لكنّهم ألغوا العقد معه لأسبابٍ تتعلّق بالأخلاق المهنيّة. ماذا فعل البولونيّ؟ لم تكن نوريا تعرف، كما لم يكن يهمّها. أعترف أنّني تصوَّرتُهُ يُمارسُ الحبَّ أو ربّما يغتصب مُتَزَلِّجةً أو مُتَزَلِّجاً في المشالح. أفكار سيّئة، كما هو الحال دائماً. على أيّ حال كان البولوني يتسكّع في برشلونة وباستطاعتنا أن نبحثَ عنه، لكن ما من أحدٍ منّا، نحن الاثنين، لديه الوقت ولا الرغبة بذلك فاستبعدنا الفكرة حالاً. لا أدري لماذا أبدأ في ليالي الأرق هذه بالتفكير بالبولوني، على الرغم من أنّني لم أرَهُ ولن أراه أبداً، يبدو لي قريباً جدّاً، يكاد يكون صديقاً. ربّما لأنّني أنا أيضاً مارست مهنة التدريب وعلى الرغم من أنّني لم أستطع قط أن أتقن ولا حتى الكلمات التي تُحَدِّد مختلف خطواتِ وصور التزلّج الفني، أنا أتكلّم بحيادية، إلّا أنّني لم أفعل ذلك بشكل سيّئ؛ أعني كمُدرِّبٍ أو كبديلٍ عن المُدرِّب، هو إلى حدّ كبير رمز أبوي. عرفت كيف أصغي إليها، أشجّعها كي تُتابع، عندما كان الكسل أو التعب يضغط عليها، عرفتُ كيف أملأ بشيء من المنهج وشيءٍ الانضباط جلساتِ عملنا اليومية، تحمّلتُ مسؤوليّةَ جميع القضايا المعيقة أو الجانبية كي تفكّر فقط بالتزلّج، وبالتزلّجِ وحده. هذا الهوس بالكمال (الهوس، الذي

خلّفتُهُ مجسّداً في مختلف الأماكن التي عملتُ فيها) قادني إلى اكتشافٍ، أو إلى سلسلةٍ من الاكتشافات الصغيرة كانت بالنتيجة مقلقة في مجموعها إلى أعلى درجة. من المؤسف أنّني عزوتها في البداية إلى حالة أعصابي، مع أنّني في أعماقي كنتُ أعرف أنّ أعصابي كانت في أفضل حالتها. سأوضّحُ كيف حدث ذلك. كنتُ أصلُ أحياناً إلى القصر قبلَ نوريا بكثير ثمّ وبعد أن أضع المئزرَ الكتاني الذي كنتُ أحتفظ به للضرورات، أتحقّق من حالة الآلات في الحلبة، من قوام الجليد؛ أكنسُ قليلاً، في غرفة كان عندي ماء قلي، حمض هيدروكلوريك، مكنستان، أكياس قمامة، قفازات، خرق، إضافة إلى معدّاتٍ أخرى؛ كنتُ في بعض المناسبات أضع قنينة فيها أزهار بريّة قطفتها توّاً في المكان الذي كانت تُبَدّل فيه نوريا ثيابها، وكنتُ أنظّف يوميّاً رأسَ المسجلة ولا أنسى أن أُحَضّرَ الشريطَ وأترك رقصةَ النار جاهزة؛ وكنتُ أحياناً أخرى أخرج، إذا فاض عنّي الوقت، إلى القسم الخلفي من البيت وأكنس الدرج الذي يؤدّي إلى الشرم، فربّما رغبت نوريا أن تنزل، قبل أو بعد التدريب، إلى الشاطئ. يعني أنّه لم يكن ينقصني عمل أبداً، وإذا كنتُ كقاعدة عامّة لا أدخلُ غرفَ القصر، وكنت أتحرّك في قسمٍ كبير من الطابقين الأوّل والثاني، دون أن أحسبَ العنبرَ والرواق والحديقة الغائرة والحدائق المواجهة للبحر. أستطيعُ أن أقول إنّني كنتُ أعرف هذه الأماكن عن ظهر قلب. لذلك فاجأني عثوري على بعض الأشياء الصغيرة، دائماً تكاد تكون قمامة، في أماكن كنتُ واثقاً من أنّني نظّفتها في اليوم السابق. أوّل ردّ فعلٍ، كما هو منطقيّ، هو أنّني فكّرتُ بالصعلوكين اللذين كانا يعملان في الصباح، وقرّرتُ ذات يوم أن أُوجّه لهما توبيخاً شخصيّاً، لا شيئاً جدّيّاً، لأنّه لم يكن عندي وقت، لكنه

قاس بما يكفي كي يُفكّرا بالأمر قبل أن يفعلاه في المرة القادمة. ما الذي كنتُ أعثر عليه؟ فضلات تمتد من علبِ دخان فورتونا الفارغة (ومن بين العاطلين عن العمل واحد كان يُدخّن دوكادوس والآخر كان قد أقلع عن تلك العادة السيّئة) وحتى بقايا الهمبرغر. لا شيء آخر. أشياء ليست ذات أهميّة، لكن يجب ألا تكون هناك. وذات مساء عثرتُ على منديل ورقيّ عليه دم. رميتُ به في القمامة باشمئزاز كما لو أنّه فأر مُحتَضَر، لكنّه ما يزال حيّاً ينفث من مخطمه. وشيئاً فشيئاً وصلت إلى استنتاج بأنّ هناك شخصاً آخر في قصر بِنفينغوت. بقيت ثلاثة أيّام أتحرّك كمجنون. فكرت بفيلم *البريق* لِكوبريك، الذي كنتُ قد شاهدته حديثاً في فيديو في بيت نوريا، والذي تركني مُحطَّمَ الأعصاب، حاولتُ أن أكون موضوعيّاً وأن أبحث عن تفسيراتٍ منطقيّة، لكن دون جدوى، إلى أن قرّرتُ أن أواجه المشكلة وأفتّش القصرَ من أعلاه إلى أسفله. كرّستُ لهذه الغاية صباحاً كاملاً. لم أعثر على أيّ شيء ولا أي دليل يشي بوجود دخلاء. رحتُ أهدأ بالتدريج وساعد على ذلك أنّه لم تظهر في الأيام التالية بقايا. من المفروغ منه أنّني لم أقل شيئاً لِنوريا وانتهيتُ أنا نفسي بالاقتناع بأن كلّ ذلك كان تهيّؤات لا أساس لها.

رِمو موران:

رأى روسكيِّس ذات يوم دراجةَ نوريا في الشارع

رأى روسكيِّس ذات يوم دراجةَ نوريا في الشارع، أمام فندق دِل مار، وقرَّر أن يدخل ويتحقّق مما كان يجري. للمفاجأة وجد نوريا أمام طاولة عرض البار تتناول ماءً معدنيّاً إلى جانبي. لم يخطر ببالي حتى ذلك اليوم أنّه كان بينهما علاقة وأنَّ الحالة التي حدثت كانت، على أقل تقدير، مُحرجة، حيّاني روسكيِّس بمزيج من الكراهية وعدم الثقة؛ سلّمت نوريا على روسكيِّس بقلق يشي بشيء من الفرح. وأنا المضبوط فجأة تأخّرت في إدراك أنّ البدينَ القبيح واللعين لم يكن يبغي منّي شيئاً وأنّه جاء لإنقاذ ملاكه الأشقر. مضطرباً من حضوره لم أعرف ماذا أفعل ولا ماذا أقول، على الأقل في الثواني الأولى التي استغلّها روسكيِّس كي يمسك بزمام الحالة. سأل بابتسامة خنزيرٍ عن صحّةِ ابني، كما لو أنه أراد أن يُفهمها أنّ هذا الولد كان مريضاً بينما أبوه يلهو، وعن أمّهِ المسكينة «المضحّية التي لا تكلّ ولا تملّ» من العمل لراحة المُهمَّشين. لم يسبق أن تحدَّثنا أنا ونوريا عن لولا، فشدّت كلمات البدين انتباهها على الفور. لكنّ روسكيِّس كان مسرعاً وأقحم أسئلتَهُ بين ضحكاته وبعض الجمل الجانبية لنوريا، من نوع ماذا تفعلين هنا، يا للمفاجأة أن

أجدك هنا، ظننتهم سرقوا لك دراجتك، إلى آخر ما هنالك، منطوقة بصوت هو من التصنع بحيث إنّه لم يكن ينتهي عنه غير الأسف. ثم ومن ناحية أخرى لم يتأخرْ، كما كان محتوماً، في الانتباه إلى أنّ شعر نوريا كان مُبلَّلاً ومغسولاً توّاً مثل شعري ويبدو لي أنّه استنبط بعض الاستنتاجات. حين أردتُ أن أستعيد المبادرة، سقط روسكيّس، الذي كان قبل لحظات في غاية الفوران، في نوعٍ من الشلل: كان ممسكاً بطرف طاولة العرض بيديه كلتيهما، وعيناه مطرقتين بالأرض، شاحباً ومفكّكاً، كما لو أنّه تلقى رفسةَ حمار. كانت اللحظة المثالية كي أسحقه، لكنّني فضّلت أن أُراقب. تجاهلتني نوريا وبدأت تتكلّم هي والبدين بصوت خافت بحيث لا أستطيع أن أسمعهما. هزّ هذا رأسه بالتفهم عدّة مرّات، ليس دون صعوبة، كما لو أنّه كان ممسوكاً من رقبته: بدا حين ذهبا على وشك أن يُطلق العنان لدموعه. عرضتُ نفسي لمساعدتهما على وضع الدراجة على حاملة الأمتعة، لكّنهما أكّدا أنّ باستطاعتهما فعل ذلك بمفرديهما. لم تظهر نوريا في اليوم التالي في الفندق. هتفتُ لمنزلها (كانت المرّة الأولى التي أفعل فيها ذلك) فقالوا لي إنّها غير موجودة. تركتُ لها رسالة بأن تهتف لي وانتظرتُ. لم أعرف عنها شيئاً حتى مضى أسبوع. خلال ذلك حاولتُ أنْ أُفكّر بأشياء أخرى، أن ألهو عنها، ربّما أن أذهب إلى الفراش مع فتاة أخرى، لكنّني فقط نجحت في الدخول في حالة من الاكتئاب والنفور. كنتُ أتكلّم في المساءات مع لولا، على الرغم من أنّه لا يوجد بين الفندق وبيتها أكثر من خمس عشرة دقيقة؛ هكذا علمتُ أنّها تُفكّر بأن تذهب في إجازة إلى اليونان وأنّ من المحتمل أن تترك العمل في البلدية بعد عودتها. كانت لولا تخرج مع باسكيّ، وهو شخص لطيف، موظّف في الإدارة العامّة،

والأمر يسير بينهما بجدّية. سيذهبان معاً في السيارة وسيأخذان معهما الطفلَ. سألتها عمّا إذا كانت سعيدةً وقالت بلى، لم أكن قطّ أسعد مما أنا فيه الآن. في الليالي كنتُ أتناول كأساً مع أليكس قبل أن أصعد إلى فراشي، وكنّا نتكلّم عن أيّ شيء إلّا عن العمل، علم الفلك، المداواة بالليمون، الخيمياء، طرق نيبال، قراءة الحظ في ورق اللعب، قراءة الكفّ: كان هو من يختار الموضوعات، بحسب ميله. أحياناً حين يكون أليكس مشغولاً جدّاً بدفاتر الحسابات (نحن الثروة رقم ٣٠ في ثِتا، كان يصرخُ عادة من مكتبه الصغير بجانب مكتب الاستقبال، أسمعه بعدها يضحك، ضحكةً مطلقةَ السعادة) كنتُ أتركُ خطواتي تقودني إلى كارتاغو وأسأل عن غاسبارين. كان النُدُلُ يقولون لي إنّه نادراً ما يظهر هناك، لكنّني لم أتشجّع قط لأن أطيل مشواري حتى المُخيّم. يا نِل، يا وسيم. جملته المفضّلة. في تلك الأيام ارتفعت درجة الحرارة حتى ٣٥ درجة كمقدمة لما كان سيجري. أظنّ أنّني خسرت كيلوغراماً أو كيلوغراماً ونصفاً. في الليالي كان يوقظني إحساس بالاختناق فأخرج إلى الشرفة. من هناك في الأعلى، أعلى ما يمكن أن يطال، كان المشهد يسطع بشكل مختلف: أضواء ثِتا، خطّ الساحل المنكسر وفيما وراءها أنوار إي تليها الظلمة، ظلمة تبدو محاطة بوهج حرائق الغابات التي تقع خلفها إكس وأبعد منها برشلونة. كان الهواء من الكثافة بحيث إنّني إذا رفعتُ ذراعاً انتابني إحساس بأنني أدخل في شيء حيّ، شبه صلب: الذراع ذاتها كانت تبدو أسيرة مئات الأساور الجلدية، الرطبة والمشحونة بالكهرباء. وكإشارات حاملات الطائرات انتابني إحساس بأنّني ألج في آن معاً دبرَ وفرجَ هذيانٍ جوّي أو امرأة من الفضاء الخارجي. على الرغم من هذه الظواهر فقد بقي الصيفُ يظهر كريماً بالسيّاح؛ فقد كانت

شوارع ثِتا في بعض الأيام لا تسمح بالمرور، ونتن مواد البَرْنَزَة وزيوت الوقاية من الشمس قد غزا حتى آخر ركن في البلدة. أخيراً عادت نوريا إلى فندق دِل مار، في ذات الساعة كما كانت تفعل دائماً، كما لو أنّ شيئاً لم يحدث، على الرغم من أنّني لاحظت في حركاتها ملمح تردّد لم يكن عندها من قبل. لم تقلْ شيئاً عمّا حدث مع روسكيّس، غير أنّه لا يعلم شيئاً عما بيننا وأنّ من الأفضل أن يبقى هكذا. من جهتي اعتبرت أنّه لم يكن لي أيّ حقّ، وفي الواقع أيّ سببٍ كي أوجّه إليها مزيداً من الأسئلة. تأخّرتُ حتى فهمت أنّ نوريا كانت خائفة.

غاسبار هِرديا:

كان من غير المحتمل أن يظهر الرؤساء في المعسكر

كان من غير المحتمل أن يظهر الرؤساء في المعسكر بعد الثانية عشرة ليلاً، وعلى كلّ الأحوال كان كاراخيّو هناك كي يحمي ظهري؛ فهو لم يزعجه قط أن أصل متأخّراً، خاصّة إذا كان التأخّرُ ناتجاً عن سبب منطقيّ. طبعاً كان من الضروري أن أقول له إنّني عثرت أخيراً على كاريداد. عندما وصفت البيت الكبير في ضواحي ثِنا، قال كاراخيّو إنّه قصر بِنفينغوت، وإن المرء يحتاج لأن يكون شجاعاً كي يقضي الليالي في بناء الجحيم ذاك. بالتأكيد، أضاف، كانت مغنّية الأوبرا تُرافق كاريداد وكانتا معاً تحميان نفسيهما، على الأقل واحدة منهما كانت قويّة، أجبته. ماذا أراد أن يقول بذلك؟ لا أعرف. كان ذكر القصر يستحضر في ذهنه رِمو موران: بكلمات جشّاء كان يؤكّد أن موران مثل بنفينغوت، أو يمكن أن يكون مثل بِنفينغوت، سيعود ذات يوم إلى أمريكا مع ابنه ومع اللوطيّ أليكس (من أيّ بلدٍ بائس جاء موران؟ سأل. من تشيلي. أجبتُ ناعساً) وسيبني قصره ليدهش المجرمين والجهلة وأبناء المنطقة. كما يحدث هنا. بحجارة سوداء، إذا وجدها. أودُّ لو أنه كان معي في الحرب، ختم مغمضَ العينين، دون أن يُحَدّد بدقة ما إذا

كانت تلك ملاحظةً ساخرة أم مسبّةً أم مديحاً، أو الثلاث معاً. حذرتُ جداً في تلك المرّة من ذكر البدين، المُتَزَلّجة وحلبة الثلج. هل كنتُ أرتاب من كاراخيّو؟ لا، خفتُ ألا يُصدّقني، أو على الأقل هذا ما فضّلت أن أفكّر به. لم أستطع أن أنام بقيّةَ تلك الليلة على الرغم من أن شخير كاراخيّو اللطيف كان يدعو للتصالح مع النوم. من موقعي وجبيني ملتصق بالجدار البلوري، استطعتُ أن أتأمّل حتى الفجر البعوضَ وهو يحوم حول مصباح المدخل. في الثامنة صباحاً دخلت إلى الخيمة الكندية، دون أن أتناول فطوري، ونمت نوماً طويلاً حتى الخامسة مساء، تخلّلته كوابيس لم أتذكرها بعد ذلك. عندما استيقظتُ كانت تفوح من الخيمة رائحة حليب حامض وعرق. في الخارج كان هناك أحدٌ ينتظرني؛ سمعتُ هذه المرّة بوضوح اسمي منكرّراً عدّة مرّات؛ خرجت زاحفاً، وشعري مُفلْطَح وعيناي دامعتان؛ كان البيروي جالساً في الخارج على حجرٍ، ضحك عندما رآني. هيّا بنا إلى المخزن، عندنا مشكلة. تبعتُهُ دون أن أسأل. يجب أن نعثر على خيمة مدمنة المخدراتِ التي كانت تتغوّط في الحمّامات، وضّح، عندما أصبحنا في داخل المخزن مُغَطّيَيْن بنورٍ أصفر داكن، نور مُنَخّل بنسيج العناكب والفرش القديمة. خيمة من؟ سألتُ دون أن أعلم ما كان يحدث. الأفضل أن أذهب لأغتسل وبعدها توضّح لي الأمر. رفض البيروي، قال إنّ العثور على الخيمة الكندية اللعينة أمرٌ مستعجل، ثمّ وعلى الفور راح يُفتّش، بعزيمة فيها شيء من الزيف، بين مئات الأشياء المكوّمة في كلّ مكان، بل وكانت تتدلى من السقف الخشبي من شبكة سلكية شهاك الشواء، مصابيح مخيم غازية، مظلات، مقالٍ، بطانيات عسكرية، بينما توضعت على الجدران كلّ أنواع معدات حفر الخنادق وصناديق كرتونية، بعضها

في حالة جيّدة وأخرى رطبة ومتعفّنة مليئة بالقواطع الكهربائيّة غير المفيدة التي وحده بوباديّا يعرف لماذا كانت تُخبأ هناك. خرجتُ دون أن أقول كلمة، غسلتُ وجهي، صدري وذراعيّ ووضعتُ رأسي تحت الحنفيّة حتى ابتلّ شعري كله، وعدتُ إلى المخزن دون أن أجفف نفسي لأنّه لم يكن في متناول يدي أيّة منشفة. أنت يجب أن تعرف أين هي، قال البيروي وهو على ركبتيه أمام مجموعة من إشارات المرور، مرتّبة بشكل مائل تحت ما كان يبدو طوّافةً مُنَفّسَةً. سألته عن أيّ شياطين كنّا نبحث وهكذا عرفت أن صديق كاريداد عاد إلى المخيّم. يُطالبُ الآنَ وقد سدّد كلّ الديون، قال البيروي، بخيمتِهِ. فكّرتُ للحظة أنّ كاريداد جاءت معه، لكنّ البيروي سارع إلى توضيح أنّه كان وحده بل ولم يسأل عن مكانِ الفتاة. جاء ليبقى بضعة أيّام في المُخيّم وقد سدّد الدين، بما في ذلك الأيام التي قضتها كاريداد هنا من دونه. وجدتُ في المكانِ الذي كنتُ قد تركت فيه الخيمة صندوقَ أعلامٍ قديمة، كانت في الواقع قديمة وممزّقة نتيجة استخدامها في مواسم متتالية، توضَع في مداخل المخيمات في استعراض لدولية المكان. بدأ البيروي يُخرج الأعلامَ ويُسمّيها واحداً فواحداً بحنين، مثل سجين سابق يتَذَكّرُ السجون التي استنفد فيها شبابَهُ: ألمانيا، بريطانيا العظمى، الولايات المتحدة، إيطاليا، هولندا، بلجيكا، سويسرا، السويد، الدنمارك، كندا... عشتُ في كل هذه البلدان ما عدا الولايات المتحدة، قال. كانت الخيمة على بعد أمتار قليلة قريبة من خزانة مُفَكّكة. نظّفتُها بعلم كان البيروي يلوّح به كما لو أنّه يُصارع ثوراً، من الغبار الذي كان يعلوها واقترحتُ أن نرتاح قليلاً. راقبني البيروي بفضول؛ كلانا يتصبّب عرقاً والغبار الذي كان يطفو داخل المخزن راح يلتصق بجلدنا مشكّلاً خثراتٍ. بقينا صامتَيْن

برهة طويلة، يلفّنا النور الأصفر، الذي كنت قد اكتشفتُ للتوّ أنّه ناتجٌ عن الصحف القديمة التي كانت تقوم بدور الزجاج. في الوسط كانت الخيمة التي نامت فيها كاريداد وعانت من الكوابيس ومارست الحب، مثل خشبة نجاة مشترَكة. كنتُ سأضمّها إلى صدري لو لم يكن البيروي هناك. أخذنا الخيمة كلّ من جانب ورافقته حتى غرفة الاستقبال لأنّني كنتُ أرغب برؤية وجهِ صديق كاريداد. حين وصلنا كان الفتى قد ذهب، فقرّرتُ أنني لا أريد أن أنتظر حتى يعود. لاحظ البيروي وعاملة الاستقبال شيئاً في موقفي، بحسب عاملة الاستقبال لا يمكن لصديق كاريداد أن يتأخر. لا بدّ أنّه يتناول بيرة أو يختار قطعة أرض كي ينصب خيمته عليها، لكنَّ غريزتي جعلتني أبتعدُ من هناك على الفور. تركت خطواتي تتكيّف مع سيلٍ بقيّة المتنزهين وأنا أُفكّر بما إذا كنتُ سأعثرُ على كاريداد في الشارع أو إذا كان عندي القوّة الضرورية كي أتجه إلى البيت الكبير في الضواحي. حين وصلتُ إلى الكورنيش البحري حاولتُ أن أُكرِّرَ مشوار اليومِ الفائت بجانبِ الحدائق. في طرف من أطراف المنطقة المكشوفة، حيث كانت فرق الطائرات الشراعية، وقد بدأت تنهض فرقة أبواق. عندما سألت عمّا إذا كانت قد انتهت مسابقة الطيران الشراعي حصلت على جواب يؤكّد ذلك. ماذا حلّ بالطيار الأخير. مخاطبي كان شيخاً يُنَزِّهُ كلبَهُ الصغير، هزّ كتفيه. جميعهم ذهبوا، قال. بقيت برهة مستنداً إلى جذع شجرة وظهري إلى الشرفات، أسمع أوّلَ نغمات الفرقة؛ غادرتُ بعدها الكورنيش وتوغّلتُ في أزقّة الميناء. عرفتُ بعض بارات الليلة السابقة؛ ظننتُ أنّني رأيتُ في محل مناضدَ الكرة وألعاب أخرى شعرَ كاريداد الأسود، لكنها لم تكن هي. هربتُ من الضجّة سائراً نحو الأعلى، نحو الشوارع التي تُنْهي صعودَها في

الكنيسة. فجأة وجدتُ نفسي تائهاً في دروب صامتة حيث كانت الأصوات الوحيدة تأتي من النوافذ المفتوحة والتلفازات. عدتُ إلى المُخطّط عبر جادّة مليئة بأشجار الزيزفون والسيارات التي أُسيءَ صفُّها، سمعتُ، قبل أن أصل إلى الشرفة الأولى، صوتَ كارمِن يعلو فوق الجلبة العامّة. يبدو أنّها كانت تضبطه بمزاج خالص. أطللتُ من باب بار بائس، في أحد الشوارع الفرعية من الكورنيش، كانت هناك جالسة بين بعض الزبائن، تتناول فنجان قهوةٍ بالحليب وكأس كونياك. طلبتُ كأسَ بيرة وبحثتُ عن مكان قربها. تأخّرتْ في معرفتي، لكنّها ما إن عرفتني حتى بدا أنّها كانت تنتظرني طوالَ الوقتِ. مرحباً، يا حلو، قالتْ، سوف أعرّفك على صديق. على الكرسيّ المجاور، كان يجلس رجل غير مُحدَّد العمر، إذ يمكن أن يكون في الأربعين أو الستين من عمره، له رأس ضخم على شكل أجاصة، مدّ يده بأدب كبير. كان يرتدي بنطلونَ دريل، فضفاضاً، أزرقَ اللون، وقميصَ نيكي أصفر قصيرَ الكمّين. أخبرتْ كارمِن حين عدنا وجلسنا، بعد مجاملات التعريف، أنّ دورَها سيبدأ بين لحظة وأخرى. انتابني شعور بأنّها قالت ذلك، تحسُّباً لاحتمال أنني أريد أن أذهب، لكنّني بقيتُ دون أي تعليق. عندها تكلّم مرافقُها: لا يوجد شيء مثل الغناء لحرّ الصيف، قالها باحتفاليّة وبنبرة يُحْدَسُ فيها الخجل والراحة على حدٍّ سواء. ولكي يؤكّد رأيه أرانا أسنانه، أسنان الأرنب المتطاولة، الملطّخة بالنيكوتين. اسكتْ، يا غِرُّ، فأنتَ دائماً تفُسد الأشياء بتدخلك، قالت كارمن وهي تنهض، ثم وبعد نحنحة طويلة بدأت بطقطوقة أو شيء مشابه، الرأس والبدن بلا حراك كما لو أنّها أصيبت بنوبة قلبية أو تحوّلت إلى تمثال من خصرها وإلى الأعلى، قدماها يتقدمان على رأس كعبيهما بحذر، يداها ترفرفان،

موقّعتَيْن لحنَ الطقطوقة وفي الوقت ذاته تأخذ بيدها النقود التي كان يناولها لها الحضور. كانت المسافة التي قطعتها قصيرة كقِصَرِ الأغنية، والغناءُ حصل على جملتي مديح أو ثلاث جملٍ يُحَسّ فيها بالتعب مما سُمع. عندما عادت كارمن إلينا كان في كفّها ثلاثمئة بيزتا، وضعتها، كما لو أنّها تلعب الدومينو بجانب فنجان قهوتها بالحليب وكأسها، في الوقت الذي كانت تُلوح تلويحةَ احترام خفيفة باتجاه الباب حيث لم يكن يوجد أحد. عيني على أمّك، قال الغرُّ، وشرب بجرعة واحدة ما كان قد تبقى في كأسه، كوبا ليبرِ كما يحكم من مظهره. كفاك نباحاً وتبجّحاً، كان جواب المغنية المُتعبة من الجهد الذي بذلته. يمكن أن يُحدس في حركاتها، كالحركة التي قامت بها توّاً باتجاه الباب مثلاً، نوع من التأدّب الذي لا شيء فيه مُرتجل، وكلّ حركات الاحترام والنظرات فيه يخضع لمخطّط كانت المغنيةُ تتبعه بحذافيره. كان الغرُّ يتحرّك على مقعده، سعيداً وطلب بصوتٍ عالٍ كأس كوبا ليبرِ. كارمن كانت تشرب إلى جانبه رشفاتٍ من قهوتها بالحليب وتُراقبُ بطرف عينها يديَّ. على الجدار وبين أعلام فرق كرة القدم، تُشير الساعة إلى التاسعة ليلاً.وضع النادل كأس الكوبا ليبر على طاولتنا بأدب متعال. عَيْني بيضاتك! همس الغرُّ وسفحَ فوق سترته ثلاثة أرباع الكأس. الموت للتحقير والموت للكراهية، أضافَ. أنت أيضاً أضعت البوصلة، يا حلو الشعر، قالت كارمن. سألتها ماذا يعني يا حلو الشعر. ضحك الغرُّ، بصوت خافِتٍ ونقر على سطح الطاولة ببراجم ورؤوس أصابعه. هي لن تأتي، قالت كارمن. من هي؟ كاريداد، يا رجل، من ستكون غيرها؟ تبادلت المغنّية والغرُّ نظرة ذات معنى. عليّ أن أذهب، قلتُ. اذهب، يا صغير. تمتم الغرُّ؛ كانت عيناه بلوريتين وياسمنين، لكنّه لم يكن سكران. بدا لي

لثانيةٍ لعبةً، أو قزماً قرّر أن يكبر فجأة. لم أتحرّك عن كرسيّي. لا أعرف كم من الزمن مرّ؛ أتذكّر أنّ العرق كان يسيل على وجهي كما لو أنّني أبكي وأنّني نظرتُ في لحظةٍ معيّنة إلى الغرّ ورأيتُ أنّ وجهه ذا البشرة الناشفة واللامعة كان جافاً تماماً. راح البارُ يمتلئ بالناس. نهضت كارمن، دون أن تنبس بكلمة، وكرّرت الدورَ. يبدو لي أنّها غنّت هذه المرّة شيئاً أقوى، لكنّني لا أستطيع أن أؤكّد ذلك، شيئاً أقوى وأكثر حزناً. الآن أعرفُ أنّني لم أكن أُريد أن أذهب من هناك، لأنّني كنتُ أعرف أنّني ما إن أُصبح في الشارع حتى يكون عليَّ أن أختار بين الذهاب إلى العمل والسير إلى ضواحي ثِتا. أخيراً كان خوفي أقوى وعدتُ مسرعاً إلى المخيم، كما لو أنّ أحداً يُلاحِقني.

إريك روسكيّس:

بماذا تظنون أنّني شعرتُ حين علمتُ...؟

بماذا تظنون أنّني شعرتُ حين علمتُ أنّ بين نوريا ورِمو موران شيئاً أكثر من الصداقة؟ مفجوعاً، نعم شعرتُ بنفسي مفجوعاً. اعتقدتُ أنّ الأرض انشقت تحت قدميّ وروحي تمرّدت أمام ما اعتبرته سخرية وظلماً. عليّ أن أقول: تكرار الظلم، فأنا قبل سنوات أتيحت لي فرصة أن أرى في ظروف مماثلة، لولا، أفضل مساعدة اجتماعية لي، فتاة في غاية الفعالية، ذات أخلاق وتوازن تُحسَدُ عليهما، تقع بين يدي تاجر أمريكي جنوبيّ لم يتأخر في تدمير حياتها. كان كلّ ما يلمسه موران يتشوّه، يُفْقَرُ، يتسخ. لولا مُطلّقة الآن وتعيش ظاهرياً حياة طبيعية، لكنّني أعرف أنّها تعاني في داخلها وأنّها ربّما احتاجت لسنوات كي تستعيد نضارتها، فرحها الذي كان يشع منها قبل لقائها المشؤوم به. لا، لم أستلطف موران قط، كما يُقال عادة، لم أستطع قط أن أبلعه؛ عندي قدرة فطريّة للحكم على الأشخاص فعرفت من اللحظة الأولى أنّ الأمر يتعلّق بخدّاع، غشّاش محتال. هناك من قال إنّني أكرهه لأنّه فنّان. فنّان! أنا يسحرني الفنّ! وإلا فلماذا قامرت بأمني ومستقبلي في حلبة الجليد؟

يحدث، ببساطة أنّه لم يخدعني بأنه دار العالم. جاء من حرب؟ ظهر مرّتين في التلفزيون؟ وقضيبه بطول ثلاثين سنتيمتراً؟ يا إلهي، يا إلهي! إنّني محاط بالكلاب المسعورة. مرؤوسيّ القدماء، أخص فؤادي مكتب المعارض والأعياد، مكتب الشباب، المتطوّعون للحماية المدنية، كلّ أولئك الذين خفّضتُ لهم ذات مرّة الميزانيّة، الذين نقلتهم إلى مكاتب أصغر، والذين رميتُهم ببساطة وصراحة في الشارع، لأنّني لم أكن أريد أشخاصاً لا نفع منهم في أقسامي ينتقمون منّي الآنَ مُخترعين قصصاً تروّجُ للأمريكي الجنوبي الحقير وتضرّ بي. موران دنيء لم يشترك قط في أيّ حرب، ربّما ظهر في التلفزيون (في البرنامج الإقليمي) الآن والجميع يظهرون فيه، وأخيراً عليّ أن أقول لكم، إنّني منذ زمن طويل أعرف أنّ الحجمَ ليس كلّ شيء. فالرجل يجب أن يكون ودوداً وطريّاً كي يكون رجلاً ومحبوباً. أو ربّما أنّكم تُفكّرون أنّه سيُدخِلُ الثلاثين سنتيمتراً في بظرها! أو ربّما تفكّرون أنّه سيوقظ بسنتيمتراته الثلاثين النقطة جي! حين أفكّر بلولا وهي تسير على الشاطئ مع صغيرها، الولد الذي سمّوه في ساعة شؤم باسم هنديّ أنا غير قادر على حفظه في ذاكرتي، كراهيتي، أو ما تسمونه بكراهيتي لموران تجد كلّ مبرّراتها. صحيح، أردت أن أقضي عليه، لكن دائماً ضمن حدود الشرعية الصارمة. لم أرهُ في حياتي كلّها، قبل أحداث قصر بِنفينغوت المشؤومة، إلا ثلاث مرّات وفي المرات الثلاث، أعتقدُ أنّني أتذكّر، كان يتبجح بأنه قفز على طريقة مصارعة الثيران فوق القانون ساري المفعول بالنسبة للأجانب الذين لا يملكون ترخيصاً بالعمل. كان موران والفلاحون حول نِتا الوحيدين، بحسب ما كنتُ أعلم، الذين يعتقدون

أنهم على هامش القانون، في زراعات بعض الفلاحين، ما هو مفهوم لكنه ليس معذوراً: كان يجب قطف الخسّ، مثلاً، وتوفّر المياومين يقتصر على جماعات الزنوج، وغالبيتهم لا يحملون أوراقاً نظامية. لا أحبّ الزنوج، وخاصّةً إذا كانوا مُسلمين. اقترحت في مناسبة كما لو أنني لا أولي الأمر أهمية، على فريق عملي في الخدمات الاجتماعية مشروعاً يلمّ جميعَ الشباب المهمّشين في ثِتا في مروحة واسعة من أعمال الريف: الزراعة، جمع المحاصيل، استخدام الجرارات، بل وأيضاً البيع في السوق كلَّ صباح؛ سيكون رائعاً لو أنّنا رأينا هذه الدفعة من المهمَّشين الزعران، إذا لم يكونوا من مدمني المخدرات يشتغلون في الأرض. طبعاً رُفِضَت الفكرةُ كما لو أنّني قلتها مازحاً تقريباً. أنا نفسي لم أكن أؤمن بها بما يكفي. لا أدري، فيها شيء من عمل الرقّ، قالوا، دعاية سيئة. في النهاية، لن أعرف ذلك أبداً. كما كنتُ أقول، كان الفلاحون يملكون حقّاً راجحاً، بالمقابل كان موران يتعاقد مع شرعيين فقط كي يُغيظ الآخرين. كلّمت لولا بهذا مرّة بشكل عابر، حين كانت ما تزال زوجته ولم أنس جوابَها. بحسب لولا كان موران يُشَغِّلُ من كانوا أصدقاءه في الثامنة عشرة من عمره، مجموعة من الشعراء الذين أجبرتهم الظروف والزمن على أن ينزلوا في الوطن الأم. هو كان يعثر عليهم أو أنّ المصادفة إلى جانب إرادته كانت تجعله يلتقي بهم، ويُشَغّلهم، وكان يجعلهم يوفّرون بعض المال (أو يجبرهم على أن يُوفّروا) وكان أصدقاؤه القدماء في نهاية الموسم يعودون دائماً إلى أماكنهم الأصلية في أمريكا. أو على الأقلّ هذا ما كان يحكيه موران لِلولا؛ وهذه لم تستلطفهم قط، على الرغم من أنّهم بدوا لها جميعاً

جديرين بأن يُعاملوا مهنياً. أشخاص رثو الثياب ومجروحون، ممتعضون، غير منسجمين مع المجتمع، صموتون، مرضى، يتحاشى المرء أن يلتقي بهم في شارع مقفر. عليّ أن أقول إنّ لولا كانت تجمعني بها، وأثق أنّها ما تزال تجمعني بها على الرغم من الهوّة التي تفصل بيني وبين زوجها، صداقة ورفاقيّة لا تفوقها إلا تلك التي تربطني بالعمدة، ولذلك لم يكن هناك ما يمكن أن يجعلني أشكّ بمسارّاتها. الشعراء المُشار إليهم، المجهولون تماماً في إسبانيا كما في أمريكا الإسبانية لم يكون أبداً كثراً، في الحقيقة كانوا يخلطون بينهم وبين بقيّة الكادر، حيث كان هناك ناس من كلّ الأذواق. لم يحدث أن رأيتُ أيّاً منهم وإذا كنتُ قد ذكرت الآن هذه القصة فذلك لما فيها من إحساس بفيلم رعب خلّفته عندي. على كلّ الأحوال، هل كان ذلك، كما لفتُّ انتباهَ لولا، فعل صداقة تجاه زملائه القدامى أم أنّه كان يريد أن يتخلّص منهم؟ بحسب لولا، ربّما لم يعودوا جميعاً إلى أمريكا اللاتينية، ربّما لم يعودوا فقط إلى ثِتا، لا أكثر، لكنّني رجحتُ التناظر بين مواسم عمل الصيف ورحلات العودة. مسألة أخرى هي أنّه إذا عادوا فارغي الأيدي ما عدا البيزتات القليلة التي استطاعوا أن يوفّروها أو أن السفر كان طريقة للعمل من أجل موران، كسعاة بريد أو مُراسلين. المخدرات، وهذا معروف، تسود على هواها في ثِتا وقد سمعتُهم يقولون في أكثر من مناسبة إنَّ موران داخلٌ في هذه التجارة، وإن كان عليّ أن أقول بنزاهة إنهم لا يرتكزون في قولهم على أسس. طبعاً لم أتطرّق لهذا قطّ مع لولا، لا لشيء إلا لأنّ الأمر يتعلّق بوالد ابنها. هتفتُ في مناسبتين لبعض معارفي في خيرونا، لأرى ما إذا كانوا يستطيعون أن يقبضوا عليه.

صفر مطلق. يموت الناس، لا يموتون إلا حين يخزونهم في مؤخراتهم. لا ضرورة لأنّ أقول إنّ كلّ الزيارات التي قام بها مفتشو العمل كانت عبثيّة. أيضاً لم أكن أتوهّم كثيراً بهذا الشأن: أعرف هذا النوع من البيروقراطيين كما لو أنّني أنجبتُهم وأعرف أنّهم لم يُحاولوا أن يُباغتوه قط، أن يصلوا في ساعات غير متوقعة، أن يستنطقوا كلّ الكادر، أن يجمعوا معلومات من الجيران، إلخ. موران دائماً ملصَ من الطرق التقليدية، بل ومن دون أي غرامة صغيرة، توثيقيّة. كان هناك مخرج آخر وهو أن أُبلغ عنه الاتحاد العام للعمال أو اللجان العمالية، لكنّ علاقتي مع ممثلي النقابات في تِنا لم تكن جيّدة جدّاً. اضطُرِرتُ مرّة واحدة إلى استخدام يديّ معهم: كان ذلك منذ خمس أو ستّ سنوات، في أبواب مقرّ الاتحاد العام للعمال، لأن أواجه مجموعة من المتهوّرين. إلى جانب شرطي بلدية، اليوم صار متقاعداً، ضدّ ثمانية متنمّرين من لجنة الإضراب. الحقيقة أنّهم كانوا من الكثرة بحيث إنّني لا أتذكّر عددهم بدقّة. من حسن الحظ أن المشاجرة كانت بالأيدي وقصيرة، وتطورها وحلها كان بالدفع أكثر مما بالضرب. على كلّ الأحوال انتهى بي الأمر بنزيف من أنفي وبجرح مفتوح في الحاجب وبيلار تركت لا أعرف أي عمل مهمّ وجاءت على الفور لزيارتي. شيء غريب: أنا الذي لم أعتدِ ولم يُعتدَ عليّ قط في طفولتي كان عليّ آن آتي إلى تِنا وأعملَ مثل حمار وأعرفَ الحبَّ كي تمطر علي عِصِيّاً. لم أقل أيّ شيء من هذا لِنوريا، أريد أن يبقى هذا واضحاً؛ ولا حتى مجرّد عتاب ولا أيّ شيء يمكن أن يُفهم بهذا الشكل. ابتلعت الغضب، الغيرة (لماذا لا أقولها) والذهول اللذين كانت تحدثهما المسألة كلها عندي. في حركاتها، في

طريقتها للإحاطة بالموضوع، رأيتُ بوضوح أنّها لم تكن تفهم موضوعَ موران تماماً وأنّ تدخّلي لن يساهم إلا في تأزيم الحالة. هي كذبت وأنا تظاهرت بتصديقها. لقد جعل الألم حبّي، يمرّ بتقلباتٍ، لذات ذهنية جديدة دون أن تنحسر كثافته كثيراً. بالمناسبة لم تكن تنقصني أشياء أشغل نفسي بها؛ مشاعر الكراهية تجاه رِمو موران، والحمد لله، لم تستنفد قط أكثر من ثلاثة بالمئة من انفعالاتي. في تلك الأيّام عدتُ لأحلم بحلبة الثلج، كان الحلم يبدو امتداداً للحلم الذي سبق وحلمته: العالم في الخارج يُعاني ممّا يزيد عن أربعين درجة في الظلّ وفي داخل قصر بِنفينغوت كان هناك هواء صقيع يكسر المرايا القديمة. بدأ الحلم في اللحظة التي كنت أنتعل فيها حذاء التزلّج وأشرع بالجري، دون أيّ جهدٍ، على سطحٍ أبيض وأملس، بنقاء بدا لي وقتها فريداً. صمت عميق ومطلق كان يلفّ كلّ شيء. فجأة خرجتُ يدفعني التزلّج ذاته من الحلبة ورحت أتزلّج في ممرات وغرف قصر بِنفينغوت. لا بدّ أن الآلة جُنّت، فكّرتُ، وغطّت كلّ البيت بالجليد. كنتُ أصل منزلقاً بسرعة إعصارٍ إلى الشرفة التي أرى منها زاوية البلدة والأبراج الكهربائيّة. التي بدت حمولتها زائدة وعلى وشك أن تنفجر أو تشرع بالسير نحو الشروم، فيما وراء ذلك كنتُ أرى غابة صنوبر منحدرة، تكاد تكون سوداء وفوقها بعض الغيوم الحمراء كمناقير بطٍّ وأسنانِ سمك قرش! في الطريق الإقليمي تظهر درّاجة نوريا ببطء شديد في اللحظة التي تنفجر فيها حرائق هائلة في ثِنا. الضياء لم يكن يدوم سوى بضع ثوانٍ تعود الظلمةُ بعدها لتُغَطّي كاملَ الأفق. قضي عليّ، كنتُ أُفكّر، لقد جاء الانقطاع العام للكهرباء. استيقظت عندما بدأ الجليد بالذوبان بسرعة غير معهودة.

ذكّرني هذا الحلم بكتابٍ قرأته في مراهقتي. بحسب مؤلّف الكتاب (الذي نسيت اسمه) هناك أسطورة أو شيء مشابه حول صراع الخير والشر. الشر وأتباعه يفرضون قوّةَ النار على الأرض. ينتشرون، يخوضون معارك، إنهّم لا يُقهرون؛ في آخر معاركهم، وهي الأهمّ، يصبّ الخيرُ الجليدَ على جيوش الشرّ ويوقفها. وتنطفئ النار تدريجيّاً. النصر الأخير هو لأتباع الخير. ومع ذلك تُنَبّهُ الأسطورةُ إلى أنّ الصراع لن يتأخّر في أن يعود ويبدأ من جديد ذلك أنّ الجحيم لا ينضب. إحساسي عندما راح الجليد يذوب كان بالضبط هذا: أنّني كنت أغوصُ أنا وقصر بِنفينغوت شاقولياً في الجحيم....

رِمو موران:

قرّرتُ أن أذهب لأبحث عن نوريا في بيتها

قرّرتُ أن أذهب لأبحث عن نوريا في بيتها، الشيء الذي لم أفعله قط، وهكذا كان أن تعرّفت على أمّها وأختها، الصغيرة والنبيهة لايا. كان مساءً مشمساً وحاراً، لكنّ الناس لم يحرموا أنفسهم من متعة السير في الشوارع المليئة بمحلات الطعام والمثلجات، وببضائع من كلّ الأنواع راحت تدفع بها الدكاكينُ حتى حافّة الرصيف. فتحت البابَ امرأة نحيلة ودعتني للدخول دون مناسبة، كما لو أنّها كانت تنتظر زيارتي منذ زمنٍ طويل. لم تكن نوريا موجودة. أردتُ أن أذهب، لكنّ الوقتَ كان قد تأخّر والمرأة بحركة مؤدّبة لكنّها حازمة سدّت المخرج. لم أتأخّر في فهمِ أنّها كانت تُريد أن تستخلصَ مني معلومات عن ابنتها. في الصالون الذي دُفِعتُ إليه كان هناك نُصُب تذكاريّة فوق قواعد صغيرة من مرمر زائف على جانبي المدخنة، وكانوا يعلقون، كإعلانات عن مكافآتٍ قديمة، صوراً وقصاصات صحف مؤطّرة بالزجاج وسيور من ألمنيوم. تتألّقُ فيها نوريا وهي تتزلّج وحدها أو مرافقة، وبعض القصاصات مكتوبة بالإنكليزية والفرنسية، وأخرى، ربّما كانت دنماركية أو سويدية. ابنتي تتزلّج منذ كانت في السادسة من عمرها، أعلنت الأمّ واقفة في

نجران الباب الذي يفصل الصالون عن مطبخ واسع أسدلت ستائره وهذا ما كان يُضفي عليه جوَّ غابة مظلمة، جوّ منطقة مكشوفة من غابة وسط الليل. كان يتسرّب من بين الستائر في الصالون نور أصفر ولطيف. هل رأى حضرتُك ابنتي تتزلّج؟، قالت بالكتلانيّة، لكنّها كرّرت السؤالَ بالقشتاليّة قبل أن أستطيع إجابتها. قلت لا، لم أرها قط تتزلّج. نظرت إليّ كمن لا تصدّقني. كانت عيناها بزرقة عيني نوريا، لكن لم يكن من الممكن أن تُلمح فيهما الإرادة الفولاذية التي كانت تلمع في عيني ابنتها. قبلتُ فنجانَ قهوة. كانت تصل من عمق البيت ضجة رتيبة وهادئة. فكّرتُ أنّهم كانوا يقطعون حطباً، لكن هذا غير معقول. هل أنت أمريكي جنوبيّ. سألتْ الأمّ جالسةً على كرسيّ كبير مزهر بنيّ على أرضية رماديّة. أجبت بالإيجاب. هل ستتأخر نوريا كثيراً؟ هذا ما لا أعرفه أبداً، قالت ناظرةً إلى كيس تخرج منه أعواداً وكبّة صوف. كذبت بخصوص امتلاكي للوقت، على الرغم من أنّني كنتُ أعرف أنّه لن يكون من السهل عليّ أن أذهب. من أيّ بلد؟ من الأرجنتين؟ بدت ابتسامة الأمّ، على الرغم من حيادها، كأنّها تربت على ظهري داعية إيّاي لأن أسهب. أجبتُها بأنّني تشيليّ. آه، حسن من تشيلي، قالت الأمّ. وماذا تعمل؟ عندي دكان حلي، تمتمتُ. هنا في بِثا؟ حرّكت رأسي مُتَقبّلاً كلّ شيء. غريب، قالت الأمّ، نوريا لم تحدّثني عنك أبداً. كانت القهوة ساخنة جدّاً لكنّني شربتها بسرعة، أحدٌ زعق خلفي ورأيت بطرف عيني ظلاً يمرّ باتجاه المطبخ فقالت الأمّ: تعالي أريد أن أقدّمك لصديق لِنوريا. ظهرت أمامي صغيرةُ عائلة مارتي حاملةً في يدها علبة كوكاكولا. تصافحنا وابتسمنا. جلست لايا بجانب أمّها، لا يكاد يفصل بينهما كيس الصوف، وانتظرت؛ أتذكّر أنّها كانت ترتدي بنطلوناً قصيراً وأنّ على

ركبتيها تظهر قشرتان بنيتان كبيرتان. زوجي لم يرها تتزلّج إلّا مرّة واحدة، لكنّه مات سعيداً، قالت الأمُّ. راقبتها دون أن أفهم كلمة واحدة. تصوّرت للحظةٍ أنها أرادت أن تقول لي إنّ زوجها مات وهو يرى نوريا تَتَزَلَّجُ، لكن أن أُفكّر هكذا كان مبالغة وأكثر من ذلك أن أطلب توضيحات، وهكذا اكتفيت بالموافقة برأسي. مات في المشفى، قالت لايا، التي لم ترفع نظرها عنّي وهي تمصّ الكوكاكولا ببطء، مقشعر للبدن؛ في الغرفة ٣٠٤ من مشفى بِتا، حدّدت بدقّة. نظرت إليها الأمّ بابتسامة إعجاب. هل تريد فنجانَ قهوة آخر، يا سيّد موران. قلت لا، شكراً جزيلاً، مع أنّ الأوّل كان لذيذاً جدّاً. الغريب أنّه تَوَلَّدَ عندي وقتها انطباع بأنّ قرار ذهابي أو بقائي لم يعد يتعلّق بي. هل تعرف ماذا تفعل نوريا هناك؟ فكّرتُ أنّ لايا تشير إلى نوريا التي هي من لحم ودم فاستدرتُ، فزعاً، لكن وحده الممرّ الفارغ كان خلفي. كانت سبّابة لايا تُشير إلى إحدى الصور المؤطّرة. اعترفتُ بجهلي وضحكتُ. ضحكت الأمُّ متفهّمةً. قلتُ اعتقدت أن نوريا كانت خلفي، ما أغباني. «خصلة شعر» قالت لايا، «خصلة شعر». وهل تعرف ماذا تفعل هناك؟ الصورة ملتقطة من بعيد كي تُرى جيداً عظمة الحلبة وسعة المكان؛ في الوسط، منزاحة قليلاً إلى اليمين، جُمّدت نوريا بأقصر شعر لحظةَ هرب خيالية. هذا «بركيت» قالت لايا. وهذه هي نهاية سلسلة «ترسِس». وتلك هي الصورة «الكتلانية» اخترعتها مُتَزَلِّجةٌ كتلانيّة. رحتُ بعد أن اعترفتُ بإعجابي أتأمّلُ الصور واحدةً واحدة. لم تكن نوريا في بعضها تتجاوز العشر أو الاثنتي عشرة سنة. كانت ساقاها مثل المعكرونة وتبدو ناحلة جدّاً. كانت في صور أخرى تتزلّجُ مع فتى طويل الشعر، رياضيّ الجسم، مفتول الذراعين، كلاهما يبتسم بشكل واضح: أسنان بيضاء،

قسمات مركّزة ومع ذلك كانا سعيدين. فجأة شعرتُ بنفسي، في معمعة الصور، منهكاً وحزيناً. متى ستعودُ نوريا؟ سألتُ. رنّ صوتي مثل أنين. فيما بعد، بعد التدريب، قالت لايا. أخرجت أمّها دون أن أنتبه سنّارتيها وراحت تحيك وعلامات الرضا ترتسم على وجهها، كما لو أنّها تحقّقت من كلّ ما عليها أن تتحقّق منه. تتدرّب؟ في برشلونة؟. خصّتني لايا بابتسامة رفاقية: لا، بل في ڤِتا، تتزلّج أو تجري، أو تلعب التنس. دائماً تعود متأخّرة، ثمّ همستُ في أذنها، بعد أن تأكّدت من أنّ أمّها لم تكن تولينا انتباهاً: مع إنريك.. آه، تنهّدتُ. هل تعرف أنريك؟ سألت لايا. أجبتها: نعم، أعرفه. هكذا إذن، هي تتدرّب كلّ يوم مع إنريك؟ كلّ يوم، صاحت لايا. حتى أيّام الآحاد.

غاسبار هِرديا:

أنا غرٌّ في بلدة الجحيم هذه

أنا غرٌّ في بلدة الجحيم هذه، قال الغرُّ. عندما سألته لماذا يسمونه هكذا، غرّ في الثامن والأربعين من عمره، مبتدئ لا يعرف المكرَ وليس لديه أصدقاء يتقوّى بهم. البحث في الحاويات كان يمنحه بعضاً من المال، وكان بقيّة النهار يهيم في بعض بارات الشاطئ المنعزلة، غير السياحية أبداً وفي مخارج تِتا، أو بالأحرى كان يلتصق مثل محارةٍ بظلّ كارمن المفاجئ دائماً. هي من أطلق عليه اسمَ الغرّ وكان أفضل وقعاً بصوتها: يا غرّ، افعل هذا، يا غرّ، افعل ذاك الآخر، احكِ لي، يا غرّ، أحزانَك. يا غرّ، هيّا بنا نشرب. حين كانت كارمن تقول يا غرّ، كان باستطاعة المرء أن يسمع موسيقى خلفيةِ شارع من شوارع الأندلس المزدحم دائماً بالمجنّدين الذين حصلوا على إجازة طالما حلموا بها، يبحثون عن نزل رخيص أو قطار كي يهربوا من الكارثة؛ كانت كلماتها المقطّعة، المجرجرة والوضّاءة، ناحية أخرى تسرُّ الغرَّ إلى حدّ أنَّ عينيه تغيبان، كان فيها شيء من حمّام جماعي للرجال وثقب صغير في السقف حيث كانت ابنة القائد العام الصغيرة تراقب التعذيب كلَّ صباح

تحت مرذاذ الماء البارد. حسن، إذن حمام ماء بارد كان شيئاً مغرياً، فالحرّ كان يكثّف الهواءَ، فيقضي المرء الساعات وهو يشعر بالمرارة ويشهق، لكنّ هذا الحمّام البارد بصوت كارمن كان رهيباً. رهيباً، بلى، لكنّه مرغوبٌ ومنهجيٌّ ورائع؛ كان الغزّ يبحث عن الكرتون في الحاويات أو يطلب صناديق الكرتون مباشرة من الحوانيت والمخازن، يبيع بعدها بضاعته للسقّاط الوحيد في ثِتا، وهو وغد، مُستغِلٌ خطير هناك كان ينتهي يوم عمله. كان يُحاول أن يمضي بقيّة النهار مع كارمن، الغاية التي لا تتحقّق دائماً. بالمناسبة، كانت تلك إقامته الأولى في ثِتا، على الرغم من أنّ صداقته مع المُغنّية قامت قبل سنة أو سنتين في برشلونة. لأجلها وقعتُ على في هذه البلدة التي لا ترحم، كان يوضّح لمن يريد أن يُصغي إليه، تابعاً هذه الدوّارة، وصلتُ في ليلة كلابٍ، يا مُعلّم وهي لم تكن في كثير من الليالي تبقى معي. وهذا ما كانت تردُّ عليه كارمن بقولها إنّ استقلالها هو أثمن ما عندها، وإنّ على الغزّ أن يتعلّم التسامح من الكتلانيين، التدرّبَ المتحضر لرؤيتهما، هي وكاريداد تأتيان بهدوء. هل تعلم، يا غزّ أنّ هناك أشياء لا يمكن أن تُعرَف؟ وأنّ كثرة الأسئلة شيء قبيح؟ كان الغزُّ يُحرّك رأسه ويديه موافقاً بقنوط؛ كان واضحاً أنّ توضيحات المُغَنّية لم تكن تُقنعه. كان خوفه الأكبر هو أن يأتيه الابتعادُ، حتى ولو كان مؤقّتاً، بموتٍ، موتٍ مفاجئٍ، ليليٍّ، مُضاعف. أسوأ ما في الموت وحيداً، كان يقول، هو أنّ الميت لا يستطيع أنْ يودّع أحداً. ولماذا تُريد أن تُودّع وأنت تموت، يا غزّ؟ الأفضل هو أن تُفكّرَ بالناس الذين تُحبّهم وتقول لهم وداعاً في خيالك. كثيراً ما كانا يتكلّمان عن الموت، أحياناً بطريقة قتالية، وإن كانا يفعلان

ذلك في معظم الأحيان عن بعد، كما لو أنّ الأمر لا يتعلّق بهما، أو مستسلمين، كما لو أنّ الجرعة السيّئة قد شُرِبت. كانت مسألة نومه لوحده الدافع الوحيد لنقاش حقيقيّ. نقاشات عرضيّة. كان الغرّ يريد أن ينام كلَّ ليلة مع كارمن وكنّا نلاحظ التخوفّات، نوبات الغضب، الشعور باليتم الذي كان يسببه له رفضها. نشأت صداقتهما في مأوى شحاذين وكانت تبقى عالقة في الفراغ، كانا يؤكّدان بانتصار. المسألة أنّ الحياة لا تقبل المقارنة، مثلاً، النباتات، تكتفي ممتنةً بقدر إصبع من الماء، والأشجار المسماة بالبلوط أو المسماة بالصنوبر الملكي، يمكن أن يبتلعها حريق وببول قليل وسخ تعود لتنمو، وهو ما كان يُضيف إليه الغرُّ، يكفيه ألا يبرد وأن يملك ما يأكلُهُ، كانت المغنّية تقول بصوتٍ حالم، كما لو أنّها تتذكّرُ السيّدة والصعلوك، إنّ الغرّ ريفيّ وهي آنسة، فماذا سأفعل له. كانا قد اعتادا ربّما كي يتفاديا ذلك، على أن يحكيا قصصاً وكانا يقضيان أحياناً ساعات يراجعان فيها ماضيهما ذاته، يشتركان بها بحيث يستطيع المرء أن يظنّ أنّهما يعرفان بعضهما بعضاً منذ كانا في الخامسة من عمرهما وأنّ كليهما كان شاهداً على كلّ حدث من أحداث الآخر. كانا يؤمنان بالمستقبل: إسبانيا تسير نحو المجد، كانا يقولان عادةً. وكانا يؤمنان أيضاً بمستقبلهما ذاته. كلّ شيء سوف يُسوّى، حين يأتي الخريف لن يحتاجا لأنّ يرحلا من ثِنا، وكذلك حين يأتي الشتاء، بالعكس سوف يكون لهما بيتٌ جيد فيه مدخنة أو مدفأة كهربائيّة كي لا يبردا وتلفاز كي يتسليا، والغرّ سيحصل بصبرٍ على عمل، ليس روتينياً، ولا شيء من الإنهاك في العمل كلّ يوم، لأنّ هذا عبودية ما عادا يستطيعان أن يتحملاها، لكنه سيكون فعلاً عملاً ثابتاً،

ربّما يكون تنظيفَ زجاج واجهاتِ المتاجر والمطاعم، وربّما حراسة مبان شققها خالية، وربّما جنائنيّ في شاليهات أثرياء المنطقة، حتى وإن كان هذا يتطلّب سيارة ومعدات مناسبة. كان الغرُّ يفتح عينيه كثيراً حين كانت ترسم كارمِن بهذه الألوان. وأنت، ماذا ستفعلين، يا كارمن؟ أنا سأُعطي دروساً بالغناء، سأرعى أصوات الأطفال، سأعيش بهدوء المترقِّب. يا سلام عليك، هكذا أُحبّ النساء: فوق وتحت، كلّ الذي يصعد يهبط وكلّ الذي يلامس القاع يعود إلى السطح، كان الغرُّ يصيح مشتعلاً حماساً. عندي خطّة، اعترفتْ لي كارمِن، خطّة لا أستطيع أن أقول كلمة عنها، أموت قبل أن أفتح فمي. لكنّ الإغواء كان أقوى من حكمتها، أو أنّها نسيت أنّ عليها ألا تتكلّم، وذات مساء وضّحت بخطوط عامّة ما كانت تُفكّر أن تفعله: أولاً ستذهب لتسجّل اسمها في السجل المدني في ثِتا، ستزور بعدها خادم العمدة وستطلب، لا، ستُطالبُ بشقة بتمويل رسمي يُدفع على مدى ثلاثين عاماً، وأخيراً ولكي تختم المهمّة، ستحكي بعضَ الأشياء الصغيرة، كبرهان على صدقيّة معلوماتها، له أم للعمدة شخصيّاً، طبعاً هو نفسه من يختار. وكيف تعرفين من هو خادم السيّدة؟ سألها الغرّ. بالتجربة، قالت المُغنّية، وبينما كانت تُمرّر على شعرها مشطاً أخضرَ راحت تحكي لنا ما حدث معها في إقامة سابقة في ثِتا، قبل سنتين أو ثلاث، لم تكن تتذكّر بدقّة، ربّما قبل أربع سنوات، بالمقابل ما كانت تتذكّره فعلاً هو زياراتها اليوميّة إلى دار البلدية في ثِتا طلباً للمساعدة. المَطْهَر. في تلك الأيّام كانت كارمِن تشعر بأنّ وضعها سيّئ فخافت. الخوف من أن تموت نصفَ مِيتَةٍ وحدها ومن دون عناية، كما كان يقول الغرُّ. لكنّها لم تمت. عندها تعرّفت على

كلّ ضواري الإدارة العامّة؛ الثعالب والنسور؛ الديمقراطيين طوال حياتهم، المستعدين لأن يتركوني أموت، دون أن تأخذهم شفقة أو لأن يبتسموا لي حين كنتُ أحكي لهم نكتة أو أقلّد لهم مونسِرّات كابايّه[1]. لا تثق أبداً بالمكتبيين، يا حلو. كلّ الذين يعملون في المكاتب أبناء عاهرة ومحكومون بأن تمرّ السكين على رقابهم بطريقة أو بأخرى. فتاة وحيدة فقط أرادت أن تُساعدني حقيقة: المساعدة الاجتماعية، وهي فتاة حلوة جدّاً ومطلعة تماماً على أحوال الكلاسيكيين؛ كلاسيكيي الأوبرا، طبعاً. هكذا تعرّفت على وغد العمدة، يعني هكذا تعرّفت على دواخله، الأكثر سواداً من أحشاء بئر. كي تفهم: ألححتُ على أن أُكلّمَ العمدةَ إلى حدّ أنّ سكرتيرها أرسلني إلى الخادم وهذا إلى المساعدة الاجتماعية. كان بودّ الفتاة أن تحلّ مشكلتي لكنّهم لم يتركوها. أعرف هذا لأنني كنتُ أزور في كلّ صباح مكاتب المرشدين الاجتماعيين في الشارع والمساعدين الاجتماعيين، خاصّة وأنّ ما يسمى ساعات العمل الرسمية ليست جيدة للغناء وكان عندهم في قاعة الانتظار تبريد وأنا أعشق التبريد، يا حلو. حسن عندها سمعتُ الخادم خلف أحد الأبواب يرغي ويزبد ضدّ كثير من الأشياء وضدّي على وجه الخصوص. خطيئتي أنني لم أكن مسجلة في سجل ثِتا ولم نتعدَّ ذلك. ليس عندي هويّة، فقط هوية الجمعية الخيرية وهوية التبرع للصليب الأحمر، لذلك تستطيع أن تتصوّر. لست مسجلة في أيّ مكان، لكن حتى الشرطة حين تعتقلني تعرف أنّ هذا شيء مغفور. بعدها استعدت نفسي وحدي ولم أعد

---

(١) مغنية أوبرا كتلانية (١٩٣٣ ـ ٢٠١٥).

أحتاج أحداً. الجسدُ يُسْعَدُ حين يكون سليماً وينسى كلَّ شيء. أنا لم أنس وجه اللئيم. أعرف الآن بعض المسائل الصغيرة التي ترجّح كفة الميزان لصالحي (مصدر معلوماتي هو عيني) وسأطلب كلّ ما يحلو لي. ليس سريراً في مشفى، بل بيتاً وتسهيلاتٍ كي أبدأ حياة جديدةً، زفّت لنا. ما المسائل الصغيرة التي كانت تعرفها؟ لم تقل لنا. المسألة تفوح منها رائحة فضيحة، لكن كان من الصعب تصوّر كارمن تقوم بدور الفاضحة. اقترح الغرّ عليها أن تطلب عربةً مقطورة بدل البيت فهكذا يستطيعان أن يذهبا من مكان إلى آخر. لا، بل بيتاً، قالت المغنّية، بيتاً يُسدّد ثمنه على مدى ثلاثين سنة. بقينا برهة طويلة نضحك ونتكلّم عن البيوت، إلى أن خطر لي أن أسألها ما علاقة كاريداد بكلّ هذا، قالت المغنّية غامزة إيّاي بعينها، هي الآن متوعّكة قليلاً وأنا أعتني بها؛ حين يصير عندي بيت تستطيع أن تذهب لتعيش معي. أنتِ كريمة كالشمس، قال الغرُّ بشيء من الحسد. أنا من النوع الذي ما عاد موجوداً، يا غرّ، قالت كارمن. وإذا لم يعرك أحد انتباهاً، ماذا ستفعلين؟ إذا لم يعرني انتباهاً من، يا حلو؟ موظفو البلدية، خادم العمدة، العالم بعامّة... راحت كارمِن تضحكُ، كانت أسنانها مُكسّرة ومتباينة، ولا يكاد يوجد في فمها أضراس، ومع ذلك كان حنكها قوياً وصلداً، من النوع الذي يتقدّم إلى الأمام في لحظات القنوط. أنت لا تعرف عمّا أتكلّم، قالت لي، أنت لا تعرف الفضيحة التي أنا على استعداد لإثارتها. أنت وكاريداد؟ أنا وكاريداد، قالت المغنّية، لأنّ رأسين يفكّران أفضل من رأس واحد...

إنريك روسكيّس:

دائماً أحسستُ بنظرات مشحونة بالضغينة

دائماً أحسستُ بنظرات مشحونة بالضغينة، لكنّ النظرات الأولى، التي تمتزج فيها جرعات متساوية من الخديعة والمصلحة، أمر جديد، بدأت ألاحظها هذا الصيف فقط، صيفيَ الأخير في ثِنا. مبدئيّاً عزوتها لاقتراب موعد الانتخابات، لم يكن يخلو الأمرُ من ناس داخل البلدية ينتظرون خلال أربع سنوات هزيمة بيلار، وبالتالي هزيمتي. تأخرتُ حتى انتبهتُ إلى أنّ الأمر كان هذه المرّة مختلفاً، نوعاً من الشك غير مُصاغ راح يقيم في الجلد، أكثر مما في العقل، في الموظّفين والمستخدَمين الذين لم يكونوا في إجازة. حاولت أن أكون لطيفاً، لكنّني لم أنجح، فقد بقيت النظرات مُتَشَبِّثة تماماً بالنوافذ والطاولات، بالمغاسل وبالأدراج. ما من كلمة واحدة غير محترمة، ما من نكتة مزدوجة المعنى، لكنّ الإحساس بأنني ما زلتُ مزدرى ما زال كامناً. انتهيت كما هو الحال دائماً بأن عزوت كلّ ذلك للتوتّر النفسي لساعات عملي التي لا حدود لها، لمسائلي الخاصّة، لأنّه ما من أحد في الحقيقة وجّه إليّ شيئاً يمكن أن يُفسّر كنقدٍ، بل إنّ بعضهم لم يكونوا يوفرون مديحاً لأي شيء أقوم به وتمنياتهم بأن أصل إلى برّ الأمان. حتى

المشاريع التي كانت تنهار في منتصف الرحلة، كي أستمرّ بالمجازات البحرية، كانت تلقى الثناء وبعض التصفيق، وبعض عبارات المواساة مثل: بنية البلدة ليست مهيّأة بعدُ لهذا أو ذاك، إلخ. الصحيح هو أنّني خفّضت حذري وهذه الإشارات التي كان من الممكن أن تفيدني كثيراً، لو أنّني قرأتها بشكلٍ صحيح، مرّت من دون أن تُولِّدَ عندي أكثر من انطباع خفيف من المضايقة، الظاهرة التي كنتُ من ناحية أخرى قد اعتدتُ عليها. كانت بيلار قد عادت في تلك الأيّام من رحلة إلى ميورقة، نصف عمل ونصف إجازة وهو ما ألمح إليه أحدُ زعماء الحزب نصفَ جادّ ونصف مازح، أي إلى طبيعة كلّ ما جرى في ميورقة في تلك الأيّام ولن يلعب دوراً سيّئاً في البرلمان الكتلانيّ. من فائض القول إنّ بيلار عادت مثارة جدّاً ولم تكن تتوقّف عن الحديث بالهاتف مع أناس من برشلونة، مع القليلين الذين كانوا ما يزالون في برشلونة أو القليلين الذين كانوا قد عادوا من إجازاتهم، في النهاية كانوا قليلين جدّاً وهو ما لم يكن عائقاً أمام بيلار كي تستبق الأحداث وتضغط، كما يُقال عادةً، على رأي أصدقائها الموجودين في مواقع مهمّة ومؤثّرة. أعترف أنّ هذه الحالة الانفعالية دعمت أهدافي من ناحية ومن ناحية أخرى جعلتني أُخَفِّضُ حذري، وهو ما آذاني على المدى الطويل. نصيحة للمبتدئين: لا تتهاونوا. بيلار، صديقتي بيلار العصبيّة والمتردّدة، كانت بحاجة لأن تتكلّم مع أحد موثوق، وكما هي العادة دائماً كنتُ المُختارَ. كانت معضلتها من النوع الأخلاقي: هل كان عليها أن تتقدّم من جديد إلى الانتخاب كعمدة وهي تعرف أنّه سيكون عليها أن تتنازل بعد أشهر عن منصبها؟ هل يمكن أن يُفسّر تفضيلها منصب العضوية في المجلس المستقل على أنّه استهتار بناسها؟ أم أنّهم سيفهمون أنّها ستُدافع من

مقعدها في البرلمان عن مصالح ثِتا بشكل أفضل؟ ناقشنا المسألة من زوايا مختلفة ثم وبعد أن جعلتها ترى أنّه في الحقيقة لا يوجد أي معضلة أخلاقيّة، بدت بيلار واثقة بالمستقبل، تلك كانت كلماتها. وكانت من الثقة بحيث إنّها احتفلت مستبقة الأمر بدعوة عدد قليل من دائرتها الحميمة للعشاء في أفضل مطعم في ثِتا، متخصّص بالبحريات والأسماك، أحد أغلى المطاعم في كوستا برافا. وهنا ارتكبتُ خطئي الثاني. خطأ بشري، هذا صحيح، لكنّني لن أُسامح به نفسي أبداً: ذهبت إلى العشاء برفقة نوريا. آهٍ، كانت ليلة سعيدة ومدوخة! ليلة مليئة بالنجوم والدموع والموسيقى وهي تضيع في البحر! ما زال باستطاعتي أن أرى وجوههم حين رأوني أظهرُ آخذاً بذراع نوريا! كنّا أربعة أزواج، العمدة وزوجها، رئيسة مكتب الثقافة وزوجها، رئيس مكتب السياحة وزوجته وأنا ونوريا، لا شكّ أننا كنّا المفاجأة. في البداية سار كلّ شيء على ما يرام. كان سميّيَ زوج العمدة مشعاً وظريفاً على وجه الخصوص. أيُّ شخص سيّئ الظنّ كان سيقول إن احتمال أن تبقى بيلار في حالة سفر مستمر إلى برشلونة يُحسّن مزاجه. سماعه يتكلّم كان يُبهج، أقول ذلك جدّياً. شخصياً أكره طويلي اللسان، لكن مسألة سميّيَ مختلفة. كرّمنا قبل الطبق الأوّل بتعليقات خبيثة حول بعض المعارف، بل والأصدقاء المشهورين بغبائهم، جعلتنا نموت من الضحك. ليس عبثاً أن يُعْتَبَرَ إنريك خيبِرت في ثِتا مُثقّفاً وابن زمانه. هو في العادة شخص جدّيّ ومنطوٍ، لكن هذه ليلة. ربّما ساهم حضور نوريا في رفع السدّادة عن قنينة العبقري، لا أدري، على كلّ حال أمام جمالها هناك احتمالان: إمّا أن يلزم المرءُ الصمت طوال السهرة وإمّا أن يُبرهن عن كونه ذكيّاً، مرحاً ومتحدّثاً رائعاً. تبيّن لي أنّ بيلار شعرت بالسعادة حين

رأتني أظهر معها. بصرف النظر عن أنّ جمال نوريا كان تنبؤاً ورمزاً لانتصارها، أعرف أنّ سعادتي، سعادة القائم مقامها الوفيّ، كان يجعلها أيضاً سعيدة؛ ليس نكران الجميل من بين عيوبها، وبيلار، أكرّرُ مدينة إليّ بالكثير. مع وصول الطبق الأوّل، حساء بحريات على طريقة ثِتا القديمة، انتقلت الصدارة من زوج العمدة إلى حفيد صاحب المطعم. اقترب هذا من الطاولة ومعه زجاجتي نبيذ من المحصول الخاص، واستغلّ الأمر كي يسأل بيلار كيف كانت إجازتها في ميورقة. كلاهما، بيلار وحفيد صاحب المطعم بعمر واحد وأظنهما ذهبا إلى المدرسة معاً. الحفيد واحد من المنتمين البارزين إلى حزب التجمّع في ثتا، وهذا ليس عقبة كي تكون صداقته مع بيلار صريحة وصادقة. على الأقل حتى وقت قصير كان هناك وضع طبيعي في أمور المنافسة السياسيّة، بعد الفضيحة ضاعت اللباقة، طبعاً وخرجت إلى السطح عند كلّ واحد طبيعة الكلاب الكلِبَة، ومع ذلك كان الشعور العام ما يزال يتحكّم بتعاملنا. لا، عمليّاً كانت ساعاته الأخيرة.

رِمو موران:

الأيّام التي سبقت العثور على الجثة

كانت الأيّام التي سبقت العثور على الجثة دون شكّ غريبة، مطليّة من الداخل والخارج، صامتة، كما لو أنّنا جميعاً عرفنا حتمية الفاجعة. أتذكّر أنّهم عثروا في عامي الثاني في ثِتا على فتاة تكادُ تكون طفلة، مقتولة ومغتصبة في الخلاء. لم يكتشفوا قط القاتل. حدثت في تلك الأيّام موجة من الجرائم، وكلّها نُفِّذَت من قبل شخص واحد، بدأت في تارّغونا وراحت تصعد عبر الشاطئ مخلّفةً خيطاً من الموت (طفلات مقتولات ومغتصبات بهذا الترتيب) حتى وصلت إلى بورت بوو، كما لو أنّ القاتل كان سائحاً في طريق العودة إلى بلده، سائحاً بطيئاً إلى أقصى حدّ فبين الجريمة الأولى والأخيرة دُشّن وخُتِمَ موسم الصيف. كان ذلك صيفاً جيّداً بالنسبة إلى أعمالي. كسبنا مالاً ولم يكن هناك منافسة بعدُ. حلّت الشرطة، كما كان منتظراً بعضَ جرائم القتل: فتية مختلون، مستخدمون مثاليون، سائق شاحنة، ألماني بل، في الحالة الأكثر انتشاراً حدث أنّ القاتل كان شرطيّاً. لكن على الأقل بقيت ثلاث جرائم دون حلّ، بينها جريمة ثِتا. أتذكّرُ أنّني شعرتُ، في اليوم الذي عثروا فيه على

الجثة (أقصد جثة الفتاة وليست الجثة التي عثرتُ عليها أنا)، قبل أن يقول أحدٌ شيئاً، أنّ شيئاً خطيراً وقع في البلدة. كانت الشوارع مُضاءة، مثل الشوارع التي يربط المرء بينها وبين الطفولة أحياناً، ورغم أنّ ذلك الصيف كان حارّاً فالصباح كان رطباً وفيه مظهر شيءٍ صنع توّاً وينتقل إلى البيوت وإلى الطرق المرصوفة، إلى الضجيج البعيد ومع ذلك مُمَيَّز تماماً. هكذا وبالطريقة ذاتها كانت الأيّام الخمسة السابقة على عثوري على الجثة أياماً غير عادية، ليست تتالي أجزاء وساعات، بل تتالي كتلٍ صلدة يسيطر عليها نور واحد مستحوذ: إرادة البقاء مهما كلّف الأمر، دون سماع ولا رؤية ودون إطلاق أدنى أنين. ساهم في هذا دون شكّ غياب نوريا، الذي كان يدفعني إلى حالات من الوهن والترقّب، ثمّ ومن ناحية أخرى كان هناك شبه يقين بأنّني مهما فعلت بالنسبة إليها، محكومٌ بالفشل. وقتها أدركتُ كم صرتُ أحبّها. ومع ذلك فهذه المعرفة لم تساعدني على شيء. بالعكس. أضحك الآن حين أتذكّرُ تلك المساءات، لكنّني وقتذاك لم أكن أضحك؛ والآن أيضاً ضحكتي ليست واضحة جدّاً. كنتُ أستمع إلى أغاني لوكيّو[1]، وكلما كانت الأغاني أكثر حزناً كان أفضل، ولم أكد أخرج من غرفتي أو من المثلث الذي يُشكّل غرفتي، من بار الفندق أو بار منطقة المخيمات، الذي أداره في ذلك الموسم هولندي وإسبانية صديقان لأليكس. لكنّ الشرب في بار بلدة على الشاطئ في أوج الغليان السياحي، ليس شرباً حقيقيّاً. لا يأتي بغير وجع الرأس. كنتُ أشتاق لبارات برشلونة أو مكسيكو، وفي الوقت

---

(١) لقب مغني الروك الإسباني خوسيه ماريّا سانث بلتران (١٩٦٠).

ذاته كنتُ أعرف أنّ تلك المحلات، تلك الحفر النظيفة، قد تبخّرت إلى الأبد. ربما لهذا بحثت في المعسكر مرّتين عن غاسبارين. لم أجده قط. في المرّة الثانية التي كنتُ فيها هناك أعلمتني عاملة الاستقبال، دون أن أطلب منها ذلك، أنّ صديقي كان صبياً غريباً (صبياً!) وأنّه مضى عليه، بحسب حساباتها، أسبوعان دون نوم. هي ذهبت شخصياً أكثر من مرّة لتبحث عنه، كي يساعدها؛ فهم لم يكن عندهم فائض من العمال في النوبة النهارية. لكنّها كانت دائماً تجدُ الخيمة الكندية فارغة. لم تره منذ أن باشرَ العمل إلا ثلاث مرّات فقط وهذا لم يكن طبيعيّاً. هدّأتُها، موضّحاً لها أنّ المكسيكيّ كان شاعراً فأجابت عاملة الاستقبال بأنّ خطيبها البيروي شاعرٌ أيضاً ولم يكن يتصرّف بهذا الشكل. مثل زومبي. لم أبغ أن أعارضها. خاصّة حين قالت وهي تنظر إلى أظافرها، إنّ الشعر لا يُغني عن شيء. عاملة الاستقبال والبيروي يعيشان الآن معاً، ومع أنّني لم أستطِع أن أحضر عرسهما إلا أنّني أرسلتُ لهما طنجرةَ ضغط فائقة الحداثة، نصحتني بها لولا، التي أخرج أحياناً معها كي أشتري بعضَ الأشياء للطفل. في الحقيقة هي ذريعة كي نتكلّم ونتناولَ القهوة بالحليب في وسط خيرونا. في الحقيقة من حسن حظّي أنّني لم أجد غاسبارين، فقصدي كان أنانيّاً إلى أقصى حدّ؛كنتُ أريدُ أن أتكلّم، أن أستفيض، أن أتذكّرَ، إذا أمكن، الشوارعَ الذهبية التي وطئناها معاً ذات مرحلة (ذات مرحلة طيّبة) لكن لم يكن كلّ هذا إلا التفافاً على الحقيقة التي كانت تهمّني: نوريا التي تحوّلت إلى تتالي صور لا تمتّ إليها بصلة. كان من الأنفع بالنسبة لغاياتي الغامضة، والأفضل لي أن أجد هاوي رياضاتٍ، لكنّ الوحيد الذي كنتُ أعرفه كان حلاّقاً، خوسِهْ، ثمّ

إنّه لم يكن يعرف التزلّج الفنّي. وهكذا لم يبقَ أحد أتكلّم معه وبدا لي هذا أفضل، أفضل طريقة لرؤية الأيام تمرُّ. أظنُّ أنّني سبق وقلت ذلك، لكن سأكرّره تحسّباً: لم تكن تلك الجثة الأولى التي أعثر عليها. الأولى كانت في تشيلي، في كونثيبثيون، عاصمة الجنوب. كنتُ أطلّ من نافذة قاعة الرياضة البدنية التي كنّا نبقى مجتمعين فيها نحن المئة ونيّف من السجناء؛ كان الوقت ليلاً، ليلاً مقمراً من تشرين الثاني من عام ١٩٧٣، ورأيت في الفناء بديناً محبوساً في حلقة من رجال التحرّي. الجميع كانوا يضربونه مستخدمين في ذلك أيديهم وأقدامهم وعصيّهم المطاطية. في النهاية لم يعد البدين يصرخ حتى. أخذه أحد العناصر من شعره وتأمّله لحظة. قال آخر، لا شكّ أنّه ميت. قال شرطيّ ثالث إنّه سَمِعَ في مكان ما أنّ قلب البدين لم يكن على ما يرام. أخذوه جرّاً من قدميه. في الجانب الآخر، في القاعة الرياضية، وحدي مع سجينٍ آخر رأينا المشهد، كان البقيّة نائمين متكدّسين فوق بعضهم بعضاً في كلّ مكان، وكان الشخير والتنهّد يُهدّدان بالازدياد حتى يخنقانا. القتيل الثاني عثرت عليه في المكسيك، في ضواحي مدينة في الشمال، في نوغالِس. كنتُ مسافراً مع صديقين، في سيارة أحدهما، وكنّا ذاهبين للاجتماع بفتيات حدث أنّهن لم يأتين. نزلتُ، قبل أن نصلَ، كي أتبول، من المحتمل أنّني ابتعدتُ عن الطريق أكثر من اللازم. كان القتيل بين كومتين من التراب البرتقالي، والجثة ممددة ووجهه إلى الأعلى، يداه متصالبتين، وفي جبينه، فوق الأنف تماماً ثقب دقيق كما لو أنّه عُمل بمخرز، مع أنّ رصاصة عيار ٢٢ هي التي تسبّبت به. سلاحُ لوطيّ، قال أحد الصديقين. الآخر كان غاسبارين، الذي لم يقل شيئاً بعد أن ألقى نظرة

على المقتول. أفكّرُ، أحياناً في الصباحات عندما أتناول فطوري وحدي، أنّه كان بوذي لو أنّني كنتُ رجلَ تحرٍّ. أظنّ أنّني لستُ مُراقباً سيّئاً وعندي قدرة على التحرّي، إضافة إلى كوني هاوي رواياتٍ بوليسية. إذا كان هذا يُفيد في شيء... في الحقيقة لا يُفيد في شيء. أظنّ أنّ هانز هنّي جاهن كتب بعض الكلمات بهذا الخصوص: من يعثر على جسد شخصٍ مقتول فلينهيّاً؛ لأنّ الجثث سوف تسقط عليه مثل المطر.

غاسبار هِردِيا:

راقبت من بعيد كارمن والغرّ على شاطئ البحر

راقبت من بعيد كارمن والغرّ على شاطئ البحر، يُحرّكان أذرعهما، يتقدّمان ويتراجعان، ويعملان إشارات كانت أقرب إلى الكتابة المصرية منها إلى الغضب، بينما المستحمون، الغرباء على المشاجرة بدؤوا العودة إلى فنادقهم، وفجأة بقيا وحدهما، تلفهما ستارة من الرذاذ. بعدها ابتعدت كارمِن بفظاظة عن الضفّة ولم تتأخّر في الدخول في الكورنيش. استدار الغرّ نصفَ استدارة ثمّ جلس بعد لحظةِ تردّدٍ على الرمل. كانت الأمواج في كلّ مرّة أكبر. كان الغرّ من حيث كنتُ يُشبه صخرة داكنة مغطاة بأشنيات ظهرت في الليلة السابقة على الشاطئ. لم أتوقّف طويلاً. على بعد قرابة المئتي متر سمعتُ صوت كارمِن (كان من المحال أن تُرى وسط تدفق السياح المنظّم) تُغني «أنا راعية من أركاديا». ظننتُ مُخطئاً أنّها توقّفت، وأنّني إذا ما تابعت تقدّمي لا محال سأُدركها. لكن لم يحدث ذلك. تبعتُ خلال برهة طويلة كارمن مهتدياً فقط بغنائها عبر الكورنيش البحري حتى وصلتُ إلى المنطقة المكشوفة. وشيئاً فشيئاً راح خطوي يتكيّف مع خطوها، البطيء، والمرتاح، خطو ملكةٍ تسير باتجاه قلعتها. هي الآن تُغنّي «أنا سُمّنة جريحة على أبواب الجحيم»

باستطاعتي أن أرى على الوجوه، على بعضِ وجوه الذين كانوا يأتون من الاتجاه المعاكس، ملامحَ السخرية، الابتساماتِ الجوفاء، بريقاً كان دليلاً على مرور كارمن وطاقتها المريعة. لن أطيل بتفاصيل ملاحقتي. تطوّرت الأحداث بطريقة شبيهة بالمرّة الأولى التي تبعتُ فيها كاريداد. كانت الشوارع مختلفة والإيقاع أكثر تمهّلاً، لكنّ الغاية النهائية ذاتها: البيت الكبير القديم في ضواحي ثِتا. كانت كارمِن سكرانة، لاحظتُ هذا حين غادرنا البلدة عبر الطريق الذي يمضي بجانب البحر. كانت تتوقّف بعد كلّ عشر خطوات، تُخرج زجاجتها من جزدانها ثم وبعد لحظة، الوقت الذي يستغرقه المرء في تناول جرعتين، تعاود مسيرها وهي في كلّ مرّة أكثر ضياعاً وترنّحاً. كان باستطاعتي أن أسمع صوتها للحظات، يأتيني به نسيم المساء الذي كان يعلق على الصخور، وهي ترنّم: «أنا ناقوسٌ في الثلج تاران تراان» بقوّة ووضوح، بما يشبه نشيداً دينيّاً. قبل أن نصل إلى البيت الكبير بقليل تركتُها تتقدّمني وتوقّفتُ كي أفكّر. ما الذي كنتُ أبحث عنه حقيقةً؟ هل كنتُ أريد أن أعثر على كاريداد مهما كلّف الأمر؟ وعلى افتراض أنّني عثرت عليها هل كنتُ مستعدّاً لأن أكلِّمَها؟ فكّرتُ برهة طويلة، بينما السيارات تمرّ دون أي حذر في المنعطفات التي كانت تقود إلى ثِتا أو إلى إي ونهضتُ أخيراً دخلت في الطريق الخاص، دون أن تكون أفكاري أو مشاعري واضحة. فقد كان يشدّني الفضول، الرغبة بأن أرى ثانية حلبة الثلج، واليقين المشوّش بأنّ عليَّ أن أحمي كاريداد والمُغنّية. حين اجتزتُ عتبةَ البيت الكبير نجحت رقصةُ النار في محوِ كلّ أفكاري. صرتُ منذ تلك اللحظة مثلَ مُخَدَّر. بدءاً من هناك راح العالم يتحوّل إلى شيء مختلف، والشكوك والمخاوف السابقة راحت تُحرز بعداً آخر، راحت تصغر أمام وهج

الرهان المختبئ بين تلك الجدران القديمة والقويّة. كان البدين الواقف بجانب الحلبة يمسك في يده دفتر مُلاحظات وريشة. كانت وضعية الصناديق قد اختلفت جدّاً عما كانت عليه في زيارتي الأخيرة، التي اضطررت فيها لأن أنسلّ ملتصقاً بالجدار، باتجاه المولّدة كي أستطيع أن أراقب من موقع مؤاتٍ كلّ الحلبة دون أن أكشف عن نفسي. الطاقة تتعطّل قال البدين دون أن يُحرّك شفتيه تقريباً. انبثقت المتزلّجة مثل نيزكٍ من إحدى زوايا الحلبة كانت خارج مجال الرؤية عندي وعادت لتختفي فوراً. جعلني الثنائيّ أفكّر بِكارمِن والغرّ وهما يتجادلان على الشاطئ، شيء ما في طريقتها الهادئة بالتواجد في البيت المهجور كان يؤاخيهما مع ذلك الثنائي من الشحاذين. هل سمعتني؟ سأل البدين، الطاقة تتعطّل. توقّفت المُتَزَلِّجة على حافّة الحلبة بجانبه، محرّكة وركيها وحوضها فقط. نفّذت دوراً راقصاً كان واضحاً أنه لا علاقة له برقصة النار. مطّ البدين شفتيه باطمئنان. انحنت الراقصة بعد هذه الاستراحة وعاودت تمارينها دون أن تنبس ببنت شفة. عاد البدين ليُركّز انتباهه على دفتره: يا سلام، يا سلام، قال بعد برهة، هل تعلمين كم ستُكلّف الرقصات الفولكلورية هذا العام؟ لا، ولا يهمّني، صاحت المُتَزَلِّجة. حرّك البدين رأسه بضع مرّاتٍ، بعضها بالموافقة وبعضها الآخر بالنفي، وفي الوقت الذي كان يفصل بين كلّ حركةِ موافقة وحركةِ استنكار كان يزمّ شفتيه كما لو أنّه سيصفر أو يُقبّل أحداً على خدّه. لا أدري في هذا الشخص شيء يجعله ظريفاً. بدا مستطيل الحلبة أكثر إضاءة من المرّة الأخيرة كذلك كان صوت المحرّك أو المحرّكات أعلى، كما لو أنّ الآلة وصلت إلى حدّها الأقصى وتُنبّه. يا لها من طريقة غبيّة في تبذير المال، تمتم البدينُ. نظرت إليه الفتاة بطرفِ عينها حين مرّت بجانبه، ثمّ رفعت

وجهها نحو العضائد التي تتدلّى منها الكاشفات وأغمضت عينيها. راح تزلّجها يتدرّج دون تبصّر نحو البطء، لكنّه كان أكثر تعقيداً وثقة. كان يُلاحظ من كلّ دورة أو تغيير أن ذلك التمرين قد تمّ التدرّب عليه مرّاتٍ كثيرة. اتجهت أخيراً إلى وسط الحلبة، حيث نفّذت قفزةً مع عدد من الدورات قبل أن تسقط بمهارة وتتابع تزلّجها. أحسنتِ، همس البدينُ. معرفتي بالمادة كانت تقتصر على مرّة واحدة شاهدت فيها برنامجين في التلفاز حول إجازة على الجليد، لا أكثر، لكن بدا لي ذاك تامّاً. كانت المُتَزَلّجة ما تزال مغمضةَ العينين وحاولت أن تُكَرِّرها. لكن ما كان يجب أن يكون هيئة رشيقة، حرف تاء لاتيني قائم على الساق اليمنى بينما بقيّة الجسد في خطّ أفقيّ يقطع الحلبة إلى نصفين متساويين تحوّل إلى رجفة في الساقين والذراعين انتهت بسقوط المُتَزَلّجة على ظهرها فوق الجليد. عندها تماماً رأيتُ على الطرف الآخر طيف كاريداد، متخفّية مثلي بين الصناديق. هل تأذّيت؟ قام البدين بحركة من سيغزو الحلبة، لكنّه تراجع كابحاً نفسه. لا، قالت الفتاة دون أن تُحاول النهوض وهي ممدّدة على شكل صليب؛ ساقاها متباعدتان قليلاً وشعرها منتشر على شكل وسادة بين رأسها وطبقة الجليد، لا يُلاحظ وجود علامات ألم أو انزعاجٍ من الدور الذي أساءت تنفيذه. لكنّ انتباهي توزّع ما بين المُتَزَلّجة وطيف كاريداد على الجانب الآخر، والذي بدا لي للحظاتٍ، كي يزداد رعبي، طيفَ جرذ ضامر ومتوغّد. لماذا لا تنهضين؟ هل تشعرين أنّك بخير؟ كان البدين على حافة الحلبة وهو فوق رؤوس أصابعه قد ترك كلّ قلقه يظهر على شكل ومضات. حقيقة أنا بخير، عليك ألّا تكثر من الكلام، لا أستطيع أن أُركّز، قالت المُتَزَلّجة من على الجليد. أتكلّم؟ بالكاد فتحت فمي، قال البدين. وهذه الأوراق التي رحتَ تقرؤها بصوت

عال؟، قالت المُتزَلّجة. هي جزء من عملي، يا نوريا، لا تكوني حسّاسة إلى هذا الحدّ، نشجَ البدين، ثمّ إنّني لم أكن أقرأ بصوت عالٍ. بلى فعلت. ربّما قلتُ لكِ شيئين، بقاؤك ممدّدة هناك يمكن أن يضرّ بظهرك، قال البدين. لماذا؟ لأنّ هذا بارد جدّاً، يا امرأة. تعال إلى هنا وساعدني على النهوض، قالت المُتزَلّجة. ماذا؟ رسم البدين ابتسامة ندم. بقيت الفتاة تنتظر صامتة. هل تريدينني أن أساعِدَك؟ ألا تشعرين أنك بخير؟ هل تأذّيت، يا نوريا؟ ترنّح جسد البدين بشكل خطير على حافة الحلبة. شيء ما فيه كان يستلهم رقّاص الساعة، جوّ آلية عمل الساعة مقلق. على الطرف الآخر كان رأس كاريداد يبرز كاملاً من فوق الصناديق. تعال واستلقِ بجانبي، ليس بارداً كثيراً، قالت المُتزَلّجة. كيف لا يكون بارداً! أُقسم لك، قالت المُتزَلّجة. استدار البدين. اختفى رأس كاريداد آنيّاً. تراهما اكتشفاها؟ هيّا، دعك من اللعب وتابعي تدرّبك، قال البدين بعد أن فحص الظلمة. لم تردّ المُتزَلّجة عليه، عاد شعرُ فتاةِ السكين الواقفُ ليظهر خلف الصناديق. فكّرتُ أنّ من غير المحتمل أن يكون البدين قد رآها، على الرغم من أنّه حين استدار قبل ذلك بتلك الطريقة كان ولا شكّ يأمل أن يعثر على شيء في الخلف. تعال إلى هنا، قالت المُتزَلّجة، لا تخفْ. تعالَي أنتِ، خرجت كلمتا البدين خيطاً نحيلاً، ابتسمت المُتزَلّجة من دون أن تتوقّف عن النظر إلى السقف، ابتسامة واسعة وقالت وهي تهجّي الكلمة: جبان. تنهّد البدينُ حانقاً وقام بحركة يائسة غير موجّهة لأحد على وجه التحديد، لكنّها خرجت من قلبه، وسار حول الكرسي وظهره إلى المُتزَلّجة، ناظراً خلسة إلى صفوف الصناديق. كم الساعة؟ نظر البدينُ إلى الساعة وقال شيئاً لم أفهمه. ما كان ليحدث لكِ شيء، ما عدا سقطة أو سقطتين، أنت مبالغ

جدّاً، قالت المُتَزَلّجة. ربّما، كان في صوت البدين استياء وودّ في آن معاً، أنتِ أيضاً مبالِغة. منذ صغري، أكّدت المُتَزَلّجة. انظري، نهض البدينُ، سعيداً، أنا لستُ مدرّبك البدني، لكنّني أعلم أنَّ استلقاءك على الجليد بعد التدرّب يضرّ بك. أنت متعرّقة وتبردين. أعرف هذا، أنا بلهاء جدّاً، قالت المُتَزَلّجة. أقوله لك بجدّ، يا نوريا، قال البدينُ. بقيا لحظة صامتين يفحص كلّ منهما الآخر، الفتاة وسط الحلبة، والبدينُ على حافّة الإسمنت، يترنّح فوق رؤوس أصابعه ويداه في جيبيه. فجأة راحت المُتَزَلّجة تضحك. أحبّ أن أراكِ تتزلّجين، قال بين رعشات الغبطة. الغبطة الباردة والمباغتة مثل الجليد. سيكون مضحكاً جدّاً أن أقع، أجاب البدينُ. هذا ما كنتُ أفكّرُ به، أنت لكِ السقطات وأنا لي أن أُجبركَ على أن تتزلّجي ثماني ساعاتٍ يوميّاً، حتى تبقى نائماً على الجليد. لا أعتقد أنّك بهذه القسوة، قال البدينُ. ما نوع الملابس التي يمكن أن ترتديها؟ آه، ثوب أزرق مكشكش وفعلاً سأكون قاسية، أنت لا تعرفني. وافق البدينُ متظاهراً بالغضب وكان يُطلقُ من حين لآخر قهقهة تخرجُ كما لو أنّها مدفوعة بضغط من أعمق أعماقه. سيأتي يوم أتزلّج فيه... لكِ، همسَ. أنتَ غير قادر على ذلك، قالت المُتَزَلّجة. أعدُكِ، يا نوريا، حرّك البدينُ يدَه اليسرى حركة غريبة، كما لو أنّه يفتحُ باباً أو أنّه يحلم. كانت الفتاةُ تتأمّله جالسةً على الجليد، الآن دون أن تضحك، مشدودة ومترقّبة إعلاناً، لكنّ البدينَ لم يقُل شيئاً. فجأة فواق. ما هذا؟ سأل البدينُ وهو ينظر إلى كلّ الجهات ما عدا الحلبة. اللعنة عندي فواق. ها أنت ترين، لقد حذّرتُك، لماذا لا تنهضين؟ من كثرة ما ضحكتُ، أنت السبب، قالت المُتَزَلّجة. تعالي أعطيك كأسَ ماء فيذهب عنك، قال البدينُ. هذا لا. هذا لا يجدي معي، ستجعلني أشرب

بالعكس، ألبس كذلك. نظر إليها البدينُ بإعجاب. تلك كانت حيلة جدّتي، قالت المُتَزَلِّجة، وذات مرّة كدتُ أكسر أسناني. لزمت المُتَزَلِّجة والبدين الصمتَ في انتظار الفواق الثاني؛ حتى رقصة النار بدا أنّه خفضت صوتها. على الطرف الآخر عنق كاريداد ارتفع فوق الصناديق وصار ممكناً الآن أن يُرى جذعها كاملاً وإن كان بصعوبة. كانت أكثر نحولاً مما كانت في المخيّم، وإن كانت الظلال والمكان المليء بالزوايا التي كانت تؤطرها تُساهم في المبالغة بنحولها. سمع فواقُ المُتَزَلِّجة في كلّ الأرجاء. حسن، أنا دائماً يجديمعي، قال البدينُ. المسألة أنّك تعتنين بنفسك كثيراً، وتتخذ حيطتك كيلا تعضَ الكأسَ وتكسر سنّاً. فقط يجب وضع الشفتين على حافّة الكأس، هذا كلّ شيء. هل تريد أن ترى ما هي طريقتي؟ بقي البدين متجمّداً، كما لو أنّه رأى أسداً وسطَ الحلبة، حاول بعدها أن يقول لا برأسه، لكنّه تأخّر كثيراً. فقد كانت المُتَزَلِّجة تُطقطقُ بفردتي حذاء تزلّجها وبدأت تنسابُ على الجليد حتى وصلت إلى حيث البدين، الذي كان ينتظرها مرتجفاً وجاهزاً، مع منشفة هائلة. أنت باردة، قال البدينُ، دعيني أفركك قليلاً. أطفئ المسجلة، قالت المُتَزَلِّجة. ترك البدينُ المنشفة معلّقة على ظهر الفتاة ونفّذ الأمر فوراً.

إريك زسكيّس:

من المؤسف أننا ذهبنا بعد العشاء إلى مرقص

من المؤسف أننا ذهبنا بعد العشاء إلى مرقص بأمرٍ من بيلار، التي شعرت فجأة برغبة بالرقص مع زوجها، الأمر الذي لم يحدث منذ زمن طويل، وبدا للجميع، باستثنائي، شيئاً رائعاً. كان عليّ أن آخذ نوريا وأختفي في الحال، لكنني فكّرتُ أنها تستحق ليلةً تروح فيها عن نفسها. طبعاً خطئي أنني لم أتوقّع أن أحداً سيطرح موضوع التزلّج. كان وجود نوريا يُحتِّم ذلك وهكذا فإنّ اللحظة التي كنتُ أخاف منها جاءت بينما نحن نتأمّل من إحدى الطاولات كيف كان الناس يهرجون في حلبة الرقص، دون أن نجرؤ بعد على تقليدهم. رئيس المكتب الثقافي أو زوجته، ما همّ، أطلقت النار سائلةً عمّا إذا كان هناك مباراة في المدى القريب. جاء الجواب البريء بالتأكيد. مبدئياً اقتصرت على تصريحات ونصائح حول سرادق ثِتا: فليبق عالياً، ثمّ ونظراً لعدم وجود موضوع أفضل، كما أعتقد، تمّ التطرّق لموضوع قسوة وحساسيّة التزلّج (فراشة من فولاذ، قال رئيس مكتب السياحة راضياً جدّاً عن المجاز) وهنا لم يكن أمام نوريا من وسيلة غير أن تُعطيهم الحقّ وتُؤكّد لهم بكلّ طاقتها سذاجة (مسكينة نوريا) أنّها تتدرّب خمسَ ساعاتٍ كحدٍّ أدنى يوميّاً. في

برشلونة؟ سأل سميّي إنريك خيبِرت. لا، قالت نوريا بقطعيّةِ لوحٍ حجري حين يوضع على قبر. قبري. من حسن الحظّ أنّني سريع ردّ الفعل فأخرجتها للرقص فوراً. التفتُّ حين ابتعدنا نحو حلبة الرقص إلى الوراء ورأيتُ بيلار تتأمّلني بثبات. كان البقيّة يضحكون ويتكلّمون لكنّ بيلار الغافلة والجاهلة أحياناً، لكنّها ليست غبيّة أبداً، لم ترفع عينيها الداكنتين والسابرتين عنّي. لو كان الأمر يتعلّق بي لما عدتُ أبداً إلى تلك الطاولة. كنتُ أتصبّب عرقاً، ليس بسبب الرقص، الذي لم أتقنه قط جيداً، لكنّني غصت في أسراره دون تحفّظ، ربّما، ربّما كي أهرب، ولو آنياً، من الكارثة، التي كنتُ أراها واضحة، ربّما كي أتمتع بقربي من نوريا لآخر مرّة. الحقيقة أنّني لم أسئ فعل ذلك. تلاشت كلّ مخاوفي القديمة في ضجّة حلبة الرقص وأعتقد أنّني مستعدّ لأن أكشف سرّي. هو هذا: كي ترقص جيّداً عليك أن تنسى جسدك ذاته. ببساطة لا وجود له. جسمي الذي فيه بضعة كيلوغرامات زائدة والغريب أنه على الجمالية الدارجة، كان يهتزُّ، يقفز، يرفع ساقاً، ثمّ أخرى، ثمّ ساقاً وذراعاً، بعدها يقفز أو يدور نصف دورة، كل ذلك دون أن تكون لي علاقة به، بل على العكس، فأناي الحقيقيّة كانت في تلك اللحظة تقبع خلف كرتي عينيّ تُقدّر الوضع، تجمع نقاط المع والضد، مُحاولة أن تقرأ بالتخاطر أفكار بيلار (أعترف أنّني كنتُ عصبيّاً قليلاً) أقيس بعض الأسئلة المحتملة وأعدّ أفضل الأجوبة. حين عدنا إلى الطاولة، كنتُ مبلّلاً بالعرق تماماً. ظنّت زوجتا رئيسي المكتبين أن من واجبهما أن تُعلّقا بشكل لاذع على هوايتي المجهولة بالرقص، التي لخصتاها قائلتين إنّني كنتُ أملكها وأسكتُ عنها. تقبّلت شاكراً المدائح والسخريات، فهي كانت تمنحني بضع لحظات إضافية. على العكس من بيلار التي لم

تُظهر أنّها مهزارة أبداً؛ كان زوجها قبل قليل قد نهض وذهب باتجاه مغاسل الرجال ولم يعد بعد. توجّه رئيسا المكتبين وزوجتاهما إلى الحلبة، متبعين مثالي، ولم يبقَ على الطاولة، في شبه ظلمة طاولتنا المريع غيرنا، أنا وبيلار ونوريا. أتذكّرُ أنّهم عزفوا موسيقى بطيئة. هل كانت بولِرو؟ وأنّ كلّ أولئك الذين كانوا يقفزون قبل لحظات بين الأضواء أرخوا أكتافهم الخمولة وتعانقوا. حمدت اللهَ، وسط قنوطي، أنّنا لم نكن نرقص، إذ كنتُ سأشعر بانزعاج لو وضعت رأسها على صدري (كما تفعل جميع الفتيات الآن بما فيهنّ زوجتا رئيسي المكتبين) اللتان يفوح منهما نتن العرق. هذا جانب من طبيعتي، حاولتُ دائماً أن أُعطي صورة حسنة عنّي. أعرف الآن أنّ هناك من سيقول إنّ جواربي أو فمي كانت أحياناً كريهة الرائحة. كذب. فقد كنتُ دائماً دقيقاً بل ومهووساً في أمور نظافتي. وكنتُ هكذا منذ مراهقتي. لكن لنعد إلى ما كنتُ بصدده: كنّا هناك ثلاثتنا، وعيوننا على الراقصين كذريعة جيدة كي لا ينظر بعضنا إلى بعض. زوج العمدة لم يظهر. إذا ما بالغتُ أستطيع أن أقول إنّني كنتُ أسمع تنفُّسَ بيلار مضطرباً جدّاً، كتنفُّسي، لكنَّ هذا ليس صحيحاً، فموسيقى العمق كانت، كما كلّ المراقص، قويّة. حين قرّرتُ أن أنظر إلى بيلار أخافني وجهُها: كان كما لو أنّ جمجمتَها قد امتصّت لحمه، تقاسيمه، بنوع من الثقب الأسود في الوجه، لم يبقَ فيه غير أثر حزم في النظرة وتجاعيد الجبين. في النهاية انتبهتُ إلى أنّني سأقع في مشاكل. نوريا، أنا مستعدّ لأن أُقسِمَ، في أيّ مكانٍ، إنّه لم يكن عندها أدنى فكرة عمّا كان يحدث. مُحيّاها، وجهها التام والجميل، لم يكن يعكس غير الاختلاج الذي أحدثته جولة الرقصات التي قامت بها توّاً. ظهرت هيئة إنريك خيبِرت النبيلة والطويلة بين الظلال. خذها

لترقص معك، أمرت بيلار زوجَها، لا شكّ أنها كانت ذريعة كي نبقى لوحدنا. لم تُبدِ نوريا أيَّ تحفُّظ، ورأيتُهما من كرسيَّيَ، أولاً نوريا، وثانياً سميّيَ المفرط في رشاقته، يقتربان من الحلبة. كرة من حرارة استقرّت في معدتي. لم تكن اللحظة المواتية كي أشعر بالغيرة ومع ذلك شعرتُ بها، جمحت مُخيلتي: كنتُ أرى نوريا وزوج العمدة عاريين، يداعب بعضهما بعضاً، رأيت الجميع عراة يمارسون الحبّ، كما لو أنهم بعد هجوم ذرّي ولن يستطيعوا أن يُغادروا المرقصَ أبداً، وما من شيء يوقف التهافت والغرائز الدنيا، وقد تحوّلوا جميعاً إلى حيوانات مثارة، باستثنائي أنا وبيلار، الوحيدان الباردان، الوحيدان الرصينان وسط الطقس الماجن. فجأة انتبهتُ فزعاً إلى أنّ بيلار كانت تُكَلّمني. أصغيتُ إليها. أين تقع حلبة الجليد؟ سألت. عبثاً حاولت تغيير الموضوع، حتى إنّني ذكرت عملها المستقبلي كنائبة، والتغيرات التي ستجلبها لها، لكن لا جدوى، فقد بقيت بيلار تصرُّ على موقع حلبة الجليد، كما لو أنّ في هذا بعض الأهميّة. ما همّ، قلتُ، عليها أن تتدرّب في مكانٍ ما، أليس صحيحاً؟. أطلقت بيلار شتيمَتَيْن جافتين ومن العيار الثقيل، وشعرتُ للحظة بشفتيها على أذني تنفثان فيضاً من الحرارة من خلال طبقة الطلاء. اللعنة، أين تقع؟ في قصر بِنفينغوت، اعتقدت أنّكِ كنتِ تعرفين. انغرز تحت الطاولة كعب حذاء بيلار في مشط قدمي. كان عليّ أن أظهر ملامح الألم، لأنّ بيلار عادت تصرخ في أذني تنويعة جديدة من الألفاظ النابية. لا تتجاوزي حدّك، همستُ. من حسن الحظّ أنّ الآخرينِ عادوا في تلك اللحظة. انتبه الجميع، فوجه بيلار لم يكن يترك مجالاً للشك، بأنّ شيئاً يُعكّر صفوَ عِمدتنا، لكنّ أحداً لم يبغِ أن يُواجه الحدث. على العكس، بدوا أكثر سعادة مما كانوا

في البداية وخاصّة زوج العمدة، الذي لم يتوقّف عن المزاح مع ولأجل نوريا، بينما رئيسا المكتبين وزوجتاهما كانوا على وشك أن يقعوا في سكرة البطولة. بمجرّد تذكّري تلك اللحظات أعودُ لأتصبّب عرقاً وأشعر بأنّني مسحوق. من المفروغ منه أنّني حافظت على رأسي مرفوعاً وعلى متابعة بعض الأحاديث التي كانت تدور على طاولتنا (إنريك ونوريا وزوجة رئيس مكتب الثقافة من جهة ورئيسا مكتَبَي الثقافة والسياحة وزوجتاهما من جهة أخرى) لكن كان من المحال عليَّ أن أفهم شيئاً: كلّ شيء كان فوضى ضحكات وكؤوس شبه فارغة ومختلطة وأصوات غير جديرة بأن تُسمع. بيلار التي كانت تُشاركُ ظاهرياً في دردشة المجموعة نهضت فجأةً، ثابتة وقاسية مثل شجرة، وأمرت بحركة أكثر مما بكلمة، وإن كنت أفترض أنّها قالت شيئاً، أن نذهب لنرقُص. من حسن حظّي أنّ سلسلة الرقصات البطيئة كانت ما تزال مستمرّة، وأقول من حسن حظّي لأنّني أولاً كنتُ متعباً حقّاً وثانياً لأنّه لم يكن يهمّني نوع الموسيقى، على كلّ الأحوال ستأخذني بيلار بين ذراعيها كي نستطيع أن نتكلّم. الحقيقة أن إعجابي ومحبّتي لِبيلار كانا في تلك اللحظة سليمين، كانت جلادتها، قدرتها على ألّا تنحني وعنادها، الجديرتان بالإطراء فضيلتيها الأساسيتين مئة بالمئة. على كلّ الأحوال وعلى الرغم من التقدير (المتبادل، أنا واثق من ذلك) كانت تلك الرقصة هي الأفظع في حياتي. كانت بيلار بابتسامتها الملتوية، التي لم أعرفها عندها، تحملني إلى حيث تشاء ومع أنّني أرتبك وكان من الصعب عليَّ أن أتحرّك، إلّا أنّني كنتُ في النهاية أفعل ما كانت تُريد. لا أدري ما إذا رأتنا نوريا أم لا، لم أجرؤ قط على سؤالها، لا بدّ أنّ المشهد، آوِ!، كان مؤسفاً. كان استجواب بيلار يتركّز بالتحديد على نقطة واحدة: من كان يعرف بوجود

حلبة التزلّج غيرنا؛ وليس متى أشدتُها، ولا لماذا، ولا الميزانية، بل من كان يشارك في سرّ وجودها. أكّدتُ لها أنّ كلّ الذين رأوا الحلبة (وهم في الواقع قلّة قليلة جداً)، عندهم فكرة جزئية عما كان يعنيه مشروعي في كلّيته. ثمّ قلتُ لها إنّني كنتُ أفكّر بإطلاق الفكرةِ في أوج أيلول أو تشرين الأوّل، ما إن ينتهي موسم الصيف. يمكن للحلبة أنت تُفتح للجمهور في كانون الثاني، بالتصادف مع أعياد الميلاد، للأطفال بنصف السعر وستُدَشّن بكلّ أبّهة. أخيراً أشرتُ إلى مجموعة من المخارج والتبريرات المتنوّعة جدّاً، لكن ما من شيء نجح في تهدئتها. فيما بعد، حين تودّعنا جميعاً، اقتربت بيلار لتمنحني قبلة على خدّي، كقبلة يهوذا للمسيح، فكّرتُ وقتها، وهمستْ: أنت على وشك أن تُدمّرني، يا ابن العاهرة. على كلّ الأحوال بدت لي أهدأ قليلاً.

رِمو موران:

العجوز زميلة لك

العجوز زميلة لك، قالت لولا في المساء الذي التقينا فيه في مكتبها. تلك كانت الإشارة. لكن قبلها عند الظهيرة، كنت قد تلقيت بطاقة بريدية موقّعة من ابني من مكانٍ ما من بيلوبونيسو. طبعاً لولا هي من كتبت البطاقة، لأسباب من بينها أنّ ابني لم يكن يعرف الكتابة. هي أشياء تفعلها زوجتي السابقة، ظاهرياً بشكل مفرط، كأن تتصنع صوتاً منغولياً، أو صوت طفلة شريرة جدّاً، أي إن قدميها ضفدعان وتتكلّم بالتالي محرّكة أصابع قدمها: مرحباً، أنا ضفدعة صغيرة، كيف حالك؟ الحقيقة الآن وأنا أُفكّر هي أنّ غالبية النساء اللواتي تعرّفتُ عليهنّ كنّ يملكن القدرة على تحويل بعض أعضاء أجسادهنّ (كاليدين، القدمين، الركبتين، السرر، إلخ). إلى ضفادع صغيرة، فيلة صغيرة، صيصان تصوص وتنقر بعدها، أفاعٍ مغرورة، سلطعونات ضائعة عندما لا تتحوّل تماماً إلى أسودٍ، خفافيش، دلافين، نسور مومياءات، حُذْبِ نوتردام. جميعهن باستثناء نوريا، التي كانت أصابعها دائماً أصابعَ وركبتاها دائماً ركبتين. ربّما كانت مسألة عدم وجود وقت وثقة، وربّما كانت مسألة

تتعلّق بالمزاج، المسألة هي أنّ نوريا، كانت، بخلاف الأخريات، في كلّ الظروف نوريا، صنعت كتلةً مصمتة. لم تكن فقط لا تتحوّل إلى فأر، بل كان يصعب أحياناً أن يراها المرء متحوّلة إلى ما كان يظنّ أنّها هي، نوريا مارتي، مُتَزَلِّجة أولمبية، أجمل فتاة في ثِتا. على كلٍّ استلمتُ بطاقة بريدية لحيوانٍ مثل القضيب المنتصب، وابني يقول أشياء ظريفة جدّاً ونقدية قليلاً بهذا الخصوص. كان يُلاحَظ أنّها لولا وأنّها تمضي وقتاً سعيداً. أسعدني أنّها تتذكّرني. هتفوا لي بعد أربع ساعات، وكان الصوت الذي سمعته على الطرف الآخر من الخط صوت لولا. ظننتُ في البداية أنّها تهتف من اليونان وعلى الفور تصوّرتُ أنَّ شيئاً ما حدث للطفل. لكن لا، لم يقع أيّ حادث كما لم تكن تهتف من اليونان. كانوا قد عادوا منذ أسبوع تقريباً، رحلة رائعة، كان الطفل مسروراً مع إنياكي، محزن أنّها كانت خمسة عشر يوماً فقط. كانت تهتف لأنّها بحاجة لأن تتكلّم معي، أن تطلب منّي معروفاً، ليس مستعجلاً، لكنّه غريب فعلاً، شدّدت على هذه الكلمة، الحقيقة ما كانت لتفعل ذلك لولا وجود بقيّة رفاقها في إجازة، اعتذرتْ، لكن ونظراً لأنّها وحدها كانت في مكتب الخدمات الاجتماعية مع مربية شابّة تمّ التعاقد معها حديثاً، حسن لم تكن تعرف ماذا ستفعل، فقد خطر لها أن تهتف لي. وعمّا كانت تريد أن تكلّمني، فقد فضّلتْ ألا تقوله بالهاتف. سألتُها قبل أن تُغلق الهاتف عمّا إذا لم تملك وقتاً كي تهتف لي قبل ذلك.. لماذا؟، سألتْ. كي أرى الطفل، أجبتُها.. الطفل في إجازة تدريب. عرفت من نبرة صوتها أنّها كانت عصبيّة أو زعلانة. توجّهتُ في الساعة السابعة والنصف إلى مكتب الخدمات الاجتماعية، الواقع في الحيّ العمّالي

وقفاه إلى البحر، المنعزل تماماً عن أيّ أبنية تابعة لمجلس المدينة. كان المكتب في الحقيقة بيتاً صغيرَ الأبعاد، بُنِيَ في الستينات، كان مظهره يوحي على الأقل بالإهمال. لولا نفسها فتحت لي الباب، بعد انتظار بدا لي مفرطاً وقادتني إلى غرفة في عمق البيت تُطلّ على فناء إسمنتيّ داخليّ مليء بالمغاسل. في المغاسل، التي لم يعد أحدٌ يستخدمها، توجد أصص فيها نباتات. كانت أنوار الممرّ والغرف مُطفأة. لم أرَ من المرشدة الأخرى ما يدل على وجودها، ولذلك ظننتُ أنّنا كنّا لوحدنا. كانت تعلو لولا في مكتبها ملامحُ التعب والسعادة. ظننتُ لبرهة أنّه ستكون لي ذات الملامح لولا أنّنا انفصلنا. فجأة شعرتُ وأنا متعب وسعيد برغبة بمداعبتها وممارسة الحبّ معها. وبدل أن أفعل ذلك جلستُ واستعددت لأن أستمع إلى ما كانت ستقوله لي. تكلّمنا أوّلاً عن الرحلة إلى اليونان وعن الطفل. ثمّ وبعد أن ضحكنا كفاية، كما نفعل عادةً، تكلّمتْ عن العجوز. كانت القصّة هي التالية تماماً كما روتها لي لولا: متسوّلة مستفيدة من نوع من الخدمات غير المنتظمة، ليس لها عنوان ثابت، وإن كانت تقيم بشكل متفرق في ثِنا جاءت مساء اليوم السابق وعندها مشكلة. كانت العجوز تعيشُ مع فتاة، كانت الفتاة مريضة ولا تريدُ أن تذهب إلى المشفى، عملياً لم تكن تعرف أنّ العجوز كانت تُحاول أن تتوسّط لحلّ مشكلتها، هي أيضاً لم تكن من ثِنا، كانت قد جاءت مع الصيف، ربّما من برشلونة، ولم تكن متفرّغة للتسوّل، على الرغم من أنّها كانت تُرافق العجوزَ أحياناً في التصعلك في الشوارع. كانت الفتاة بحسب العجوز تنزف يومياً من فمها وأنفها، إضافة إلى أنّها تأكل مثل عصفور صغير؛ إذا ما استمرّت على هذه الحال لا شكّ

ستموتُ. كانت العجوز ترى أنّه إذا ذهبت لولا لتبحث عن الفتاة وتأخذها إلى المشفى فإنّ هذه لن تُقاوم. كانت بالنسبة لهذه النقطة دقيقة: إمّا أن تذهب لولا للبحث عنها أو أن ترسل أحداً تثق به كفاية وإلا فإنّ الفتاة لن تخرج من الخرائب. وجدت صعوبة في فهم أنّها كانت تقصد بالخرائب قصرَ بِنفينغوت. بدءاً من تلك اللحظة بدأتْ المسألة تهمّني. كانت العجوز والفتاة تعيشان هناك منذ بداية الموسم. بكلمات المتسوّلة: «كلتاهما كانتا مستعدتين لمواجهة أيّ شيء»، بل إنّ الفتاة تحمل سكّيناً، سكينَ مطبخ كبيراً، لذلك فحذار من الوشاية. طبعاً، لم تسألها لولا ماذا تعني بذلك، من الذي كانت تخاف أن يُوشى بها إليه. كانت العجوز متقلّبة المزاج، وضّحت لولا. أخيراً قبلت لولا أن تذهب واتفقتا على يومٍ وساعة الزيارة. حين رُتب كلّ شيء نطّت العجوز نطّتين من الفرح (الأمر الذي لا يُصدّق بالنسبة إلى عمرها) وضحكت إلى حدّ أنّ لولا خافت عليها من أن تُصاب بنوبة قلبية أو تختنق هناك بالذات. كانت كما لو أنّها فازت بجائزة يانصيب العميان. اكتشفت لولا بعدها أنّها وبسبب السرعة لم تنتبه إلى أنّ لديها التزامات لا تؤجّل وتجعل من المستحيل عليها أن تذهب إلى قصرِ بِنفينغوت، لكنّها أيضاً لم تكن تريد أن تشعر العجوز بأنّها مؤجّلة. لماذا تهمّك إلى هذا الحدّ؟ لا أدري، قالت لولا، إنّها عجوز فاتنة، تجلب لي حسن الحظّ، تعرّفتُ عليها بعد أن حملتُ. آه، حسن، قلتُ. امتلأت عيناي بالدموع بشكل مبهم وشعرت بنفسي وحيداً وضائعاً. إذا أردتِ ذهبت أنا، قلتُ مثل محكوم بالإعدام يودّع عائلته. هذا ما أردتُ أن أطلبه منك، قالت لولا. كانت المسألة بسيطة. عليّ أن أكون في قصرِ

بنفينغوت ما بين العاشرة والحادية عشرة صباحاً وأحملها إلى المشفى. ما تبقى تأخذه لولا على عاتقها، فهي ستكون قد فرغت من أعمالها وتنتظرنا في الباب. كان هذا هو كلّ شيء. ألن تكون فتاة السكين خطيرة؟ سألتُ، بغير جدّية وبرغبة بالمزاح وإطالة لقائنا. لا، قالت لولا، بحسب ما صوّروها يجب أن تكون واهنة جدّاً. وماذا يعني أن تذهبي أنت أو أحد تثقين به؟ ترهات العجوز، قالت لولا، شخصية لا بدّ ستهمّك وهي من ناحية أخرى زميلة لك. زميلة لي؟ بلى، قالت لولا، كانت العجوز في أيام صباها فتانة.


محمد خطاب

غاسبار هِرديا:

قرّرتُ، بعد أن ذهب البدين والمُتَزَلِّجَة

قرّرتُ بعد أن ذهب البدين والمُتَزَلِّجة أن أبقى حتى يطلع الفجر. لكن ليس في الداخل ولا في قاعة حلبة الجليد، بل في الحدائق التي كانت تُحيط بالبيتِ الكبير. عثرت سريعاً وبخطوٍ حذر ورصين على مكان مناسب تحت شجرة وارفة وساحرة حيث تهيّأتُ لأن أنتظر أضواء النهار الأولى. من نافلة القول إنّني لم أكن أنوي أن أنام، فأنا معتاد على العمل الليلي، وإن كان يغلبني النوم في لحظة ما دون أن أنتبه. حين فتحتُ عينيّ كانت ساقاي منمّلتين ولون السماء بنفسجياً مع بعض المسحات البرتقالية، تبدو كأنها آثار مرور طائرة نفّاثة. كان المكان الذي كنتُ فيه مقابل الباب الرئيسي تماماً، ولذلك قررت أن أبحث عن مكان لا يلفت الانتباه. كان بي أمل مبهم بأن أرى كاريداد تخرج وأتكلّم معها. أتذكّر أنّني بينما كنتُ أبحث عن مكان أتابع فيه الانتظار راح قلبي يدقّ بسرعة زائدة. كنتُ فيما عدا ذلك مطمئناً، بعد ساعات قليلة حين راح لونُ السماء يتحوّل إلى أزرق خفيف وراحت تقترب في الأفق بعض الغيوم العملاقة والداكنة، رأيت كارمن تخرج من الباب الرئيسي. كان للمغنّية، بجزدانها المتدلي من ذراعها وشعرها المسرّح إلى الخلف

باستثناء خصلة كانت تُغطي جزءاً من جبينها وحاجبها الأيسر، اتزانُ سيّدة بيت ذاهبة إلى السوق. توقّفتْ في رواق الباب شديدةَ الاعتداد بنفسها ونظرت إلى الجانبين كليهما قبل أن تهبط بثقة الدرجات. ما إن أصبحتْ في الحديقة حتى توقّفتْ من جديد ووجّهتْ نظرتها التي تشبه نظرة النسر إلى المكان الذي كنتُ فيه. أشارت بحركة من يدها كي أتبعها. خرجتُ من مخبئي وسلكنا الطريق الخاص، بخطوات بطيئة، كما لو أنّنا نستمتع بالصباح. لم تكن كارمِن مفاجأة من عثورها عليّ، بالعكس، استغربت أنّني لم أظهر من قبل. كانت تعتبر أنّني حكماً عاشق «شرعيّ» لكاريداد، وأنّ هذه عاجلاً أو آجلاً ستتجاوب معي و«سنعيش جميعاً سعداء». بينما رحنا نصعد المنحدر ونخلّف شيئاً فشيئاً البيتَ الكبيرَ وراءنا، قارنت رطوبة الصباح بالصحّة الحديدية الضروريّة كي يعيش المرء من دون حبّ (بل وحتى بالحب) في هذه الأزمنة الصعبة. ومرّة أخرى تكلّمت عن البيت الذي ستؤمِنه لها البلدية، ودعتني بشكل مفاجئ كي أعيش معها: سنحتاجُ إلى حارس، قالت وسط ضحكاتها. إلى رجل يرعانا. أنا أيضاً ضحكتُ. ميّزتُ على أشجار الصنوبر المتشبثة في الجرف طيوراً بدت لي هائلة وبدا لي أيضاً أنّها كانت تضحك. حين ظهرت أمامنا ثِتا بعد منعطف في الطريق، انطفأ بغتة مزاجها الرائق. راحت كي تتجاوزه تتكلّم عن كاريداد، قليلة هي الأشياء التي كانت تعرفها عنها، لكنها لا شكّ تعرفُ أكثر منّي، ولذلك أصغيت إليها بانتباه شديد. تكلّمت عن الطرافة والوداعة والمنطق والدهاء وهي تلوك صيحات تعجّب وتتخذ صوتاً هو في كلّ مرّة أكثر حدّةً. ركّزت بعدها على الجانب الوحيد، الذي بدا أنّه يَشغلُها حقيقة: نقص الشهية. فكاريداد ببساطة ما عادتْ تأكلُ، فهي منذ عرفتها، أي منذ أيّام المخيّمِ،

اقتصرت في وجباتها على بعض الحلوى وعلى اللبن المشنون بطعم الفريز. كانت تتناول أحياناً فنجان قهوة بالحليب أو بيرة، خاصّة حين كانت تُرافق كارمن في العمل، لكنّ هذا كان استثناء، ثمّ إنّهما لم يكونا يوائمانها: كانت تصير أكثر جهماً وصمتاً مما كانت. في أكثر من مناسبة دفعتها كارمن لأن تأكل شطيرة جامبو، مثلاً، لكن من دون جدوى. فكاريداد أو معدة كاريداد الغامضة لم تكن تقبل غير الدونوتس، البسكويت، حلوى التشوتشو، وحلوى الشوكولاته وكعك الزبدة وإنسايمادا، بسكويت جوز الهند وبقية الحلوى من هذا النوع، ومم كان يتكون الفطور؟ كاريداد لم تكن تفطر ولا حتى جرعة ماء؟ وما بينهما؟ كانت كاريداد تستيقظ في الواحدة أو الثانية مساء، وهكذا أيضاً لم تكن تتناول شيئاً بينهما، والغداء؟ كان غداؤها يتكون من قطعة دونوتس مع قطعة بسكويت، كانت تأخذهما من علبة كانت الاثنتان تخبئان فيها مؤنهما، وهذه العلبة تخبئانها في إحدى غرف البيت الكبير، بعيداً عن الفئران والنمل، والعصرونية؟ كانت العصرونية تتكون من كشتبان من اللبن المشنون لا غير. والعشاء؟ كان العشاء الذي كانتا تتناولانه معاً، يتكوّن عامّة من قطعتي أو ثلاث قطع دونوتس وبعض الجرعات من اللبن المشنون. كانت كاريداد تشعر بوله حقيقيّ بالدونوتس. باللبن المشنون أيضاً. طبعاً نحلت بل ويمكن الآن أن تُعَدّ أضلاعها، لكن كان هذا سواء، فإرادة كاريداد وغذاء العصفور الصغير كانا يشكلان كلاً لا يتزعزع. لم تكن كارمن تفهم، مهما قلّبت الأمر، كيف تستطيع أن تتحمّل كلّ ذلك الوقت متغذية على وجبة من هذا النوع، لكنّ الحالة هي أنّها كانت تتحمّل وكانت في كلّ يوم «أروع» من سابقه. حين وصلنا إلى شوارع ثِتا دعوتها لتناول الفطور. طلبت كارمن تشورّو مع

الشوكولاته. لم يكن النادل النعسان يتحمّل المزاح، قال لا يوجد فاضطرت لأن تكتفي بالبسكويت والبيرة. كانت كثرة الكلام تسبّب لها العطش. وأنا طلبتُ قهوة بالحليب ودونوتس. سألتني قبل أن نودّع بعضنا بعضاً عمّا إذا دخلتُ ذات مرّة إلى البيت الكبير. قلتُ لا. حسناً فعلت، قالت هي، لكنّها لم تُصدّقني.



إنريك روسكيّس:

في اليوم التالي على حفلة المرقص

ظهرت العجوزُ اللعينة في اليوم التالي على حفلة المرقص في مكتبي في دار البلدية مثل إعصار. كان الصباح هادئاً، كما لو أنّه ملفوف بمنشفة مبلّلة، وصامتاً، صباحاً خريفيّاً، وإن كان الهدوء ظاهريّاً فقط، أو بالأحرى كان هادئاً في جانب من الصباح، الجانب الأيسر، أمّا الجانب الأيمن فقد كان يغلي بالفوضى، الفوضى التي كنتُ وحدي من يسمعها ويشعر بها. عليّ أن أقول، مراعياً الأحداث، إنّني منذ فتحتُ عينيّ بدأت أشعرُ بالقلق، كما لو أنّه كان باستطاعتي أن أشمّ رائحةَ الكارثة حتى في هواء الغرفة. راح هذا الإحساسُ، الذي لم يكن مجهولاً بالنسبة إليّ، يخفُّ بشكل معتبر بعد أن استحممتُ وتناولتُ فطوري، ثمّ بدأتُ أقودُ سيّارتي في طريقي إلى ثِتا، لكنّ الجوانب غير العقلانية للمشكلة بقيت هناك، في السيارة، ثم في المكتب، لا أعرف ما إذا كنتُ أوضح، بطريقة الاستشعار الخفيفة. يا للمسألة، بدا لي أنّني كنتُ ألاحظ ثانيةً بثانية شيخوخة الأشياء والأشخاص، جميعهم عالقون في تيار من الزمن لا يقود إلّا إلى البؤس والحزن. عندها انفتح بابُ المكتب بضربة خرساء وظهرت العجوز تتبعها سكرتيرتي، التي كانت

تُحاول ما بين الحزينة والغاضبة أن تعيدها إلى قاعة الانتظار. غرزت العجوز المنكمشة بشعرها المقصوص اعتباطاً، عينَيْها فيَّ، بنوع من الاستكشاف السريع والمركّز، قبل أن تعلن أنّ عندها شيئاً ستقوله لي. في البداية لم أنهض، كنتُ غارقاً أكثر من اللازم على حدسي، بحيث لا أعطي أهمّية لحادث، لم يكن، ضمن الممكن، غيرَ طبيعي في عملي. نسبة كبيرة من المُنتَفِعين يظنّون أنّهم باللجوء إلى الرئيس سيعثرون على حلّ فعّال لمشاكلهم. ما أفعله في مثل هذه الحالات هو أنّني أرسلهم بكلمات طيبة وكثير من الصبر إلى المكاتب الموجودة في حي ميم، حيث سيلقون مساعدة مساعِداتنا ومرشداتِنا. أوشكتُ، بعد أن تأكّدتُ من أنّني أنا وليس غيري من كان ينظر إليها من خلف المكتب، أن أفعل ذلك حين لفظتْ العجوزُ، جملةً ساحرة، غامزةً إيّاي: أُريد أن أناقش معك أو مع العمدة موضوعَ حلبة الجليد. كلّ الذي خشيته وخفت منه على امتداد الصباح ظهر فجأة، تجسّد بقوّة ساحقة، كما لو أنّني أحضرُ فيلماً من الخيال العلمي. لا أبالغُ إذا ما قلت إنّني أوشكت أن أرتعد. ومع ذلك، نجحت، بنوع من التحكّم الذاتي، في أن أرخي أعصابي وأطلب باهتمام مفاجئ وظريف من السكرتيرة أن تتركنا لوحدنا. أفلتت السكرتيرة العجوزَ، التي كانت تمسكها من ذراعها كما لو أنّها لا تصدّق أذنيها. ذهبتْ بعد أن كرّرتُ عليها الأمر وأغلقت الباب. طبعاً النقاش المشهور الذي يقولون إنّه دار بيني وبين العجوز كذبة، كذبة من الكذبات الكثيرة التي تقوّلوا بها. في مكتب سكرتيرتي لا يمكن أن يُسمع شيء من مكتبي، ما لم يكن الكلام صراخاً وأستطيع أن أؤكّد أنّه لم يكن هناك صراخ، ولا تهديدات، ولا زعيق. بقي الباب مغلقاً طوال الوقت. كان وضعي النفسيّ، كما من السهل أن يُفترض، في أسوأ ما

يمكن تصوّره. إنّ كلمة مستنفدة تصف بكثير من الدقة الموقفَ الذي اتخذته بحضور العجوز، وهذه بدت على العكس تتملّكها حيوية وطاقة طافحتان. بينما هي تتكلّم، بجرسٍ عاديّ أحياناً وأحياناً أخرى بهمسٍ، كانت قادرة على أن تُحرّك يديها بطريقة ذكّرتني تماماً بفيلم عن الفراعنة والأهرامات. فهمت وسط دوار ترهاتها، أنّها تريد «معاشاً أو مساعدة»، عملاً لمسخ لم تُسَمّه. قلتُ لها الأمر ليس بيدي. عندئذ طالبت بحضور العمدة. كانت تربط بطريقة ما بين كلتينا ووجود حلبة التزلج. سألتها ما الذي تُفكّر أنّها ستحصل عليه من مقابلة العمدة فأكّد جوابها مخاوفي: بحسب العجوز، ستكون بيلار أكثر تَقَبّلاً لمطالبها. عندئذ قلتُ لها لا حاجة فأنا سأرى كيف أسوّي بعضاً من وضعها وأخرجت على الفور محفظة نقودي وأعطيتها عشرة آلاف بيزتا، خبّأتها العجوز على الفور في جزدانها. ثمّ وضّحتُ لها، محاولاً أن أرخّم صوتي، أنّه لا يمكن الآن فعل شيء بخصوص شقة الحماية الرسمية؛ وأنّه حين ينتهي الصيف، لنقل في أواسط أيلول، سأرى كيف أعثر لها على شيء. لكنّها استقصت عن موضوع معاشها. أخرجتُ ورقة وأخذت منها بعضَ المعلومات: المشكلة، وضّحتُ لها، هي ذاتها مشكلة الشقّة، لا يمكن فعل شيء حتى يعود الموظّفون من إجازاتهم. بقيت العجوز برهةً مُتفكّرة، وبعدها بقليل انتبهت إلى أن المشكلة بقيت عالقة على الأقل آنياً. قالت قبل أن توذعني إنّها بهذا العقد تطوي صفحة وتفتح صفحة جديدة من صراعاتنا القديمة. أكّدتُ لها دون أن أستطيع إخفاء دهشتي، يصعب أن تكون بيننا مشكلة، ما دامت هذه هي المرّة الأولى التي نلتقي فيها. عندئذ راحت تشغّل ذاكرتها وتبيّن أنّها ظهرت منذ سنوات في مكتب الخدمات الاجتماعية. ذكرت ما جرى بكلمات واضحة وجليّة جعلتني أرتجف من

رأسي وحتى أخمص قدميّ. أريدكم أن تفهموا ذلك: كنت جالساً وراء مكتبي وراحت العجوز الشمطاء بكلمات مليئة بالزيت والشفرات، تكوّن صورة كنّا فيها أنا وهي فقط. وكلانا لا يملك إمكانية التملص منها، لكنّها قالت وعيناها تبرقان الآن: نطوي صفحة ونفتح صفحة جديدة. وافقت هازّاً رأسي. كنتُ واثقاً من أنّني لم أستطع أن أخدعها بأي من كذباتي. شعرتُ بنفسي، مثل أي منكم، محاصراً...

رِمو موران:

في تمام الساعة العاشرة صباحاً أخذت السيارة وخرجت

في تمام الساعة العاشرة صباحاً أخذت السيارة وخرجت في طريقي إلى قصر بِنفينغوت. كان النهار ضبابياً ومنعطفات الطريق المحلي إلى إي معروفة بحوادثها، ولهذا قدتُ بمنتهى الحذر. كان السير قليلاً ولم أجد أيّة صعوبة بالعثور على القصر، المكان الذي أيقظ اهتمامي دائماً، سواء بسبب عمارته، المحيّرة، كما بسبب أسطورة بانيه ومالكه الأوّل. جمال البيت، وإن كان خرباً، حافظ على نفسه مثل بيوت كثيرة في كوستا برافا ومارِسم التي لا أحد يسكنها. كان بابُ الحديقة الحديدي مفتوحاً، لكن ليس إلى الحدّ الذي يسمح بدخول السيّارة. نزلت وفتحته على مصراعيه، صرّ الباب بشكل مريع. فكّرتُ للحظة أن أُتابع سيراً على قدميّ، لكنّني ندمتُ بعدها وعدت إلى السيارة. كانت المسافة بين الباب الرئيسي والمنزل المشار إليه معتبرة كفاية وتمضي في طريق نصفه من الحصى ونصفه الآخر من التراب، محاط بأشجار مصابة بفقر الدم وبأحواض مخرّبة. كانت تنتصب داخل الحديقة بضع شجرات كبيرة وبعيداً عنها جنباتٌ تنمو بين أكشاك وبحرات شائخة إلى أن تُشكّل جداراً أخضر داكناً. اكتشفت في واجهته نقشاً. هي أشياء تحدث

مصادفة؛ فلو أنّ أحداً طلب منّي أنْ أبحث عن النقش، لا شكّ ما كنتُ لأعثر عليه أبداً. كان يقول بحروف منقوشة في الحجر: «أشادني بِنفينغوت». بدا كأن لون الواجهة الأزرق تحت الشمس يؤكّد هذا القول: نحن موجودون لأنّ بِنفينغوت صنعنا هكذا. تركتُ السيارة مصفوفة بجانب رواق المدخل وقرعتُ الباب. لم يجبني أحد. فكّرتُ أنّ البيت خالٍ؛ حتى أنا المتوقّف في الباب وأنتظر لم أكن أُمَثِّلُ حضوراً أكثر من الأعشاب التي كانت تنمو في كلّ مكان. قررتُ، بعد لحظة من التردّدِ، أن أذهب وأُلقي نظرةً على الجانب الخلفي. كان هناك درب حجريّ يمضي تحت نوافذ الطابق الأوّلِ المُغلقة لينتهي عند أقواس تفسح الطريق إلى حديقة أخرى، محاطة بالأسوار والسلالم، في مستوى أخفض من مستوى الحديقة التي خلّفتها للتوّ ورائي ومبنية على شكل شرفة ورأيت على كلّ درجة بقايا تماثيل مبتورة. كانت كلّ درجة مزيّنة بقرون الوفرة المنحوتة في الحجر، على مستوى الأرض تقريباً. باب خشبيّ، مدعم بعوارض حديدية، ينفتح إلى الداخل على فناء يُطلّ مباشرة على البحر. قسم من البيت مشاد فوق الصخور أو بالأحرى يغور في جرف صخريّ في عناق غامض القصد، وبجانبه، عند الأدراج التي تهبط متعرّجة نحو الشاطئ، كان العنبر. وهو بناء خشبي هائل، عوارضه بارزة في الخارج، هجين من طراز أهراءٍ وكنيسة بروتستانتية متآكل بفعل الزمن والإهمال، لكنّه ما يزال قويّاً. كان البابُ المكوّن من درفتين مغطيتين بصاج معدني، مفتوحاً. دخلتُ. في الداخل، بنى أحدهم، بإرادة طفل رهيبة، سلسلة من الممرات المربكة، بارتفاع متر ونصف المتر، مستخدماً صناديق لا تُحصى، كلمّا توغّل المرء فيه راح الارتفاع يتقلص إلى أن يصبح خمسين سنتيمتراً ونيّفاً. كانت الممرات تمضي

مشكّلة دوائر. في الوسط كانت حلبة الجليد. رأيتُ وسط الحلبة كتلة داكنة متقوقعة، سوداء مثل بعض الدعائم التي كانت تعبر السقف المستوي لامعةً. كان الدم قد سال من الجسد المرمي على وجهه من عدد من النقاط وفي كلّ الاتجاهات، مشكلاً رسوماً وصوراً هندسيّة ظننتها من النظرة الأولى ظلالاً، وصل مجرى الدم في بعض المناطق حتى حافة الحلبة. تأمّلتُ، راكعاً على ركبتيّ، ربّما لأنّني شعرت بالدوخة والرغبة بالتقيّؤ، كيف بدأ الجليد القاسي يمتصّ كاملَ دمِ المجزرة. اكتشفتُ في زاوية من زوايا الحلبة السكين. لم أقترب لأنظرَ إليها بتأنٍّ أكبر، كما لو ألمسها، كان باستطاعتي من المكان الذي كنتُ فيه أن أرى بوضوح أنّها سكين مطبخ، عريضة الشفرة بلاستيكية المقبض، على الشفرة حتى عن بعد كانت تُلاحظ بقع الدم. بعدها بقليل اقتربت من الجثّة بحذر شديد كيلا أنزلق على الجليد وفي الوقت ذاته كيلا أدوس على الدم المتخثر. عرفتُ منذ اللحظة الأولى أنّها كانت ميتة، لكن عن قرب كانت تبدو فقط نائمة، وعلامة انزعاج خفيفة تعلو طرفي عينها الوحيدة التي كان باستطاعتي أن أراها، دون أن أُبدّل وضعيتَها. افترضتُ أنّها كانت تلك العجوز التي ذهبت لتتكلّم مع لولا، وبقيت برهة طويلة أنظرُ إليها وكأنّني منوّم مغناطيسياً، وأنتظر، بلا عقلانية أن تظهر نوريا على مسرح الجريمة. بدت لي حلبة التزلّج وقتها مكاناً مغناطيسياً، رغم أنّ جميع سكانه وزوّاره تبخّروا منذ زمن طويل، وكنتُ الأخير في الدخول إلى المشهد. حين نهضتُ كانت ساقاي مجمّدتين. في الخارج كانت الغيوم تغطي كامل السماء وبدأت تهبُّ من البحر ريحٌ متوعّدة. أعرف أنّه كان عليّ أن أعود أدراجي وأُعلم الشرطة، لكنّني لم أفعل. على العكس تنفّستُ عميقاً عدّة مرّاتٍ، قمتُ بقليل من

التمارين، لأنّ ساقيّ إضافة إلى أنّهما كانتا مُثلّجتين، بدأتا تنملان، ومرّة أخرى عدتُ، كما لو أنّ شيئاً يشدّني بطريقة لا تُقاوَم، لأدخل إلى العنبر وتهتُ في الممرات الدائريّة، وأنا أتأمّل الصناديقَ شاردَ الذهن، أعدّ أجهزة الأنوار الكاشفة التي كانت تصوّب على الحلبة، محاولاً أن أتخيّل ما الذي جرى بحماية ذلك الجوّ الجليدي. اعتليتُ، دون أن ألمس شيئاً وخاصّةً بيديّ، بعضَ الصناديق ونظرتُ حولي. كان المشهدُ العامّ الذي تبدى لي مثل متاهة منظورٍ إليها من أعلى، فيها مركز بلوريّ تبرز فيه حفرة سوداء: الجثّة. كذلك استطعتُ أن أرى أنّ هناك في أحد الجدران باباً آخر نصف مخفيّ بالصناديق. توجّهتُ دون أن أُضيِّع لحظة إلى هناك. بهذه الطريقة وجدتُ نفسي، بعد أن صعدت في رواق مفتوح على الحديقة والشرفات، أدورُ في ممرات قصر بِنفينغوت، التي لا نهاية لها. سرعان ما أضعت حساب القاعات والغرف التي كانت تتالى مع مروري. كانت معظم الغرف كما هو متوقَّع، مغطاة بالغبارِ ونسيجِ العناكب، والجدران مُقَشّرة في حالة خراب تام. كانت الريح قد خلَعت في بعضها النوافذَ وعلى الأرض تظهر واضحةً العلاماتُ التي خلّفتها الأمطار على مدى ثلاثين عاماً. كانت النوافذ في بعضها الآخر قد سُمِّرت جيّداً بأطرها وكان الإنتان فيها لا يحتمل، وجدت بشكل مفاجئ غرفتين في الطابق الأوّل وقد طليتا حديثاً وفيهما بعض أدواتِ النجارة مكومة خارجها في الممرّ. حتى الآن لا أعلم علم اليقين الدافع الذي دفعني لأن أفتّش كاملَ البيت. وجدتُ في قاعةٍ على شكل نعل فرس، في الطابق الأخير، تحت نافذة تُطلّ على البحر، غاسبارين ملفوفاً ببطانيات اسكتلندية ممزّقة مع فتاة تبدو ظاهرياً نائمة. اعترف لي بعد أيّام أنّه عندما سمع خطواتي ظنّ أنّها الشرطة ولم يكن أمامه من مهرب. في

القسم الخلفيّ للجدار كُتِبَ فوق النافذة الرائعة نقش: «استبسال، استبسال!» كانت الحروف التي شوّهها الزمن كلّها كبيرة وتُظهر تصميماً هذيانياً مثل كلّ البيت، ولذلك لم يراودني أدنى شكّ بصاحبه. بِنفينغوت الهندي. وهو ما لا يكفّ عن أن يكون مستغرباً، فبحسب علمي عاش بِنفينغوت وسافر وجمع ثروته في كوبا والمكسيك والولايات المتحدة، وكانت تلك العبارة أرجنتينية أو أوروغوانية. في النهاية الأغرب من ذلك أن يقوم أحدٌ بطلائها، متصدّرة قاعة مطالعة، حيث كان من المناسب أكثر قولٌ مأثور باللاتينية أو اليونانية، إضافة إلى أنّه كان يجب أن تظهر واضحة تماماً ما إن يُفتح الباب. هذا إذا كانت تلك الغرفة قد استخدمت لهذه الغاية، الأمر الذي أبدأ بالشكّ به. على كلّ الأحوال لم يُفاجئني أن يكون غاسبارين قد اختار بالتحديد ذلك المكان كي ينتظر فيه ما كان يعتقد أنّه وشيك. لم يقل أحدنا شيئاً للآخر، ونحن ننظر كلّ واحدٍ إلى الآخر، أنا في نجران الباب وهو على الأرض تحت النقش، مغطياً بذراعِ النائمةَ. بدا حلم الفتاة سعيداً ولذيذاً إلى حدّ أنّه أحزنني أن أتكلّم وأوقظها. ما الشيء الذي أتذكّره أكثر في هذه اللحظة؟ عيني غاسبارين، خذَي الفتاة الملطخين بالدم. حين قرّرتُ أن أتكلّم، سألته عما إذا كان يعرف ما كان يوجد في الأسفل، في حلبة الجليد. أجاب مؤكّداً بحركة من رأسه. تصوّرته لثانية وهو يطعن العجوز بالسكين، لكنّ قلبي انتبه في الثانية التالية إلى أن ذلك كان محالاً. قلتُ له بعدها أن ينهض ويذهب.

ـ لا أستطيع أن أتركها. قال.

ـ اهرب معها.

ـ إلى أين؟

قلتُ: إلى المُخيّم، وطلبت منه أن ينتظرني هناك. أومأ غاسبارين بالموافقة مرّة أخرى. بدت الفتاة مسرنمة. حاولْ أن تكون بأكثر ما تستطيع رابطَ الجأش، قلتُ له حين غادرا القصر. عدتُ بعدها إلى حلبة الجليد ومحوت بمنديل البصمات عن السكين؛ أخذتُ بعدها السيارة وغادرت إلى ثِتا. حملتُ في صندوق الأمتعة البطانياتِ التي استخدمها غاسبارين والفتاة. رأيتهما قبل أن أصل إلى البلدة، كانا يسيران على الطريق، متعانقين ومستعجلين قليلاً، كما لو أنّهما يخافان المطر الذي كان يقترب. لم يسبق أن رأيت غاسبارين يُعانق فتاةً، على الرغم من أنّني كنتُ أعرفه منذ كان في التاسعة عشرة من عمره وأنا في العشرين. بدا الطريق واسعاً وبدَوَا مثل قزمين أعميين وعنيدَيْن. أظنّ أنّهما لم يعرفا السيارة، بل وأكثر من ذلك لم يولياها أدنى انتباهاً. توجّهت ببطءٍ، فالسير لم يكن يسمح بأكثر من ذلك إلى المشفى. لم تكن لولا هناك. وجدتُها في مكتبها، حيث رويت لها كلّ شيء، باستثناء لقائي بغاسبارين والنائمة. تكلّمنا برهةً عمّا يجب فعله. بدت لولا مكروبة. ما كان عليّ أن أطلب منك هذا المعروف، قالت. هل تعتقد أنّ فتاة السكين هي من قتلتها؟ أظنّ أنّه لا توجد فتاة سكين أبداً، قلتُ. بعدها هتفنا للشرطة.

غاسبار هِرديا:

بقينا نتكلّم عن النساء والطعام والأعمال والأبناء والأمراض والأموات إلى أن نام كاراخيّو

بقينا نتكلّم عن النساء والطعام والأعمال والأبناء والأمراض والأموات إلى أن نام كاراخيّو... حين سمعته يشخر أطفأتُ ضوء غرفة الاستقبال وذهبت إلى الخارج كي أتابع تفكيري. عدتُ مع الفجر لأدخل إلى غرفة الاستقبال وقلت لِكاراخيّو إنّه لا شيء جديداً في المخيّم وعليّ أن أغادر فوراً. تمتمَ كاراخيّو، نصف النائم بكلمات غير مفهومة. تمتم بشيء عن دموع هائلة. ظننتُ أنّه كان يحلم بكلمات أغنية. فتح بعدها عيناً وسألني إلى أين أنت ذاهب. أخرج لأتنزّه، قلتُ. تمنّى لي حظّاً سعيداً وعاد ليغفو. بخطوات كبيرة اعتقدت أنّني سأصل إلى قصر بِنفينغوت خلال ثلاثة أرباع الساعة. كان لديّ متسعٌ من الوقت ولذلك توقّفت قبل أن أُغادر البلدة في بار مزدحم بالصيادين وتناولتُ فطوري. لم أولِ انتباهاً كبيراً لما كانوا يقولونه، لكنّني فهمت أنّهم رأوا في تلك الليلة من على متن بعض الزوارق سمكة قرش وأنّ أحد الصيادين قد ضاع. في عمق البار، كان هناك فتى يقارب الرابعة عشرة من عمره

محاطاً برجال يرتدون ثياب العمل، يُحرّك يديه بأبّهةٍ بل وكان أحياناً يضحك وأخرى يغمز ويُكرّر كلمات قالوها في تلك الليلة. كان لكلماتِ «الكارثة» «سمكة القرش»، «الجميل» «الموجة» وقع كلمات من يلعبون القمار. دفعتُ الحسابَ، وغادرتُ دون أن ينتبه أحد إلي. لم تمرّ سيّارة واحدة خلال عبوري الطريق، لا من ثِتا إلى إي ولا من إي إلى ثِتا، كما أنّني لم أرَ أحداً يمرّ في هذا الاتجاه ولا في ذاك. من أعلى الشروم بدت البلدة غافية ولا شكّ أنّ الصيادين وحدهم كانوا مُستيقظين. كانت بعض الزوارق ما تزال تعمل على مقربة من الشاطئ. حين وصلت أخيراً إلى القصر حملتني العادةُ إلى حلبة الجليد مباشرةً. كانت الأضواء مشتعلةً، وفكّرت خطأً أنّ من المحتمل أن تكون المُتَزَلّجة والبدين هناك. لكن لا، رأيتُ في الحلبة المسكينة كارمن فقط، وعلى الحافة في مكان البدين المعتاد كانت كاريداد تتأمّلُ الجثة. بدت عيناها بضبابية ليالي المعسكر، ووجهها مليء بالدم الذي يسيل من أنفها. لم تنتبه إلى وجودي حتى أخذتها من كتفيها. لا أدري لماذا فكّرت أنّها إذا داست على الجليد، الأمر الذي بدا أنّها على وشك أن تقوم به، سأفقدها للأبد. أيضاً كان هناك دم على قميص ويدي كاريداد. كلانا كان يرتجف، كانت ذراعاي اللتان تمسكان بكتفيها تتحرّكان كالأسلاك وأسناني تصطك محدثة صوتاً متوافقاً مع المسرح. كاريداد كانت أيضاً ترتجف، لكنّ ارتجافها كان يصدر عن داخلها ويبقى في داخلها، في دائرة سرّية، لا يحسُّ به المرء إلا إذا لمسها، تماماً كما كنتُ أفعل في تلك اللحظة. بل وفكّرتُ أنّ ارتجافي ناتج عن ارتجافها وأنّه إذا ما أفلتُّها سيتوقّف، لكنّني لم أفعل. لم تنظر كاريداد إليّ إلّا عندما شعرت بيديّ على كتفيها، دون أن تعرفني وكأنّها تظنّ أنّني أنا من قتل المُغنّية. ماذا

جرى؟ سألتُ. لم تُجبني. راحت السكين، الجليد، جثة المغنيّة، البيت الكبير، عينا كاريداد، كلّ ذلك راح يدور. كانت يداي تشدّان على كتفيها كما لو أنّني أخاف أن تختفي. تذكّرت كم كانت المغنّية طيّبة وكريمة مع كاريداد، وكانت كاريداد كذلك مع المُغنية. كلتاهما غريبة في ثِنا، تساعدتا على امتداد ذلك الصيف بأفضل طريقة تعرفانها. بقيت لحظات لم أستطع أن أرفع نظري عن الجسد الجاثي على الجليد، قلتُ بعدها هيّا بنا نغادر، على الرغم من أنّني كنتُ أظنّ أنّه ما من مكان عندنا نذهب إليه. دفعتها بنعومة إلى داخل القصر. تركتني كاريداد أقودها بوداعة لم أتوقّعها. هيّا بنا نبحث عن أشيائك، قلتُ. فجأةً وجدنا أنفسنا ندور في ممرات وأدراج، لكن بسرعة هي في كلّ مرّة أكبر كما لو أنّ الشرط الذي لا غنى عنه لمغادرة مكان الجريمة نهائيّاً هو أن نفتّش البيت من أعلاه إلى أسفله. أتذكّر أنّني قلتُ لها هامساً في أذنها، في لحظة ما ودون أن نتوقّف، إنّني كنتُ الحارس الليلي للمخيّم، وعليها أن تثق بي، لكن لا يبدو أنّها كانت تسمعني. لم تكن الغرفة التي استخدمتها كاريداد وكارمن للنوم في الطابق الثاني أكبر من غرفة مؤونة، وللوصول إليها لا بدّ من عبور غرفتين أُخريين، وهو ما كان يجعلها سرية كفاية ويصعب العثور عليها. بَدِّلي قميصك، قلتُ. أخرجت كاريداد قميصاً أسود من حقيبة ظهرها ورمت القميصَ الملطخ بالدم على الأرض. انحنيت وجمعتُ كلّ أشيائها بما في ذلك القميص الملطخ بالدم ووضعتها في حقيبة الظهر. البقيّة كانت أشياء المُغنّية، زجاجات فارغة، شموعاً، أكياساً بلاستيكية فيها ثياب، مجلات قصص مصوّرة، صحوناً، كؤوساً. لسنا مستعجلين، قالت كاريداد. نظرتُ إليها في شبه الظلمة: من تلك الغرفة سمعتْ المرأتان موسيقى رقصة النار، ولا شكّ

أنهما مرّتا بلحظات سيّئة. تصوّرتهما تهبطان الأدراج للقاء الموسيقى، وهما أكثر وحشة من أيّ وقت، واحدة تحمل في يدها سكيناً والأخرى عصا أو زجاجة، مسحورتين بضياء حلبة الجليد. أو ربّما لا، على كلّ الأحوال لم يعد للأمر أهميّة. حين خرجنا كانت كاريداد هي التي تدلني على الطريق. بدل أن نهبط صعدنا إلى غرفة في الطابق الثالث. ابقَ معي حتى يصلوا، قالت كاريداد وهي تنظر إلى وجهي. اعتقدت أنّها تعني الشرطة. سننهار معاً، فكّرتُ. كلانا كان مثلّجاً وهكذا تغطينا بالبطانيات وارتمينا على الأرض الخشبية. كانت تنسل من النافذة أشعة ضوء. وكنا كما لو أنّنا مُخَيِّمان. ربّما جعلني الدفء أغفو دون أن أنتبه. أيقظتني الخطوات في الطابق السفلي. أحد كان يفتح ويُغلق غرفاً. أعرف أنّه منطقيّ وأبله، لكنّني لم أُفكّر بالشرطة بل بِكارمِن وقد نهضت من بركة الدم وراحت تبحث عنّا. لا لتنتقم منّا ولا لتخيفنا، بل لكي ترتاح إلى جانبنا، ملفوفة هي أيضاً بإحدى البطانيات. بالمناسبة لم أكن أعرف كم كانت الساعة. أيضاً لم أتفاجَأ حين فُتح البابُ وظهر رِمو موران. تذكّرتُ الليلة التي رأيته يخرج فيها من مرقصٍ مع فتاة شقراء. كانت الفتاة هي المُتَزَلِّجة، ولذلك لم يبدُ لي غريباً أن يبحث عنها. أنت أبي، فكّرتُ، ساعِدْني. أعتقد أن رِمو كان خائفاً من أن تكون كاريداد ميتة أيضاً.

إنريك روسكيّس:

هتفت بيلار مساءً إلى مكتبي كي تُعلمني

هتفتْ بيلار مساءً إلى مكتبي كي تُعلمني بنبرةٍ جافّة ورسميّة، أنّهم عثروا على جثّة في قصر بِنفينغوت. سقط الهاتف من يدي وحين استعدته لم يكن على الطرف الآخر أحد. حين أدرتُ رقم نوريا انتبهت إلى أنّني كنتُ أرتجف، لكنّ إرادتي فرضت نفسها، وحين رفعت لايا سمّاعةَ الهاتف استطعتُ أن أسأل عن نوريا بصوت على الأقل مقبول. لم تكن نوريا موجودة. في الظروف العادية ما كنتُ لأجرؤَ أبداً على أنْ أسأل عمّا إذا نامت في البيت، لكنّ الظروف لم تكن عاديّة، وهكذا سألتُ. على الطرف الآخر من الخطّ أطلقت لايا ضحكة قصيرة ساخرة قبل أن تُجيب. بلى، طبعاً نامت في البيت. تنفّست الصعداء وكلّفتها بأن تقول لِنوريا أن تتواصل معي بأسرع ما يمكن. إذا لم أتلقَّ منها اتصالاً خلال نصف ساعة سأذهب مباشرة لأبحث عنها في بيتها. هل أنتَ غيور؟ لا، قلتُ، لستُ غيوراً. بدأت لايا تسأل عمّا إذا كان قد حدث شيء، يا لها من عصفورة مسكينة، في الوقت الذي شعرتُ فيه أنّني لم أعد أستطع التحمل أكثر أغلقتُ الهاتف. كنتُ بحاجة متلهّفة للتفكير، وهكذا أخذت نَفَساً عميقاً وحاولتُ أن أمنح نفسي جرعة أخرى من

رباطة الجأش. كنتُ قد نجحتُ بذلك حين طرقوا الباب وظهر العجوز غارثيا، قائد شرطة البلدية في ثِنا. جاء معه برزمة من الأوراق في يده وسأل بحركة وديّة معتادة عنده دائماً، وإن كانت هذه المرّة مُقحمة قليلاً، عمّا إذا كان يستطيع أن يجلس برهةً. قلتُ له ألا يبقى في الباب وأن يدخل ويجلس كما لو أنّه في بيته. أظنّ أنّني صرختُ قليلاً. تقدّم غارثيا منكمشَ الكتفين نحو الكرسيّ الذي قدّمته له، وبقينا أنا وهو صامتين لحظة هو يجلس مباعداً كثيراً ما بين ركبتيه وأنا أنظر إلى الشارع عبر النافذة. تكلّمْ، يا رجل، تكلّمْ، قلتُ دون مزيدٍ من المقدّمات. نصحني غارثيا بأن أخفض صوتي، إذ يمكن للسكرتيرة أن تسمعكَ، قال بصوت خفيض، إلى حدّ أنّني طلبتُ منه أن يُعيد ما قاله. جلستُ ممزّق القلب، لكنّني أكثر هدوءاً قليلاً، واخترتُ تكتيك النظر إليه في عينيه دون أن ترفّ أجفاني. تماماً كما تصوّرتُ، حرف غارثيا نظره عنّي على الفور تقريباً وراح ينظر إلى الشهادات المعلّقة على الجدار. شهادات كثيرة، أكّدَ هامساً. حرّكتُ رأسي دون أن أرفع نظري عنه، بلى تلك كانت شهادات فوزي، وثائق عن ذكائي، صورة عن شهادة علم النفس (الأصلية مؤطّرة عند أمّي) شهادة دورة التعليم الخاص، شهادة مرشدي أبناء الشارع، شهادة التربية في السجون، شهادة الإسعافات الأوّلية والمراكز المفتوحة، شهادة جريمة الشباب والإدمان على المخدرات، شهادة المشجع الاجتماعي الثقافي، شهادة علم النفس المديني، شهادة علم النفس والجريمة (الندوة المقامة في باريس على امتداد يومين)، شهادة المرشد الاجتماعي (نهاية أسبوع في كولونيا مع محاضرات نازية بشكل ملتبس)، شهادة الإنعاش النفسي الاجتماعي، شهادة علم النفس والبيئة، شهادة مشاكل الشيخوخة، شهادة مراكز إعادة التأهيل والمزارع،

شهادة نحو أوروبا اشتراكية، شهادة السياسة والرياضة في إسبانيا، شهادة السياسة والعالم الثالث، شهادة المشاكل والحلول في البلديات الصغيرة، وهلمّ جرّاً. لم أكن أعرف أنك درست كلّ هذا، قال غارثيّا متنهّداً. تفاديت أن أجيبه؛ كان عقلي، كما يُقال عامياً، بعيداً جدّاً عن ذلك المكتب، ضائعاً في فضاء أحلام يقظة. رحتُ دون أن أنتبه أدندن موسيقى رقصة النار. أنت تعرف لماذا أنا هنا، قال غارثيّا متنحنحاً. لم أحب مقاطعته لي، لا أحد يحبّ أن يفعلوا معه ذلك، لا أعرف، تبدو لي قلّة تربية مطلقة، لكن ما الشيء الآخر الذي يمكن توقّعه من شرطيّ. ادخل في الموضوع، يا رجل، ادخل في الموضوع، قلتُ رافعاً صوتي. احمرّ غارثيّا إلى حدّ أنني ظننته سيُصاب بنوبة قلبية أو دماغية أو كلتيهما معاً. أنت موقوف، قال ناظراً إلى الأرض. حسن، يكفي، لم يكن صعباً قول هذا، قلتُ بابتسامة وحده الله يعرف كم من الجهد كلّفني الحفاظ عليها فوق شفتيّ. سألتُ بعدها ومن دون أن أبتسم ما الذي يُظنّ أنني فعلته. قتل امرأة، قال غارثيّا، والنصب على البلدية. سألتُ بفضول حقيقيّ، من المرأة التي يُظنّ أنني قتلتها، على الرغم من أنني في داخلي كنتُ أتوقّع من كانت المقتولة. متسوّلة، قال غارثيّا باحثاً بين أوراقه. كارمِن غونثالث مِدرانو، سألت عمّا إذا توصّل إلى هذا الاستنتاج وحده أم على العكس هو من عمل فريق. هزّ غارثيّا كتفيه وتظاهر أنه لم يفهم ما قلته. تُخطئ إن كنتَ تعتقد أنك ستكسب كثيراً على حسابي، حذّرته. أجاب غارثيّا إنّه لا يكسب شيئاً وإنّه يأسف كثيراً لأنه يرى نفسه مقحماً في عملية اعتقالي، لكن عليّ أن أتفهّم ذلك، فكلٌّ واحد منا عنده واجبات. لم أصدق كلمة واحدة، ففي بريق عينيه كانت تلاحظ السعادة: لأوّل مرّة يسبق الوغدُ الشرطةَ الوطنية والحرسَ المدني. تُخطئ

إن كنت تعتقد أنك ستظهر في الصحف، يا غارثيّا، زمجرت، جميعكم ستلقون مفاجأة جيّدة. تمتم غارثيّا بجواب حين رنّ الهاتف وانكببتُ لآخذه كما لو أنّ روحي تذهب معه. على الطرف الآخر من الخطّ كان صوت نوريا، الشبيه بصوت عصفور يرتجف من البرد. لم يحدث، أُقسم بذلك، أن شعرت بها بمثل ذلك القرب. نوريا، قلتُ، نوريا، نوريا، نوريا، نهض غارثيّا بحشمة تشرّفه وأدار ظهره لي وراح ينظر إلى الشهادات. دون أن أُريد، دون أن أنتبه إلى ما كنتُ افعله رحت أبكي. نوريا، لا أدري كيف، انتبهت وسألتني، ليست واثقة تماماً، لكنّها قلقة جدّاً، عمّا إذا كنتُ أبكي، الأمر الذي سارعت إلى تكذيبه بالكلمة والفعل. كان غارثيّا يُراقبني بطرف عينه من زاوية. خارج المكتب سمعت صيحات، كانت سكرتيرتي، وبعض الأصوات التي تطلب وتُطالب، لكنّني لم أستطيع تمييزها. لم يكن يهمّني أن أسقط في تلك اللحظة مصعوقاً. كان تنفّس نوريا وتنفّسي متحدين في الهاتف كما لو في زواج لا زمني، وفي الوقت ذاته ومرور الأيام الهادئة والمعرفة. كانت أسناني تصطكّ بطريقة رهيبة. ماذا حدث؟ سألت نوريا. لاحظت أنّ غارثيّا أصبح من جديد إلى جانبي ويتمتم بأشياء غير مفهومة. راح الضجيج الذي كان يصدر عن قاعة الانتظار يزداد: كراس تسقط، أجسام ترتطمُ بالجدران، صرخات تطلب الصمت والهدوء، رجاءً، لا تعيقوا مجرى العدالة. عندها هجّيت: نو-ريا-عَ-ليَّ-أن-أُغلق، لِ-يَخ-دُث-ما يَخ-دُث تَ-ذَ-كَّ-ري- أنَّ-ني-أُ-حِ-بُّ-ك تَ-ذَ-كَّ-ري- أنَّ-ني-أُ-حِ-بُّ-كِ.

رِمو موران:

كان الشرطيان شابّين ولهما وجهان ليسا حيويَّين تماماً

كان الشرطيان شابَّيْن ولهما وجهان ليسا حيويّين، على الرغم من أنّ واحداً منهما قال خلال الطريق إنّه مجاز في الاقتصاد. كان الآخر ميكانيكياً هاوياً، أحد مجانين سباقات الدراجات النارية، في كلّ مرّة يستطيع الهروب كان يهرب ليشارك في سباقات الدراجات النارية التي كانوا يقيمونها في كتلونيا وبلنسية. كلاهما كان متزوّجاً وعنده أولاد. حين وصلا إلى مكتب لولا لم يظهرا ثرثارين إلى هذا الحدّ، وإن كانا، بعد أن استمعا إلى قصّتي وكتبا أربع خربشاتٍ في دفتر، لم يكن نظيفاً أبداً، قد تبادلا النظر كما لو أنّهما يُفكران بأنّ ذلك اليوم هو يومهما. قرّرا أن يذهبا فوراً إلى قصر بِنفينغوت. ومن أجل هذا طلبا، بشيء من العصبية، مرافقتي لهما. لم تُرِد لولا أن أذهب وحدي (من سيعرف ماذا خطر ببالها) وفرضت حضورها؛ هي كانت، أولاً وأخيراً، الوحيدة القادرة على معرفة هويّة الجثّة. انطلقنا نحن الأربعة، بعد أن بحثت لولا في الأرشيف الطافح بالأوراق، باتجاه مكان الجريمة، في سيارة الدوريّة، الأمر الذي سآسف له بعد ذلك، إذ سيكون عليّ أن أعود إلى المكتب لآخذ سيارتي ولم يكن عندي فائض من الوقت ولا الرغبة. لم

يكن قد تغيّر شيء في قصر بِنفينغوت وإن كانت قد برزت بصمة الخراب، الخريف المُبكّر، الذي كان يلفّ البيتَ ومحيطَه. كانت الجثة ما تزال هناك، لكنَّ خطّ الدم لم يكن مفرطاً في شؤمه ولا الدم مفرطاً في حمرته. دخلت لولا خطوات قليلة في الحلبة وتعرفت عليها دون صعوبة: كارمن غونثالِث مِدرانو، جوّالة. ظهر بعدها قائد الشرطة، الذي هنّأ جهراً مرؤوسَيْه، وجاء معه الطبيب الشرعي يتبعه ثلاثة فتية من الصليب الأحمر، وفتاة، تقارب الثلاثين من عمرها قالت إنّها قاضية المنطقة. كانت هي ولولا تعرفان بعضهما بعضاً، وقام بينهما خلاف حول بطاقة المتسوّلة. أرادت القاضية أن تبقي على البطاقة معها، وهو ما رفضته لولا رفضاً قاطعاً. حين رأيتُهما تتجادلان، كلاهما شابّة وحيويّة، فكّرتُ هذه هي إسبانيا التي تتقدّم بخطى حثيثة نحو المستقبل. إلى جانبهما، لا أدري أكنا، أنا والعجوز حزينين أم وديعين، أم صبورين، كانت العجوز وأنا مثل سهمين، سهم سريع وآخر شديد البطء، مُطلقين نحو الماضي. توصّلنا في النهاية وبتوسّطٍ من الطبيب الشرعي إلى اتفاق: تُبقي لولا على البطاقة معها وترسل صورة عنها إلى القاضية. من جهتي اضطررت لأن أُكرِّر قصّتي مرّتين وحين صار باستطاعتنا أن نذهب، لم يكن هناك من يحملنا معه. عدنا إلى ثِنا سيراً على الأقدام. كانت لولا شاحبة قليلاً، وإن كانت حلوة جدّاً. كرّرت عليّ في البداية القليلَ الذي تعرفه عن المقتولة، لكننا انتهينا إلى الكلام عن رحلتها الحديثة إلى اليونان وكيف كان سلوك الطفل. في المساء قرّرتُ، بعد عدّة محاولات فاشلة للاتصال بِنوريا، أن أذهب إلى بيتها مرّة أخرى وأستعلم عن مكان وجودها. فتحت أمُّها الباب ولم تدعني إلى الدخول. كانت عيناها محمرّتين، ولم تكن مستعدة للدردشة. نوريا رحلت إلى

برشلونة. ولم تكن تعرف متى ستعود. في الفندق كان أليكس ينتظرني بخبرٍ قنبلة: اعتقلت الشرطةُ إنريك روسكيّس، كمرتكب مفترض للجريمة. اضطُرِرت في ذلك الصباح لأنّ أُكرّر القصّةَ التي سبق وكرّرتها مئات المرّات. صعدتُ بعدها بقليلٍ إلى الغرفة كي أُفكّر. لكن الذي جرى هو أنّني نمت، جالساً على كنبة وحلمتُ بأن مجموعة من النساء العصافير تجتمع في الخارج، بجانب الشرفة، يُراقبنني عبر الزجاج بينما أجنحتهنّ تخفق بصمت الهواء الساخن والرطب. وشيئاً فشيئاً رحتُ أتعرّف عليهنّ، هناك كانت لولا ونوريا ونساء أخريات من ثِتا وإن كانت وجوههنّ ضبابية وربّما أخطأت. في الوسط كانت المتسوّلة تخفق بجناحيها كما لو أنّها مَلِكَة الموكب. كانت عيناها الوحيدتين اللتين تنظران إلي حقيقةً. هبّة ريح فتحت النوافذ وشعرت بصوتها تماماً في اللحظة التي راحت النساء العصافير يرتفعن بعكس اتجاه الغيوم التي تُغطّي البلدة. وعلى الرغم من ذلك كان صوتُ الميتة يهزّ زجاج الشرفة. وهي تُغنّي. كان غناؤها مكوناً من كلمة وحيدة مُتكرّرة: انتقم لي، انتَقم لي، انتقِم لي. يا زميلي العزيز، انتقم لي، انتَقم لي، انتقِم لي. وحين أوشكت على الاستيقاظ سمعتُ نفسي أعدها بأنّني سأفعل، لكن عليّ أوّلاً أن أعثر على قاتلها. في الليل خرجتُ، بعد أن استحممتُ، لأقوم بجولة في طريقي إلى ستِلا ماريس. خارج غرفة الاستقبال كان غاسبارين وكاراخيّو وزبون في قميص داخلي جالسين يتناولون المرطبات. بقيتُ برهةً معهم. طلبتُ بعدها من غاسبارين وكاراخيّو أن يتبعاني. حين أصبحنا في ممرات المخيّم الداخلية سألتُ غاسبارين أين الفتاة. قال نائمة في خيمتها. هل تعرف أين وجدناها؟ سألتُ كاراخيّو. المشكلة يمكن أن تحصل حين تأخذها الشرطة. لن يأخذوها، قلتُ، وإذا

أخذوها فلن تورّطنا في المشكلة. الفتاة محلّ ثقة، أليس كذلك؟ لم يُجبني غاسبارين. كرّرتُ السؤالَ. هذا بحسب، قال غاسبارين، هي بالنسبة إلى بعضهم محلٌ ثقة وبالنسبة إلى آخرين ليست كذلك. بالنسبة إلي؟ بلى، قال غاسبارين، أعتقد أنّها كذلك. وكذلك بالنسبة لِكاراخيّو. وبالنسبة إليك، هل هي محلّ ثقة؟ لا أدري، قال غاسبارين، ما أنا بصدده هو أن أعرف ما إذا كنتُ أنا محلّ ثقة عندها. اتفقنا على أن يبقى هو والفتاة بعيدين عن القضيّة. يمكن للشرطة أن تصل إليك من خلالها، قلتُ وإن كنتُ بالحكم من سير الأحداث، لا أعتقد ذلك. كان وجود غاسبارين في إسبانيا غير شرعيّ وخطيبته وحده الله يعلم من كانت. حين عدنا إلى غرفة الاستقبال كان رجل القميص الداخلي ما يزال هناك وراح يسألني عن أحداث قصر بِنفينغوت. من خلاله عرفت أنّ الخبر ظهر في تي في ٣ وأنّ الفضيحة سيكون لها تبعاتها...

غاسبار هِرديا:

تكيّفت كاريداد جيّداً مع حياة المخيّم

تكيّفت كاريداد جيّداً مع حياة المخيَّم، على الرغم من أنّ هذا لم يكن يُلْحَظُ في البداية، فهي لم تكن تتكلّم تقريباً وأنا لا أكاد أوجّه إليها أسئلة. كنّا نتناوب على الخيمة أكثر مما نتقاسمها: عندما أذهبُ إلى النوم كانت هي تستيقظ وحين أستيقظُ يبدأ النعاسُ يُداخلها. وكنّا نُحَضّر وجبة واحدة معاً، وجبة الصباح، التي كانت بالنسبة إليّ عشاءً وبالنسبة إليها فطوراً، وكان يتألّف من جبنٍ، لبن رائب، فواكه، جامبو مطبوخ، خبز مُتكامل، يعني وجبة مدروسة لإعادة الألوان إليها، وكانت كاريداد تتناوله بشقّ النفس. كنّا نلتقي أحياناً في بار المُخيّم، بالمصادفة الخالصة ونتناول عادة البيرة معاً. كنّا نتكلّم قليلاً. وعلى الرغم من ذلك لم أتأخّر في اكتشاف أنّ صوتها الصوتُ الأكثر إقلاقاً الذي سمعته في حياتي. كان دخولي حبواً إلى الخيمة شمّي لرائحتها بين كومة الملابس يُحدِث عندي متعة مكثّفة. والأكثر إمتاعاً من ذلك هو أن أستيقظ وأجدها على بعد خطواتٍ من الخيمة، جالسة على الأرض، تقرأ كتاباً على ضوء مصباح الغاز. سوء صحتها الذي كلّمتني عنه المُغنّية، كان يظهر فقط على شكل نزيف أنفيّ متكرّر، كانت تعزوه كاريداد إلى الشمس ولا توليه كبيرَ

اهتمام. الأسوأ أنّها لم تكن تنتبه أحياناً حتى يقطر الدم من ذقنها وكان وجهها المطلي بتلك الطريقة يُخيف من ليس على معرفة بالأمر. حين كان يحدث هذا، مرّة كلّ ثمانٍ وأربعين ساعة، كانت تضع منديلاً مُبلّلاً على عظم أنفها وتستلقي بجانب الخيمة تنتظر أن يتوقّف النزيف. كانت تلك مناسبات كي أتحدث معها، بكثير من التكنيك. كنتُ أبدأ بالطقسِ وأنتهي بصحّتها. من المفروغ منه أنني في كلّ مرّة أُلَمّحُ فيها إلى الذهاب لمراجعة الطبيب يأتيني جوابها رفضاً قطعياً. فهمتُ ذلك لاحقاً فقد كانت كاريداد تكره المشافي، كما تكره المدارس وثكنات الشرطة ومآوي العجزة. لم أرها قط تنزف من فمها، أو تبصق دماً، ولذلك افترضت أنّ كارمِن أخطأت في هذا الجانب، أو أنّها بالغت بأمراضِ صديقتها، يشجعها على ذلك الاهتمام الذي كانت تراها فيّ. لم أعرف قط ما إذا كان لها أبوان، أخوة، أو أسرة. كان ماضيها محفوظاً في الصمت الأكثر صرامة، الأمر الذي يعتبر بحدّ ذاته غريباً عند شخص لم يُتِمّ العشرين من عمره. التقى فتى الدراجة النارية بها في بار المخيّم يوماً. رأيتهما من بعيد وفضّلت ألا أقترب، وألا أبتعد كثيراً. تحادثا ـ الفتى تكلّم وكاريداد حرّكت شفتيها بين فينة وأخرى ـ مدّة عشر دقائق. بدَوَا بطاريتين مشحونتين. انفصلا بعدها، والفراغ الذي بقي مرتجفاً على طاولة العرض هدّد بابتلاع بقيّة الرواد. وذات يوم بينما نشرب البيرة ظهر الفتى بجانبنا وراح يتكلّم. كان يتكلّم بالقشتاليّة، لكنّه يستخدم مصطلحات وحدهما هو وكاريداد، كما يبدو، يعرفانها. خصّني قبل أن يُغادر بابتسامة يمكن أن تعني أيّ شيء. في المرّة اللاحقة ظهرَ في غرفة الاستقبال، ممتطياً درّاجته النارية وقال إنّه يريد أن يتكلّم معي. في الحقيقة أراد فقط أن يُعبّر عن شكره لي على ما فعلته لأجل كاريداد. إنّها

أكثر جنوناً من عنزة، لكنها امرأة طيّبة. كان الوقت ليلاً والدراجة تُحدث ضجيجاً كبيراً. قلتُ له أن يُطفئ الدراجة ويدفعها حتى خيمتها، وهذا ما فعله. بقينا أياماً كثيرة لم نخرج فيها أنا وكاريداد من المخيّم إلا كي نشتري مؤونة. ليس لأنّنا خطّطنا لذلك بل ببساطة لأنّه لم يكن عندنا رغبة بالخروج. بالنسبة إليّ كان يمكن لهذه الحالة أن تدوم إلى الأبد، لكنّ فتى الدراجة النارية صار يأتي في كلّ مساء، من دون لفّ ولا دوران، مباشرة إلى خيمتنا. كنتُ أسمعه يصل وأنا نصف نائم، ويبدأ بعد برهة قصيرة يتكلّم مع كاريداد، التي إذا لم تكن في البار في مثل تلك الساعات، تبقى جالسة في الخارج وبين يديها كتاب، دون أن تعمل شيئاً. جاء الفتى ذات مساء على درّاجته النارية ثمّ وبعد أن دردشا بصوتٍ متوسّط لبضعِ دقائق غادرا معاً، فكّرتُ أنّني لن أعود لأراها ثانية. حين عادا في الثالثة أو الرابعة صباحاً كنتُ جالساً بجانب الحاجز الحديدي، في مدخل المخيّم. حيّتني كاريداد بحركة من رأسها. غادر الفتى المخيّمَ بعد يومين وبقيت كاريداد معي. كانت البلدة في تلك الأيام، بحسب كاراخيّو، مهتاجة وعصبية؛ فقد لقيت عملية احتيال قصر بنفينغوت صدى أكبر من جريمة قصر بِنفينغوت، لكنّني لم أكن أعرف شيئاً؛ لم أكن أشتري صحفاً، لم أكن أستمع إلى الإذاعة ولا أرى التلفزيون إلا مصادفة في غرفة استقبال المُخيّم. جاء رِمو لرؤيتي مرّتين. حاولنا، بأفضل إرادة أن نتكلم عن أيّ شيء، لكن لا شيء أعطى نتيجة. كان المشهد مؤسفاً. لم ينظر أحدنا إلى عينَي الآخر. فقط حين راح يذكر المكسيك بلا كللٍ (اقتصرتُ أنا على الاستماع) صارت الحالة أسلسَ قليلاً، لكنّه حزين. من حسن الحظّ أنّ الأمر لم يصل بنا إلى حدّ أن نقرأ قصائد جديدة. ربّما يعود ذلك إلى أنّه لم يكن هناك قصائد

جديدة. رأيتُ ذات ليلة البدينَ في التلفزيون: يخرج من سيارة يرافقه شرطيان ويضيع خلفَ بابِ المحكمة، لم يُحاول أن يُخفي وجهه بسترته الأمريكية، أو بيديه المُكبَلتين؛ على العكس كان ينظر إلى الكاميرا بفضول وعدم اكتراث، كما لو أنّ القضيّة لا تتعلّقُ به وأنّ القتلة والنصابين على الجانب الآخر، بعيدين عن الهدف. دخلت كاريداد، ذات مساء إلى الخيمة، بينما أنا نائم، تعرّت ومارسنا الحب، بالطريقة ذاتها تقريباً، كما لو أنّ الأمر لا يجري معنا وأن العاشقين الحقيقيّين كانا ميّتين ومواريين الثرى. لكنّها كانت المرّة الأولى وكانت جميلة، بدءاً من تلك اللحظة صرنا نتكلّمُ أكثر قليلاً، ليس كثيراً، لكن فعلاً أكثر قليلاً.

إنريك روسكيّس:

أقسم إنّني لم أقتلها

أقسم إنّني لم أقتلها، كيف سأقتلها إذا لم نكن قد التقينا أكثر من مرّتين. صحيح أنّ العجوزَ جاءت إلى مكتبي وأنّني أعطيتها نقوداً، بلى، ونستطيع أن نقول إنّها كانت تبتزّني، لكنّ هذا ليس دافعاً إلى قتل أحد. أنا كتلانيّ، وهذه كتلونيا وليست شيكاغو ولا كولومبيا. ثمّ طعناً بالسكين!. لم يحدث قط أنّني استخدمتُ السكين ضدّ أحدٍ، ولا حتى في المنام. من يستطيع أن يتصوّرني أطعنها عشرين طعنة؟ عفواً، للدقّة، أربعاً وثلاثين طعنة. لا أحد إطلاقاً! خاصّة وسط حلبتي! لو فعلتُ ذلك لكنتُ انتحرت على الفور، لأنّ جثّة في قصر بِنفينغوت ستُشير إليّ حتماً كمُتَّهَم رئيسيّ. وماذا سأكسب من قتل عجوز؟ لا شيء. لا شيء غير المشاكل ومزيد من المشاكل حتى الانفلاق. منذ اليوم الذي ماتت فيه هذه البائسة صارت حياتي كابوساً. الجميع أداروا لي ظهورهم. طُرِدتُ من عملي ومن حزبي. لم ينتَظِر أحدٌ رؤيتي للأحداث. بيلارِ، التي طالما ساعدتها، تقول الآن إنّها كانت ترتابُ منّي منذ زمن. كذبة عفنة. أمين الحزب في خيرونا يقول إنّه دائماً كان يرى موقفي خاطئاً. كذبة أخرى. ثمّ إنّها أكاذيب خرقاء! لأنّه إذا كان سلوكي واضحاً وكانوا يعرفون

بالأمر، فلماذا لم يفعلوا شيئاً قبل أن يحدث النصب والقتل؟ أنا سأقوله لكم: لم يفعلوا شيئاً، لأنهم لم يعرفوا شيئاً، لم يحدسوا شيئاً، لم يُقلقهم شيء. أفضل ما يمكن أن يفعلوا الآن هو أن يسدّوا أفواههم ويتحمّل كلٌّ منهم المسؤولية التي تخصّه. بلى، استخدمتُ مالاً عامّاً لبناء حلبة جليد قصر بِنفينغوت، لكن هنا معي الأوراق التي تُثبت المردود الذي يمكن أن ينتج عن الحلبة، بإدارة جيّدة وخلال فترة سبعة أعوام، هذا كيلا أحكي عن الخدمات التي ستُقدّمها للرياضيين في المنطقة بل وفي المقاطعة أيضاً، الذين ليس عندهم أيّ منشأة مناسبة لممارسة الرياضة الشتوية. الحلبة، أقول هذا للذين يُفكّرون أنّني أرتجل ذرائع ودفاعاتٍ، تملك القياسات النظامية: ٥٦×٢٦ متراً، التي هي الحد الأدنى الرسمي (الأقصى هو ٦٠×٣٠) وإذا ما أضفنا إلى الحلبة مشلحاً (محتشماً ولائقاً، كما تنصح القواعد) ومدرّجاً بسيطاً لكنّه مريح، فإنّ بلدة ثِنا ستصبح بين ليلة وضحاها مالكة لجوهرة تحسدها عليها جميع البلدات المجاورة، تُنافس أية حلبة أوروبية رفيعة المستوى. لا أحد أذِنَ لي بإنفاق مال الخزانة العامّة على منشأة رياضية؟ فعلت هذا من وراء ظهر الجميع، وخاصة من وراء ظهر التجمّعيين والشيوعيين؟ وتصرّفت بدافع مصلحة شخصيّة، كي أكسب ودّ متزلّجة؟ أنا مجنون، معتوه وربّما حين أُكتشف أكون قاتلاً؟ أقول ذلك بكلمات صادقة تفطر القلب: لا شيء صحيح، لستُ مسخاً، أنا شخص مبادر وعنيد، أعمل بنيّة طيّبة. أُعطي مثلاً: مخططات بناء الحلبة لم تُكلّف بيزتا واحدة، أنا صمّمتها منطلقاً من مخططات المهندس الشهير هارولد بيترسون، أبي أوّل حلبةِ جليد في روما، بُنِيَت بأمر مكتوب من بِنيتو موسوليني عام ١٩٣٢. الحلبة من إبداعي، مستلهماً حلبات جون إف. ميتشل وجيمس

براندون، المعماريين الرياضيين الوظيفيين. لم أحتج لأن أحفر: ردمت بحيرة بِنفينغوت القديمة. قسم كبير من الآلات باعها لي بسعر التصفية صديق من برشلونة، وهو صناعي أفلسَ أمام موجة الشركات الأجنبية. حصلتُ على خدمات أخسّ بنّاء في ثِنا، فقط كان عليّ أن أضغط قليلاً عليه (وهو ضغط بدوره على العمّال) وكان ملك يديّ. كانت النتيجة رائعة ولا أحد أراد أن يعترف بذلك. أسألُ: من كان قادراً على عمل شيء شبيه بمثل هذه السرّيةِ الصارمة منفقاً قليلاً من المال. من السهل الآن الكلام عن ٢٠، ٣٠، ٤٠ مليون مختفية، لكنني أستطيع أن أؤكّدَ أنني سطوت على مبلغ أقل من هذا بكثير. أخيراً أعرفُ أنّ أحداً لن ينهض ويقول: أنا أستطيع أن أفعل أفضل من ذلك. ليس قصدي أن أقدّم نفسي كمثالٍ يُحتذى. أعرف أنني ارتكبتُ خطأ. قد تخسر بيلار الانتخابات بسببي. لقد تسبّبت بسوء السمعة لرفاقي السياسيين. وأفلتّ دون قصد قطيعَ ذئاب على نوريا. كنتُ مسخرة إسبانيا على الأقل لليلتين ومسخرة كتلونيا خلال أسبوع بكامله. صار اسمي محطّ سخرية حتى في أحطّ البرامج الرياضية في الإذاعة. لكن بين هذا واعتباري قاتلاً هوّة سحيقة. أُقسم إنّني لم أقتلها. في ليلة القتل كنتُ في بيتي، نائماً نوماً متقطّعاً، تلفّني الكوابيس في ملاحف مُبلّلة بالعرق. من المؤسف أنّ نومَ أمّي ثقيل ولا تستطيع أن تشهد على ذلك.

رِمو موران:

الصحف والمجلات شهرتها

الصحف والمجلات شهرتها في كلّ البلد، يقولون، تخطّتْ الحدود؛ صورتها أعيد نسخها في الصحف الفضائحية في أوروبا؛ سموها امرأة قصر بِنفينغوت الغامِضة، رياضيّة الجحيم، المُتَزَلّجة صاحبة النظرة الملائكيّة، محطّ الرغبة الإسباني. الجمال الذي أهاج كوستا برافا. بعد قليل من انتشار الفضيحة طُرِدتْ من اتحاد التزلّج وتبخّرت كلّ آمالِ العودة إلى عالم المنافسة. عرضت عليها إحدى مجلات برشلونة مليوني بيزتا مقابل أن تصورها عارية، ونصف مليون مقابل قصّة الأحداث الكاملة التي وقعت في قصر بِنفينغوت. هناك من قال إنّ إنريك روسكيّس يُغطي على نوريا وإنّها القاتلة الحقيقيّة، لكنّ هذا الاتهام لم يكتب له النجاح: في ليلة الجريمة، التي يُقدّر الخبراء أنّها وقعت حوالي الساعة الثالثة صباحاً، هي كانت في بيتها، واستطاعت أمّها وأختها أن تبرهنا على ذلك. ولمزيدٍ من وفرة الأدلّة: بمحض تجمع المصادفات التي ليس مجالها هنا باتت عندها في تلك الليلة صديقة من إكس. تحادثتا حتى ما بعد الساعة التي حدّدها الخبراء ونامتا في غرفة واحدة. لم تتردّد الصديقة في التصريح بأنّ نوريا لم

تتحرّك من غرفتها طوال الليل. بالنسبة لسوء حظّها، الذي ظهر بأكثر من شكل، فإنّ أكثر ما أثّر فيها هو طردها من فريق التزلّج، الذي لم يسمح لها ولا حتى بالتقدم إلى المنتخب النهائي. فجأة وفي أفضل لحظة انتهت المنحة أو الأمل بمنحة، الميداليات أو الأمل بميداليات. تكلّمت، نظراً لأنّها تحوّلت إلى خبر، ما من أحد أنكر عليها ميكروفوناً، في كلّ وسائل الإعلام التي أرادتها، وخاصّة البرامج الرياضية الليلية والتأثيرية ضدّ المدراء والمدرّبين، الذين بالاستناد إلى بعض الحكّام أبعدوها من دون وجه حقّ عمّا كان بالنسبة إليها أكثر من مهنة. استعانت بالدستور وحاولت أن تُدافع عن نفسها، لكن من دون جدوى. سمعتُها ذات ليلة أنا وأليكس ونادل في البار الذي كان قد خلا من الزبائن. كان المذياع المحمول يبدو شبحاً من كوكبٍ آخر، بين صندوق بيرة والبرّاد. لو لم تفعل ذلك لكان أقل إيلاماً: قادها المذيع على امتداد عشرين دقيقة حاول خلالها ببراعة ووحشيّة أساءَ تمويهَهُما بالشفقة، إلى مجال الاغتصاب العلني. عادت نوريا بعد أسبوع إلى ثِتا. كانت منهكة ويُلاحظ في عينيها آثار حمّى. لم تكن تريد أن يروها في المطاعم ولا الأماكن المطروقة كثيراً، أيضاً لم تكن تُريد أن تبقى في البيت. حين ذهبتُ في طلبها، اقترحتُ أن نأخذ السيارة في طريق ثانوي يمرّ ببيوت ريفية تحوّلت إلى استراحات. تكلّمت خلال الطريق عن إنريك. قالت إنّها أساءت التصرّف معه، إذ بينما كان المسكين يذوب في السجن كانت هي تصارع (وللطامة عملت من نفسها مسخرة) كي تستعيد فرصتها للحصول على مكان في الفريق الأولمبي؛ وإنّها كانت تشعر بنفسها أنانية إلى حدٍّ مريع. قالت إنّها كانت تعرف منذ البداية بأن إنريك يُحبُّها، لكنّها لم تولِ الأمر أهمّية كبيرة أبداً. هو لم يكشف قط عن مشاعره،

ربّما لو أنّه حملها إلى السرير لكانت الأمور مختلفة الآن. قالت لي إنها عاشت في برشلونة في بيت صديقة لها وإنّها عانت في البداية كثيراً: كانت تبكي طوالَ الليل حتى يسرقها النوم، وترى كوابيس فيها العجوز المقتولة، كان يؤلمها رأسها وترتجف يداها حين يزورها أحد. وذات مرّة في ملحقات معهد التربية البدنية، صادفت خطيبها القديم، الذي تصرّف كأحمق. ناما معاً وفي الثانية عشرة ليلاً غادرت هي مقتنعة بأنّها لن تعود لتراه وهو لم ينتبه لأنه كان نائماً. لم تقل كلمة واحدة عن المقابلات والدعاوى التي كانت تُفكّر أن تقوم بها ولا أنا سألتُها. كانت تُريد أن تزور إنريك في السجن وترغبُ بأن يُرافِقها أحد. قلتُ لها أنا مستعد لأن أذهب معها، لكنّ الأيام مرّت ولم تعد نوريا لتتطرّق إلى الموضوع. كانت تَظهر في الفندق، في الساعة المعتادة دائماً فنصعد على الفور إلى غرفتي حيث كنّا نمكث حتى تبدأ تُعْتِم. في السرير كانت تتكلّم دائماً عن العجوز وقصر بِنفينغوت. قالت بينما كانت تأخذها الرعشة إنّ عليّ أن أشتريه. ليس عندي مال يكفي، قلتُ. شيء مؤسف، قالت، لو كان معنا مال كثير لاستطعنا أن نذهب من هنا إلى الأبد. من أجل هذا بلى، معي مال، قلتُ، لكنّها ما عادت تسمعني. كانت تُمارس الحبّ بصمتٍ وتتكلّم مع اقتراب الرعشة. لم تكن المشكلة في أنّ نوريا تتكلّم أثناء ممارسة الجنس، بل في أنّها دائماً تتطرّق للموضوع ذاته: جريمة القتل والتزلّج. كانت كما لو أنّها تختنق. ربّما لم تكن المشكلة في أنّها تتكلّم دائماً عن الشيء ذاته، بل في أنّني بدأتُ أصاب بالعدوى، وبعد زمن ليس بالطويل كنّا ننفلت كلانا في سلسلة من الاعترافات والمونولوجات المريعة المليئة بالأنين والسهول المثلجة والعجائز المضاعفات على الجليد لا نقطعها إلا بوصولنا إلى الرعشة.

بماذا شعرت حين رأيتُ العجوز مرميّة وسط بركة الدم؟ هل كنتُ أعرف أنّ لوح حذاء التزلّج بعرضه الذي يبلغ ثلاثة سنتيمترات يمكن أن يُعتبر سلاحاً أبيض؟ ما الذي دفع العجوز للدخول إلى الحلبة هاربة من قاتلها إلى هناك، من منهما انزلق أوّلاً؟ في مرّات أخرى كان إنريك هو هوسُها؛ ما إذا كان إنريك يكرهها، أو ما إذا كان إنريك يُفكّر بها. ما إذا كان إنريك يُفكِّر بالانتحار، أو كان مجنوناً، أو هو من قتل العجوز. طلبتْ مني ذات مساء أن ألوط بها. وبينما أنا أفعل ذلك قالتْ بالتأكيد لاطوا بإنريك في السجن. وعلى الفور فكّرتُ بالبدين وما عادت بي رغبة. حكت لي في مساء آخر أنّها حلمت بدم العجوز. الدم على الجليد شكّل حرفاً لا أحد، لا أنا ولا الشرطة رأيناه. أيّ حرف؟ حرف نون كبير. وفي مساء آخر، وبدل أن نتعرّى أخذنا السيّارة وذهبنا إلى خِيرونا لنزور إنريك. رفضت نوريا في البداية ثمَّ راحت تبكي. كيف استطعتُ أن أكون بهذه الغباوة، قالت، حتى أنّني لم أنتبه إلى أيّ شيء. ما الذي كان عليك أن تنتبهي إليه، هل إلى أنّ إنريك أشاد الحلبةَ من وراء ظهر البلديّة؟ لا، صرخت نوريا، إلى أنّ إنريك كان يُحبّني كما لم يُحبّني أحد. كان حبّي الحقيقيّ وأنا لم أعرف كيف أرى ذلك. وهكذا كنّا نتابع منوِّعَيْن حول الموضوع ذاته إلى أن يأخذ منّا التعبُ كلَّ مأخذ. عرفت سريعاً وأظنّ أنّ نوريا عرفت أيضاً، أنّ ذلك لا يمكن أن يأتينا بشيء حسن. على كلّ الأحوال لم نكن قط قريبين الواحد من الآخر كما كنّا ولم يشتهِ الواحد منّا الآخرَ كما اشتهاهُ في ذلك الوقت.



غاسبار هِرديا:

حضرت الشرطة إلى المخيّم مرّتين

حضرت الشرطة إلى المخيّم مرّتين في زيارة روتينية وفي المناسبتين تموّهنا أنا والبيروي والسنغالية وكاريداد في ملاعب الكرات. من أجل هذا هذه المُباغتات كان البيرويّ يحتفظ بعدّةِ أطقمٍ من الكرات في بيتِ كلب، بجانب الملاعب. وحين كان الوضعُ يتطلّبُ ذلك يمتطي درّاجته ويمرّ على المغاسل وعلى خيمتي ويدعونا صارخاً لنلعب شوطاً. ومع الوقت صرنا هواة الكرات الخشبيّة، صرنا حين يحلّ الظلام ندخل في ألعاب تصبح في كلّ مرّة أطول وأكثر منافسةً. كان البيروي وعاملة الاستقبال والسنغالية يشكلون فريق المناوبة النهارية وأنا وكاراخيّو وكاريداد الفريق الآخر. كان لنا ضباطنا أو مسددونا أو هدّافونا، لم نعرف ما هو المصطلح الصحيح أبداً، وضاربونا أو مستهلونا أو منظفونا. عادة ما كنّا نلعب على نور الكهرباء، تماماً حين كانت تبدأ الظلمة وليس دائماً في ملاعب الكرات، فأحياناً كنّا نلعب في طريق مدخل المخيّم، بجانب البار، أو بجانب المغاسل، إذا لم تكن السنغالية قد أنهت عملها. لم تتأخر كاريداد في أن برعت كمستهلّة، مثلها مثل السنغاليّة، بينما صار كاراخيّو والبيروي مسدّدين ماهرين وأنا وعاملة

الاستقبال مجرّد لاعبين سيئين. انضمّ إلينا في بعض المساءات أليكس بوباديّا، حالاً محلّ عاملة الاستقبال، بحماس أكثر مما بفعالية. أخيراً قرّرنا أن نُشكّل منتخباً من مجموعتينا ونشارك في مباراة الكرات التي كانت تُقام في كلّ عام في المخيّم كختام للموسم. المختارون هم كاراخيّو، البيروي والسنغاليّة. البقية، وهنا تُضَمّن امرأتا النظافة اللتان كان عندهما من العمل المتعدّد الوجوه أكثر مما يسمح لهما باللعب، كنّا نكتفي بالتشجيع والنقد وشرب البيرة. كان البيروي وعاملة الاستقبال قد حدّدا في تلك الأيام موعد زواجهما فراح يطفو في الجوّ نوع من الثقة والهدوء، كما لو أنّ الأمور تتصالح فيما بينها بطريقة نهائية، وإن كان يُعرف أنّ لا شيء نهائيّ. أحرز فريقنا المرتبة الثالثة. حصلنا على كأس وضعها بوباديّا وكاراخيّو في مكان بارز على رفّ في غرفة الاستقبال. ترطّب الجوّ وبدأتُ أضع خططاً لليوم الذي سيصل فيه عملي إلى نهايته. في الحقيقة لم يكن لديّ أدنى فكرة عما كان سيجري. كان العيش في المخيّم، كما تقول كاريداد، أشبه ما يكون بالإجازة؛ بإجازة مفتوحة. بالنسبة إليّ كان كما لو أنّنا عائدون إلى المدرسة: كنتُ أنطلق من الصفر. كنّا نسمي الخيمة الكندية بيتنا، لا أدري تدليلاً، أم رغبة بقول نكتة أم لأنّها كانت حقيقةً بيتنا. في الصباح، بعد انتهاء العمل، كنّا نذهب إلى الشاطئ، كاريداد نصف نائمة تقفز قفزات صغيرة على بلاط الرصيف المكسّر؛ كنّا نذهب ملفوفَيْن في مناشف لأنّ الطقس في مثل تلك الساعات كان بارداً ونتشمّس إلى أن تُغمض أعيننا. كنّا نستيقظ في الثانية أو الثالثة مساءً. وسرعان ما احمرّت وجنتا كاريداد. العمال، بما فيهم روسا وأثوثِنا، الذين ارتابوا منها في بداية الموسم، صاروا يُقدّرونها، ربّما لأنّها كانت جاهزة دائماً لأن تمدّ يد المساعدة إليهم،

سواء في المغاسل أو مختلف أعمال الصيانة، بما في ذلك الاستقبال، وتساعد البيروي وعاملة الاستقبال في النهار كي يستطيعا أن يذهبا ليتناولا قهوتهما. مع ظهور أولى علامات الخريف راح الجميع يضعون خططهم، باستثنائنا. السنغالية فكّرت أن تقوم بأعمالٍ منزلية في البيوت الخاصّة، الأختان ستعودان إلى بارت، البيروي كان يأمل بالحصول على عمل في بعض مكاتب المتابعة، أو الشركات العقارية في ثِتا، ما إن يُسوّي وضعَهُ القانوني، وكاراخيّو سيقضي شتاءً آخر محبوساً في غرفة الاستقبال، حارساً المخيّم المقفر. حين كانوا يسألوننا ما هي مشاريعنا، لم نكن نعرف ماذا نقول. كانت صيغة الجمع في السؤال تُخجلنا. ربّما سنعيش في برشلونة، كنّا نقول وينظر كلّ منا إلى الآخر من طرف عينه. أو سنُسافر، أو أن سنذهب إلى مراكش، أو سندرس، أو سيذهب كلّ منا في اتجاه. في الأعماق فقط كنّا نعرف أنّنا عالقان في الهواء. لكنّنا لم نكن خائفين. كنتُ أحياناً في الليالي، حين أتجوّلُ في المناطق المعتمة، حيث الخيام العائليّة فارغة ومغطاة بإبر الصنوبر، وفي المناطق الخالية، أُفكّر بحلبة الجليد، وكان هذا فعلاً يُخيفني. كان خوفاً من أن يكون هناك شيء من الحلبة، عالقاً، متخفياً في الظلمة. كان يصير مرئيّاً أحياناً على الحضور (الشبح) الهواءُ والجرذان التي تتنقل بين الأغصان، عندها كنتُ أذهب، متفادياً الركض، لكن بسرعة ولم أكن أطمئنّ إلا حين أسمعُ التنفس الطبيعي لكاريداد على الطرف الآخر من القماش الأصفر الذي كان يحمي خيمتنا، وأستطيع العودةَ إلى العمل.

إنريك روسكيس:

لم يأتِ لزيارتي، إضافة إلى أمّي
وبعض الخالات وأبناء الخالات

لم يأتِ لزيارتي، إضافة إلى أمّي وبعض الخالات وأبناء الخالات، الذين جاؤوا يدفعهم نوع من الشعور بالواجب الأسري والتضامن النموذجي، غير لولا ونوريا، اللتين كان حضورهما يُعادل حشداً والشعورُ بالصداقة والتضامن كان أيضاً نموذجيّاً. أوّل من ظهر كانت لولا وقد فاجأني عملها كثيراً وأدخل من السرور إلى نفسي ما جعلني أجهش بالبكاء في قاعة الزيارات. بعيدة صارت حالات سوء فهمنا وتوتراتنا ومشاكل عملنا. عندما رأيتُها، عرفتُ أنني لم أخطئ: ليس مهمّاً أنني الآن الموبوء، فمساعدة اجتماعية حقيقيّة دائماً تأتي إلى مكان الألم، وكانت لولا، من دون شكّ، مساعدة اجتماعية من أخمص قدميها وحتى رأسها. هي الوحيدة من بين كلّ فريق عملي الكبير التي لم تُداهني قط (لا أُنكر أنني قد انتقدتها في أكثر من مناسبة أمام الآخرين، وأنّها استطاعت أن تُغضبني، وفكّرت أن أرسلها منفيّةً إلى عملٍ مكتبيّ) وكانت الوحيدة التي تجرّأت على زيارتي حين وقعت في الكارثة. هكذا

هي الأمور ولم يتأخر الوقت كي أستخلص الدرسَ: الكائنات الخانعة خائنة والأفضل ألا يوثَق بها. هذا ما يجب أن أتذكّرهُ حين أخرج من السجن. لأنني أفكّر بأنّ أخرج، لا ينتَبْكُمْ شكّ بذلك. لكن لنعد إلى ما كنتُ بصدده: جاءت لولا لزيارتي، فرحة وحيوية كما هي عادتها، وحين جففت دموعي قالت إنّها واثقة من أنني لا يمكن أن أكون قاتل العجوز (زبونتها، أي زبونتنا، من ناحية أخرى) وأنّ كلّ شيء سينجلي. كانت الأمور في ثِنا في غاية السوء: يقوم على مكتب الخدمات الاجتماعية شخص مدعوم من قسم المعارض والأعياد، وللطامّة الكبرى أراد أن يلفت الانتباه (أمام من؟ لا أحد يعرفُ) بإصلاح نظام رعايتي القديم شابكاً الأشياء بعضها ببعض، وهو ما كان يُشجّع الكثيرين على أن يُفكّروا جدّياً بتغيير في الجوّ. كان بعضهم يَشْتَمُّ رائحةَ هزيمةِ بيلار في الانتخابات المقبلة، وآخرون لن يغفروا أنّهم لم يؤخذوا بالحسبان في إعادة الهيكلة. أظنّ أنّ لولا كانت من بين هؤلاء الأخيرين، فقد حكت لي أيضاً أنّ نقلها إلى بلديّة خيرونا كان واضحاً: كانت ستكسب أكثر، وكانوا يؤمنون لها الإشراف على البرامج التي وضعتها هي نفسها. بدا لي هذا نوعاً من التمييز المموّه، معظم مشاجراتنا بدأت بسبب برامج كتبتها لولا وكنتُ أغيرها، أعدّلها كي تكون مناسبة وأصحّحها أو ببساطة ومن دون مجاملات كنتُ أرمي بها إلى سلّة المهملات، لكنني الآن وبعد زيارتها صرتُ قادراً على أن أقبل أيّ نوع من التمييز، مستور أو لا. بل وأكثر من ذلك، أقوله مرّة وللأبد: كانت لولا أفضل من تآزر معي وإذا كانت ستذهب هي بعد ذهابي، مساكين الأطفال الذين عندهم مشاكل، مساكين سكان ثِنا، ذوو الأوضاع الخطيرة. طبعاً تمنيتُ لها أعظم حظ في عملها الجديد، بل وتمازحنا حول ما سأفعله، أتكلّمُ عن

العمل، عندما أخرج من هذا الكهف. دارت بقية الحديث حول وضعي الحالي، والطعون الشرعية وغير الشرعية التي كانت تعتريه. بعد أيام ظهرت نوريا فأنارت زيارتُها، التي كثيراً ما انتظرتها ورغبت بها، وتوقّعتُها وخفتها، كهفَ الألم هذا بنورٍ ما زال أقوى من نورِ صداقة لولا الرصينة. تكلّمنا قليلاً، كلانا بصوتٍ أجشّ، لكننا قلنا كلّ الذي كان علينا أن نقوله. كانت نوريا أكثر نحولاً بكثير، وترتدي ملابس رجل، بنطلوناً وسترة سوداء، قديمين وفضفاضين، كما لو أنهما كانا لأبيها. كانت عيناها محمرّتين، وهذا ما جعلني أفترضُ أنها بكت قبل أن تدخل. سألتُها كيف حالها. وحيدة، قالتْ، أقضي الليالي باكيةً ومُتَفَكِّرة. مثلي تقريباً. حين غادرت رأيتُ أن حذاءها كان أيضاً لرجل: كبيراً وأسود ومدعماً بمعدن ونعل قاسٍ، مثل حذاء التزلج الضخم. كلاهما، لولا ونوريا تركت لي هديّة. هدية لولا كانت كتاباً لِرِمو موران، وهدية نوريا، كتاباً عن التزلّج بامتياز، *القديسة ليفينا وبراعة الجليد* لهناري ليافِبري[1] في طبعة فرنسية للونا بارك، بروكسل. لا يوجد سواء بالنسبة لمن هو في مشفى أو في سجن ما هو أكثر حضوراً من الكتاب. الوقت هو الشيء الوحيد الذي يقبض عنّي، مع أنّ مُحاميّ يقول لي إنّني سرعان ما سأكون في الشارع. اتهامي بالقتل ليس له أساس وعليّ فقط أن أردّ على اتهام النصب. ريثما تمرّ الأيام وتقترب لحظة إطلاق سراحي أتفرّغ للقراءة وترتيب هذا المكان قليلاً. طلب منّي مدير السجن، وهو موظّف مُكلّف مرتبك إلى حدّ لا أعرف إن كان بسبب وجودي أم بسبب الجوّ حوله، أن أساعده في تنظيم حظيرة الخنازير تلك. قلت له يستطيع

(١) Henri Lefèbvre

أن يعتمد عليّ ضمن إمكاناتي. مدير السجن شابّ، قشتاليّ، أعزب، بعمري تقريباً وأظنّ أنّنا استلطفنا بعضنا بعضاً. حضّرت له خلال يومين دراسة عن الواقع تُرَكِّزُ على العامل الصحّي والاكتظاظ، مع تقييماتٍ، واقتراحات وتبريرات. بيّضها سجين كان يعمل في المكتبة، وهنّأني مديرُ السجن بحرارة بعد أن قرأها، واقترح عليّ أن نوسّع الدراسة فيما بيننا وأن نرسلها إلى مسابقة «مشروع السجن الأوروبي». الفكرة ليست سيّئة.

رِمو موران:

لا يمكن التحالف مع الله والشيطان في آنٍ معاً

لا يمكن التحالف مع الله والشيطان في آنٍ معاً، قال لي الغرُّ بعينين مغرورقتين بالدمع. عمره ثمانية وأربعون عاماً وعاملته الحياة «أسوأ من (معاملة) الجرذ». الآن، والشواطئ تفرغ، وجودي معه هناك كوجودي في الصحراء. الآن! ما عاد يعمل بالبحث عن صناديق الكرتون. يتسوّل. بل يُغادر صحراءَه في ساعة ما غامضة ويضيع في بارات المدينة القديمة، طالباً ما تجود به الأنفس وهذا الكأس أو ذاك، كي يعود بعدها إلى الشاطئ، حيث يُفكّر أن يبقى، بحسب ما يقول، للأبد. ظهر يوماً في الفندق بينما أنا وأليكس نعمل في حسابات المطعم الفارغ من الزبائن. نظر إلينا، من بعيد، بعيني خروفٍ مذبوح وطلب منّا نقوداً. أعطيناها له. عاد في ليل اليوم التالي ليظهر في باب مطعم الفندق، لكن في تلك المرّة كان هناك ناس: متقاعدون هولنديون يُنَظّمون حفلةَ وداع. أخرجه نادلٌ، كما في الأفلام، ممسكاً إياه من قبّة قميصه وزناره. لم تصدُرْ عن الغرّ أدنى مقاومة، وترك نفسه يسقط على الأرض ببنيته الهزيلة والوديعة. كنتُ خلفَ طاولةِ عرضِ البار أغسلُ كؤوساً ورأيتُ كلَّ شيء. قلتُ فيما بعد للنادل ليس يُعامَل الناس هكذا، حتى ولو ضحك

الهولنديون كثيراً لطرده. أجابني النادلُ بأنَّ أليكس هو الذي أمر بإخراجه بتلك الطريقة. حين انتهت الحفلةُ سألتُ أليكس لماذا تصرّف بتلك الطريقة القاطعة مع المتسوّل المسكين، الذي لم يكن ليفعل شيئاً. قال إنه لا يعرف، غريزياً يرتاب بالغرّ. يُفضّل ألا يراه يطوف في الفندق. أيضاً أنا لا أحبّ أن أراه. ما الذي يزعجك فيه أيضاً؟ سألتُه. عيناه، قال أليكس، عينا المجنون. أذهبُ ليلاً إلى الشاطئ وأجد الغرَّ نائماً تحت مظلة محلِّ البوظة المعدنيّة. للشاطئ رائحة أشياء حلوة ومتفسّخة، كما لو أنّهم نسوا داخل أحد الأكشاك المغلقة أمام الجمهور حتى الصيف المقبل، جثة رجلٍ أو كلبٍ إلى جانب صناديق فيها بقايا بوظة. تكلّما، أنا واقف والغرّ مستلقٍ على الرمل ووجهه ملتفت إلى الجدار الاستنادي أو مخبئاً وراء أصابعه الغريبة الشبيهة بالأنابيب. لا شكّ أنّك تعرف مكاناً أفضلَ تنام فيه، قلتُ له. بالتأكيد أعرفُ قال الغرُّ مُجهِشاً.

غاسبار هِرديا:

حدث ذات ليلة شغب كبير في شرفة البار

حدث ذات ليلة شغبٌ كبير في شرفة البار وراح النادل يبحث عن الحرّاس. طلب كاراخيّو وهو نصف نائم، أن أذهبَ أنا أوّلاً وأرى ما كان يحدث، وهو سيلحق بي، إذا ما تطلّب الوضعُ ذلك. كانت الساعة تقارب الثالثة صباحاً. حين وصلتُ إلى الشرفة وجدتُ ألمانيين عملاقين، وجهاً لوجه، لا يفصل بينهما إلا طاولة ما تزال تظهر عليها بقايا عشاء وزجاج كؤوس مكسورة. الصدام بينهما كان يبدو حتميّاً، والمشاهدون القليلون متوارون خلف الأشجار والسيارات، ينتظرون أن يبدأا بقتل بعضهما بعضاً بين لحظة وأخرى. في يد كلّ ألمانيّ زجاجة بيرة فارغة، كما في أفلام عصابات الإجرام، باستثناء أنّهما في هذه الحالة، من الغريب أنّهما لم يكسراهما بعد على الرغم من أنّ المشاجرة كانت قد بدأت منذ برهة، على الأقل من ناحية الشتائم والتهديدات، ويكتفيان بالتلويح بهما متحدّيَيْن. كلاهما، بحسب ما أدركتُ، حين اقتربت، كان سكران كفاية، كان شعرهما أشعث، ينفثان لعابهما وعيونهما خارج مداراتها، أذرعهما مقوّسة، مغموسة في عالم المعركة التي تنتظرهما بلامبالاة تسود كلّ ما لم يكن على علاقة بها. كانا

يتكلّمان: لا يتوقّفان عن الشتم، رغم أنّ الصحيح هو أنّني لم أفهم كلمة واحدة، لكنّ الأصوات الحلقيّةَ الساخرة والوحشية التي كانت تخرج من بين شفاههما لم تكن تتركُ مجالاً للشك. عمليّاً كانت الكلمات الألمانية هي الوحيدة التي راحت تُسمع على امتداد المخيّم، وإن كانت تُسمع أصواتُ احتجاجٍ خفيفة وبعيدة من العدد المحدود من الزبائن الذين لم يناموا بعد، خاصّة القادمة من الخيام القريبة من محيط الشرفة. الاحتجاجات، التي لا أعرف لماذا جاءت مُقلِقة، كانت غير مفهومة مثلها مثل زمجرات الألمانيين. كانت تصل مُخفَّفة يحملها نسيم الليلي، غير مادّية وحالمة تخلق، على الأقل هذا ما بدا لي، نوعاً من القبّة التي كانت تُغطّي المخيّمَ بكلّ ما كان فيه، سواء كانت أشياء حيّة أو أشياء ميتة. فجأة ولمفاقمة الوضع نبّهني صوتٌ في رأسي يقول: إنّ الوحيد الذي يستطيع أن يكسر القبّة هو أنا. وهكذا بينما أنا أتقدّم في الشرفة باتجاه الألمانيين انتابني شعور بأنّ كاراخيّو لن يظهر كما لن يتدخّل أيّ من الذين كانوا يراقبون المشهد، الذي كان في كلّ مرّةٍ أكثر واقعيّة مما سيُقرّر الألمانيان تصعيده معي قبل المعركة، حدستُ أنّ شيئاً ما سيجري (أو ربّما أنّني الآن أُفكّر بهذا ولم يكن وقتها ينتابني إلا قليل من الخوف) وأنّ كلّ خطوة كنتُ أخطوها باتجاه المتشاجرين كانت نصف الخطوة التي أخطوها تجاه نفسي. السير باتجاه الأخوين كورسو. ليس همّاً. تهيّأت لتلقي صفعة، ولأرى ماذا سيجري بعدها. وبهذه الروح وصلتُ إلى جانب الألمانيين وأمرتهما بنبرة ودّية، ليست عالية جدّاً، أن يُغادرا الشرفة ويذهبا إلى النوم، وجّه الألمانيان نحوي فرطوستيهما، ووسط هاتين مثل أسماك طيارة، سبحت عيونهما الزرقاء عبر التسمم الإتيلي وانغرزت فيّ أوّلاً ثمّ في جذوع الأشجار، ثمّ في

المصابيح المتدلية من بعض البيوت المقطورة وأخيراً في نقطة غير محدّدة تماماً خلف ظهري، كما لو أنّهما يعيدان تركيب الصورة الحقيقيّة، في شيء كان يتبعني، لكنّني فضّلت ألّا ألتفت لأتحقّق منه. الحقيقة هي أنّني كنتُ متوتّراً كفاية، ومع ذلك شعرتُ بعد بضع ثوانٍ بتغيّر في موقفِ الألمانيين، كما لو أنّهما في تفحّصهما للمشهد اقتنعا بخطورة اللعبة التي كانا يُفكّران أن يلعباها؛ فعادت عيونهما إلى محاجرها مخفّفة من العنف منقطع النظير الذي يسبق العنف الجسدي. تمتم أحدهما، ربّما الأقلّ سكراً، بسؤال. دوّى صوته بنبرة براءة ونقاء غريبة. ربّما تساءل: ويحنا ما الذي نفعله. كرّرتُ عليهما بالإنكليزية أن يذهبا إلى النوم. لكنّ الألمانيين لم يكونا ينظران إليّ، بل إلى شيء خلفي. فكّرتُ لثانية، أنّها قد تكون خدعة: إذا ما التفتّ سينقضّ عليّ الوحشان مُطلقَيْن صرخات حرب. ومع ذلك انتصر الفضول ونظرتُ من فوق كتفي. ما رأيته فاجأني إلى حدّ أنّني أفلتّ المصباح: فانفجر على الإسمنت والمدخرات (كثيرة، مدخرات أكثر من اللازم) راحت تتدحرج حتى ضاعت في الظلمة. خلفي كانت كاريداد تشهر بيدها سكين مطبخ عريض الشفرة كأنّها تستحضر عبر الأغصان نوراً عتيقاً قادماً من الغيوم. من حسن الحظّ أنّها غمزتني، وإلّا لكنتُ اعتقدت أنّ من كانت تريد أن تقبر فيه السكين هو أنا. الحقيقة أنّها كانت تُشبه شبحاً. وبرقّة لا تخلو أبداً من رعب كانت تشهر السكين كما لو أنّها تشهر ثدياً من ثدييها. ولا شكّ أنّ الألمانيين انتبها ويبدو أنّهما كانا يقولان بنظرتهما لا نُريد أن نموت ولا أن نُجرح، كنّا نمزح، لا نريد أن يكون لنا أيّة علاقة بهذا. اذهبا إلى النوم، قلتُ فذهبا. انتظرت حتى رأيتهما يبتعدان داخل المخيّم مستنِدَين الواحد إلى الآخر، سكرانين عاديّيْن وطبيعيين. بدأ المُخيِّمون

الذين كانوا يُراقبون المشهدَ من خيامهم يشكّلون شيئاً فشيئاً حلقات وهم يتمطّون ويشعلون سجائر ويعلّقون على اللعبة. لم يتأخروا في الصعود إلى الشرفة ودعوتنا للشرب. جمع أحدهم مدخرات مصباحي وأعطاني إيّاها. فجأة وجدتُ نفسي أشرب نبيذاً وآكل أصدافاً بحرية في فناء خيمةٍ هائلة كبيتٍ حيث كانت تتالى أعلام كتلونيا والأندلس الورقيّة. كانت كاريداد إلى جانبي مبتسمة. سيّدة متقدّمة في السن راحت تربت على ذراعيّ. وأخرى كانت تُطري على عريكة المكسيكيين. تأخّرت في الانتباه إلى أنّها كانت تُشير إليّ. فهمت أنّه ما من أحد رأى السكين في يد كاريداد، باستثناء الألمانيين وأنا. عُزيَ ذهاب هذين السريع إلى تصميمي على فرض النظام في المعسكر. المصباح الساقط فُسّر على أنّه حركةُ غضب قبل أن أشرع لإخراجهما صفعاً وضرباً؛ وحضور كاريداد على أنّه قلق العاشقة. تلاشت أحداث الشرفة بين الأشجار والظلال. ربّما كان هذا هو الأفضل. حين عدنا إلى الاستقبال كان كاراخيّو ينام بعمق وبقينا برهةً جالسَيْن في الخارج، نترطّب دون أن نتبادل كلمة واحدة، نتأمّل على الطريق نوراً نطّاطاً كالسلمون ينشر جوّاً مشابهاً لجوّ غوّاصة. قالت كاريداد بعد قليل إنّها ذاهبة لتنام. نهضتُ فرأيتُها تعبرُ النور إلى داخل المُخيّم. لا بدّ أن السكين كانت تشكّل حجماً تحت بلوزتها، لكنّني لم أميّز شيئاً، وفكّرت لثانية أنّ فتاة السكين لا تعيش إلا في مخيّلتي.

إنريك روسكيّس:

روايتان مهداتان

روايتان مهداتان. *القديسة ليدفينا وبراعة الجليد*، كتاب صغير مصوّر بمهارة حول القديسة حامية المتزلّجين. تجري أحداث الرواية في العام ١٣٦٩ وتركّز بطريقة تكاد تكون وسواسيّة في مساء يبدو لنا بالغ الأهمّية بالنسبة للشخصية الوحيدة. قديسة شايدم ليدفينا التي بقيت غارقة لساعاتٍ في بحر من الشكوك، تتزلّج بينما علامات الليالي الأولى تظهر في الأفق. النهر المتجمّد موصوف في بعض الصفحات كـ«ممرّ» وفي آخر كـ«سيف» بين النهار والليل. تتزلّجُ القديسة الفتيّة والجميلة، لكن أيضاً العابسة قليلاً، غير مبالية بالظلمة التي تقترب. يقول لنا الكتاب إنّها تخطّ المسافة بين جسر وجسر آخر، قرابة الخمسمئة متر تقريباً. فجأة يحدث تبدّل، تضاء عيناها، وتعتقد أنّها تفهم المعنى الآخر لتمرينها. تماماً في تلك اللحظة تقع وينكسر لها («مُنْسَحِقَةً») ضلعٌ. هنا ينتهي الكتاب، لكن ليس قبل أن يعلمنا أنّ سانتا ليدفينا تستعيد عافيتها بعد هذا الحادث وتعود للتزلّج، إذا أمكن قول ذلك، بسعادة كبيرة رواية رِمو موران تحمل عنوان *القديس برناردو* وتحكي مآثرَ كلبٍ من هذه

السلالة أو رجلٍ اسمه بِرناردو، طُوِّب لاحقاً، أو شرير يكنى بذلك. يعيشُ الكلبُ، أو القديسُ أو الشرير في سفوح جبل كبير مثلج وفي كلّ أحد (وإن كان يقول أحياناً كلّ الأيّام) يتفرّغ ليجوب قرى المنطقة الجبلية وليتحدّى بالمبارزة كلاباً أخرى أو رجالاً آخرين. وتبدأ همّة كل الذين تعاركوا معه تتصدّع مع الزمن فلا يجرؤ أحدٌ على أن يتوجّه إليه بكلمة. يعملون له، يقول نصيّاً «قانون الجليد». ومع ذلك يثابر بِرناردو، يستمرّ بجولاته كلَّ أحدٍ في قرى سفح الجبل ويتابع تحدّيه بالمبارزة لمن لم يعلموا ويتأخروا بتفاديه. يمرّ الزمن ومنافسو الكلب أو الرجل يشيخون، وينسحبون من الحياة العامّة، بعضهم ينتحر وآخرون يموتون موتاً طبيعيّاً والغالبية تنتهي مآوي عجزة كئيبة. أيضاً بِرناردو يشيخ من ناحيته ومع الشيخوخة والوحشة، نظراً لأنّه لا يعيش في قرية، يبدأ يصير غضوباً صعب الإرضاء. طبعاً تستمرّ المبارزات والمنافسون في كلّ مرّة أكثر شباباً، التفصيل الذي لم ينتبه بِرناردو إليه، لكنّه يُدركه لاحقاً كما لو أنّهم أنزلوا به ضربة دبوس. لا يوَفِّرُ موران دماً، يسيل جارفاً، ولا حمامات سائل منوي، ولا دموعاً فالتة من عقالها بأدنى ذريعة. في منتصف الرواية يهرب بِرناردو من سفوح الجبل الكبير («مُحرّكاً ذيله») ويمضي فترة في وادٍ وأخرى متبعاً مجرى النهر. حين يعود إلى البيت يجد كلَّ شيء على حالِه. كانت المبارزات في كلّ مرّة أكثر عنفاً وتتضاعف في جسدهِ النُدُبُ وآثارُ الجراح. شارف في إحدى المناسبات على الموت، وفي أخرى تعرّض لكمين عند مخرج إحدى القرى. أخيراً يَصدرُ مرسومٌ يمنع المبارزات في كلّ مكان ويُضطَرّ بِرناردو بعد أن خرق القانون مرّاتٍ متكرّرة، إلى الهرب. عندها وفي نهاية الرواية

يحدث شيء غريب: فبعد أن يُضيع مطارديه، يلجأ إلى كهف، ويتعرّض إلى تحوّل، جسده الهرمُ ينشطر إلى شطرَيْن مماثلين للجسد البدائي. الشطر الأوّل يهرب نحو الوادي مطلقاً صيحات فرح. الشطر الثاني يصعد بتثاقل نحو مرتفعات الجبل الكبير، فلا أحد يسمع عنه شيئاً بعد ذلك.

رِمو موران:

يُدمّرني أن أرى الناس يهربون

يدمرني أن أرى الناس يهربون، قال لي الغرُّ، بينما أنا ما أزال ملتصقاً بهذه البلدة، منتظراً المعجزة. معجزة الحدّ الأدنى أو معجزة الشيء السهل. في المساءات كنتُ أذهبُ لأبحث عنه على الشاطئ فأجده دائماً بجانب محل أحذية التزلّج الذي يقوم عليه شخص ضخم ومشوّه. يبدو الغرّ بجانبه قزماً ويشعر بأنّه محميّ: لم يكونا يتكلّمان، كانا يقتصران على البقاء معاً حتى يحلّ الظلام ويضيع كلّ منهما في الاتجاه المعاكس. كان ذلك محلّ أحذية التزلّج الوحيد المتبقي على الشاطئ ويكاد لا يملك زبائن. ولكي يُساعد الغرّ الرجل كان يجوب أحياناً مسافة من الشاطئ عارضاً أحذية التزلّج، لكن أحداً لم يكن يعره انتباهاً. كانت نوريا قد غادرت في تلك الأيّام ثِتا من دون أن تقول كلمة واحدة، وتعيش الآن بحسب لايا مع صديقة في برشلونة، حيث عثرت على عمل. انتقلت لولا وابني إلى خيرونا. وكان أليكس قد بدأ يعدُّ لإغلاقِ محلات المجوهرات الرخيصة والمخيّم والفندق (وكما هو الأمر دائماً سوف نُبقي على فندق كارتاغو مفتوحاً طوال العام)، وكان يخرج من مكتبه كي يأكل فقط. في المخيّم لم يبقَ غير القليل من الناس وفي

الفندق فقط مجموعة من المتقاعدين الفالتين من عقالهم يقيمون في كلّ ليلةٍ حفلة كما لو أنّهم يحسون باقتراب الموت الأكيد. فضيحة قصر بنفينغوت، وصلت إلى نهايتها وإن كانوا في ثِتا ما يزالون يتكلّمون عن نصب روسكيّس: كان سلاحاً سياسيّاً يرمي به الاشتراكيون والتجمعيون بعضهم بعضاً في صراعهم على البلدية. كانت قد ظهرت إلى العلن فضائحُ أخرى في بقية إسبانيا، والعالم تابع مجراه في الفراغ بثبات. أما في ما يتعلّق بي فقد بدأتُ أسأم من ثِتا وأحلمُ أحياناً بالذهاب، لكن إلى أين؟ لم تكن فكرة أنْ أنقلَ كلَّ شيء وأعيشَ في بيتٍ ريفيّ بالقرب من خيرونا، جيّدة. وكذلك أن عيش في برشلونة، أو أعودَ إلى تشيلي. ربّما إلى المكسيك، لكن لا، كنتُ أعرف في أعماقي أنّني لن أعود: كنتُ خائفاً جدّاً. لم يكن ينقصني غير أن تُثلج، يا مُعلّم، قال لي الغرُّ ذات مساء بينما نحن نمشي في الكورنيش البحري وعلى الشاطئ، من حين إلى آخر كان يُلمح سبّاح شبه مطمور في الرمل، أو يجوب الضفة في الاتجاه المعاكس لاتجاهنا في محاولة يائسة كي يخفض وزنه كيلوغرامات أو كي يحرز لياقة رياضية. لا ينقصني إلا أن يبدأ تساقط الثلج. بلى يا معلّم، قال لي الغرُّ، أنا سكران أو مُخدَّر، عيناي تلمعان من الحرارة، فليغطني الثلج حتى يقتلني.

غاسبار هِرديا:

كان قد بقي أسبوع كي نذهب

كان قد بقي أسبوع كي نذهب. كان بوباديّا قد بدأ يودّع بالتدريج طاقم العمل وذات يوم قالوا لي حين استيقظتُ إنّ روسا وأثويثنا قد عادتا إلى برات. اشترتا قبل أن تغادرا قالب حلوى وحضّرتا حفلة وداعٍ صغيرةً. آلمني الخبرُ وأسفتُ لأنّني بقيتُ نائماً. كانت كاريداد قد خبّأت لي قطعة من الحلوى، أكلتُها في عمق المخيّم وأنا أنظر إلى السياج والظلال التي تتنقل فوق الأبنية المجاورة، الفارغة جميعها تقريباً. كان احتمال مغادرة لِثيا يملؤني قلقاً، ومع ذلك كان محتوماً علينا أن نُغادر. اقترحت كاريداد بينما كنّا ننتظر أن يحدث هذا أن نزور قصرَ بِنفينغوت. رفضتُ رفضاً قاطعاً. فلماذا سنذهب إلى هناك؟ هل أضعنا شيئاً؟ لا شيء. لذلك من الأفضل أن نبقى محبوسين في المُخيّم حتى يوم مغادرتنا النهائيّة لِثيا. بدت كاريداد مقتنعة، لكنّها لم تكن كذلك. في عينيها رأيت الشارة الغائمة التي كنتُ أعرفها، كانت تعمل في وجهها كناقل إلى واقع آخر. العينان الغائمتان، قلت لنفسي، هما نتاج الإرهاق وسوء التغذية. نقطة ومن أوّل السطر. أو بالأحرى: شيء طبيعي أن تُرى عينان سوداوان، سوداوان تماماً غائمتين بهذا أو ذاك النور. لكن في

الحقيقة ما من شيء كان ينجح في تهدئتي. مع كلّ يوم يمضي كان خوفي يزداد. خوفي ممّ؟ لا أستطيع أن أقول ذلك بيقين، وإن كنتُ أظنّ أنّه الخوف من ألّا أعود سعيداً. كان مهمّاً أن أتسلى حين أكون وحدي، أن أكتب أرقاماً على ورقة أو بعودٍ على الأرض: المال الذي كان رِمو موران مديناً لي به، إضافة إلى تصفية حسابي عن الأشهر التي سيتأخّر كي ينفق حتى أعياد الميلاد تقريباً، أفضل مرحلة كيلا يبقى في الجيب خمس بيزتات، وكنت واثقاً من أنّه في ذلك التاريخ سأكون قد حصلت على عمل، حتى ولو كان دورَ بابا نويل، أو ملكٍ مجوسي، ومرّات أخرى يستحوذ عليّ التفكير بالشرطة. كنتُ أحلم بأقسام الشرطة عند الغسق وقد كنستها الريح، أرشيفات على الأرض، بطاقات صفراء لأجانب معهم أذون إقامة انتهت صلاحيتها منذ سنوات كثيرة. أوراق لا أحد يقرؤها وراح الزمن يمحوها. حالات مؤرشفة وضائعة. وجوه قَتَلَةٍ مؤرشفة وضائعة. جميع المقيمين الشرعيين يستطيعون أن يعملوا الآن، فالحرب قد انتهت. حين كنتُ أستيقظُ أحاول أن أتشجّع قائلاً لنفسي إنّ الأسوأ قد مرّ وانقضى؛ وإنّ كلّ شيء جاء كما يُرام، لكنّ إحساسي بأنّني لا أدوس أرضاً صلبة بقي قائماً. ذات مرّة أخرى سمعتُ وأنا نائم صوتَ كاريداد، خافتاً يقول إنّها تُريد أن تذهب إلى قصر بِنفينغوت كي تنتقم لِكارمن. فتحتُ عينيّ ظنّاً منّي أنّها كانت تُكلّم أحداً خارج الخيمة، لكن لا، فهي كانت إلى جانبي، مستلقية بجانبي، والكلمات هُمست في أذني مباشرة. لماذا نخرّب كلّ شيء مع القصر الملعون؟ دمدمت في منتصف الطريق بين اليقظة والحلم. ابتسمت كاريداد كما لو أنّها بوغِتَتْ وهي تلعب بشيء مشين. لم يكن يُميّز من خلال غطاء الخيمة أي شيء يشير إلى نور النهار، لذلك افترضتُ أنّها أظلمت؛ كان

صمتُ المساء، المساء الخالي من المخيِّمين، يُبَرِّدُ الجسد؛ تَوَلَّدَ عندي انطباع، لا أدري لماذا، بأنّ هناك في الخارج شِبْرَيْن من الضباب. الانتقام لِكارمِن، بأيّة طريقة؟ قلتُ. لم تُجب كاريداد. هل تعتقدين أنّ القاتلَ سيعود إلى مكان الجريمة؟ سألتُ. شعرتُ كيف راحت شفتا كاريداد تهبطان من أذني إلى عنقي وتستقران هناك: أولاً الشفتان، بعدها الأسنان، ثمّ اللسان. استدرتُ، شبهَ مريض، وبحثت عن وجهها. كانت عينا كاريداد قد اختفتا في الظلمة. مسكينة كارمن، قالت، أنا أعرفُ من قتلها. تكلّمنا بهذا مع صديقك رِمو. متى؟ سألتُ. جاء ليراني منذ بضعة أيّام وتكلّمنا عن كلّ شيء. هل يعرف رِمو من قتل كارمِن؟ وأنا أيضاً. ولماذا تريدين أن تذهبي إلى قصر بِنفينغوت؟ عليك أن تذهبي إلى الشرطة، قلتُ وأنا غير قادر على العودة إلى النوم.

إنريك روسكيّس:
أطلق سراحي بعد أسبوع

أُطلق سراحي بعد أسبوع من فوزِ بحثي «مشروع السجن الأوروبي» بالجائزة الأولى الذي رعته الوحدة الاقتصادية الأوروبية. أراح وجودي لفترةٍ في السجن أعصابي، بحسب ما كنتُ أعتقد، والطريقة التي صرتُ أتأمّل بها الواقع الآن صارت أبعد وأكثر رصانة. أبعد وأكثر رصانة بشكلٍ ملحوظ. هناك موقوفون يقولون إنّ وجود المرء داخل وخارج السجن سيّان تقريباً. لا ينقصهم قليل من الحقّ. على كلّ الأحوال أنا كنتُ أُفضّلُ أن أكون في الخارج. كنتُ قد نحلت وتركت شواربي تنمو؛ فيما عدا ذلك صار، حتى ولو بدا هذا متناقضاً، جلدي أكثر برونزيةً مما كان حين دخلت وصحّتي تامّة. عند المخرج وجدتُ أمّي وخالاتي وقبل أن أملك وقتاً لأقوم بردّ فعل وجدتُ نفسي في بيت أحدِ أبناء خالاتي (المعماري) حيث بقيت متخفياً ثلاثة أيّام، خاضِعاً لإرادة عائلة أمّي، فبهذه الطريقة كان يستردّ جزء من المال الموضوع لكفالتي. اعترفت لي زوجة ابن خالتي أنّهم كانوا يخافون من أن أرتكب جنوناً جديداً. الانتحار! يا ملائكة الله! إذا لم أنتحر في السجن، فكيف يمكن أن يفترضوا أنّني سأنتحر في الشارع، محمياً من أهلي؟ لكنّني لم أعاكسهم

وتركتهم يلعبون بي إلى أبعد مدى شاؤوه. في أعماقي دائماً احترمت الحكمة، معرفة كيف أكون من العائلة. خلال هذا الحبس الجديد، فقط تكلّمتُ (بالهاتف) مع مدير سجن خيرونا، الذي لم يكن فقط سعيداً بالجائزة، بل كان يُخطّط لأبحاث أخرى حول عدد من الموضوعات كان يُعَرّفُها بِـ«الاجتماعية». كان خوانيتو، هذا هو اسمه، يُفكّر بأن يطلب إجازة بلا راتب لمدّة عام من الإدارة العامة، إذ عرضوا عليه، إثر الحصول على الجائزة، عملاً في دار نشرٍ مدريديّة مهمّة، وبحسب كلماته، إنّه لن يخسر شيئاً من التجربة. لا أتذكّر ما إذا كانت دار نشر للكتب «الاجتماعية» أم الأدبيّة، ما همّ، فأنا واثق من أنّ خوانيتو سيصل بعيداً. المكالمة الأخرى كانت من أجل العثور على نوريا. تكلّمتُ أوّلاً مع أمّها، ثمّ مع لايا. أخبرتني الأمّ، بتهذيب، لكن بجفاف، بأنّ نوريا لم تعد تعيش في ثِتا وبأنّها، على حدّ علمها، تُفضّل ألا تعود لتراني. تكلّمتُ بعدها مع لايا، وهكذا عرفتُ أنّ نوريا كانت تعمل سكرتيرة في شركة هولندية في برشلونة، وأنّ صورتها ظهرت منذ شهر أو أكثر قليلاً في مجلة ذات بعد وطني. عن أيّ صورة كانت تتكلّم؟ صور عري فنّي، قالت لايا كابحة الضحكة. منذ أكثر من أسبوع حاولتُ الحصول على المجلّة لكن جميع جهودي باءت بالفشل. حلمت في بيتي ذات ليلة أنّني أبحث عن صور نوريا العارية، وأنا أهيم على وجهي بالمنامة في قسم للصحف والمجلات هائل ومغبّر شبيه (تذكُر ذلك يوقف شعر بدني) بقصر بِنفينغوت. كنتُ أقلّب ملفوفاً بهُلام رماديّ، وأنا مخنوق وصامت، رفوفاً وأدراجاً وبيقين غامض بأنّني إذا ما عثرتُ على الصور، سأفهم المعنى، الدافع، المعنى الحقيقيّ والمخفيّ لما جرى معي. لكنّ الصور لم تظهر قطّ.

رِمو موران:

أنا، قتلتها، يا معلّم، قال لي الغرُّ

أنا، قتلتها، يا مُعلّم، قال لي الغرُّ، بينما كانت الأمواج تقترب على فترات منتظمة، في كلّ مرّة أكثر قليلاً، من ركبتيه. كان الشاطئ مقفراً؛ وفي الأفق فوق البحر، تتقلّبُ غيوم سوداء وضخمة. بعد ساعة، فكّرت، ستمرّ فوق ثِنا أول عاصفة خريفية، مثل حاملة طائرات، ولن يسمعنا أحد. (لن يسمعنا أحد؟) لا تسألني لماذا، يا مُعلّم، قال الغرُّ، بالتأكيد أنا نفسي لا أعلم، وإن كان من المحتمل أنني فعلت ذلك لأنني مريض. لكن، مريض بماذا؟. لا شيء يؤلمني. أي شيطان أو إبليس مسّني؟ هل المسؤول هو هذه البلدة البائسة؟ كان الغرُّ على ركبتيه فوق الرمل، ينظر إلى البحر وظهره إليّ، ولذلك لم يكن باستطاعتي أن أرى وجهه، وإن بدا لي أنّه كان يبكي. شعره الملتصق بجمجمته يوحي بأنّه سرّحه بمثبّت. رجوته أن يهدأ ونذهب إلى مكان آخر. (إلى أين كنتُ سآخذه؟) لم أذهب حين كان عليّ أن أذهب، أجاب، برهان على أنّ خصيتيّ ما زالتا في مكانهما[1]، وانتظرت كلّ ما هو ممكن إنسانياً أن

---

(١) كناية عن الشجاعة.

تهتدي الشرطة إليّ، لكن لا أحد في هذا البلد يُريد أن يعمل، يا مُعلّم، وها أنت تراني هنا، تنهّد. وصلت الأمواج أخيراً إلى ركبتي الغرّ. جابت قشعريرة أسماله. انتزعتُ منها السكين التي كانت المسكينة تُفكّر أن تُدافع بها عن نفسها (منّي؟ لا!) وبدءاً من تلك اللحظة تحوّلتُ إلى بهيمة، أجهش الغرُّ. ما الذي ينتظرونه كي يعتقلوني؟ سألته كيف سيعتقلونك إذا لم يكن هناك من يشكُّ بك؟ مكث الغرّ صامتاً برهة طويلة، كانت العاصفة قد أصبحت فوق رأسينا. أنا قتلتُها، يا معلّم، هذه حقيقة، ويبدو أنّ هذه البلدة البائسة تحتفل الآن بشهر عسلها. بدأ بعدها المطرُ ينهمرُ طوفاناً. سألته، قبل أن أنهض وأشرع بالعودة إلى الفندق، كيف كان يعرف أنّ المُغنّية كانت تعيش في قصر بِنفينغوت. التفتَ الغرُّ كي ينظرَ إليّ ببراءة طفلٍ (رأيتُ بين برقين وجه ابني المغسول توّاً وهو يتصبب ماءً): بملاحقتها، يا مُعلّم عبر هذه الشوارع المنحدرة ودون أيّ نيّة أخرى غير السهر عليها. دون أيّ قصد غير أن أكون قريباً من الدفء الإنساني. هل كانت وحدها؟ رسم الغرُّ بعض الإشارات في الهواء. لم يعد هناك ما يمكن أن نتكلّم عنه، قالَ...

غاسبار هِرديا:

أخذنا القطار إلى برشلونة ذات مساء ضبابيّ

أخذنا القطار إلى برشلونة ذات مساء ضبابيّ، بعد صباح ماطر أطاح بالخيام القليلة التي كانت ما تزال منتصبة في ستِلا ماريس. كانت الأشياء التي نملكها بالنتيجة أكثر مما بدت من النظرة البسيطة واحتجنا إلى أكياس بلاستيكية، حصلنا عليها من السوبر ماركت الوحيد المفتوح. بل وحتى في هذه الحالة وجدنا أنفسنا أيضاً مُجْبَرَيْن على أن نترك في المعسكر أشياء كثيرة لم تقبل كاريداد أن تخسرها: مجلات، قصاصات، أصدافاً بحريّة، حجارة ومجموعة من التذكارات من نِتا. آمل حين يعثر بوباديّا على هذه الغنائم أن يرمي بها في القمامة دون مماطلة. في الليلة السابقة على مغادرتنا ظهر رِمو في غرفة الاستقبال كي يُسلّمني مُغلّفاً بمرتبي وعلاوة من مبلغ كاف كي نأخذ أنا وكاريداد طائرة إلى المكسيك. بقينا بعدها نتكلّم خلف المسبح. في مكان حيث لا أحد يستطيع أن يسمعنا. أظنّ أنّ كلينا كان يُخفي شيئاً. كان الوداع قصيراً: رافقته حتى المخرج، شكرته، قال لي موران أن أعتني بنفسي. لم أره بعدها قط. في تلك الليلة ذاتها تودّعنا أنا وكاريداد من كاراخيّو. كان صباح اليوم التالي مليئاً بالأعمال: دخل الماء إلى الخيمة وتبلّلت ثيابنا

وكيسي نومنا. حين غادرنا باتجاه المحطّة كنّا مُبلَّلَيْن. حين وصلنا إلى هناك كانت قد توقّفت عن المطر. على الطرف الآخر من السكّة الحديديّة رأيتُ حماراً في بستان. كان تحت شجرة وكان يطلق من حين لآخر نهيقاً، مما جعل كلّ المُسافرين يلتفتون لينظروا إليه. بدا الحمار بعد المطر سعيداً. عند ذلك ظهر شرطيان وطنيان وحارس مدنيّ في طرف من أطراف المحطّة، كما لو أنّ غيمة سوداء تقيّأتهم، فكّرت أنّهم جاؤوا ليعتقلونا. رأيتهم بطرف عيني يتقدّمون نحونا بهدوء كبير وأيديهم جاهزة لإخراج المسدساتِ من أغمادها. أنا وهذه الحشرة نتشابه، قالت كاريداد بصوت حالم. نحن غريبان في بلدنا ذاته. وددتُ لو أقول لها إنّها مخطئة، وإنّ الوحيد الذي يمكنهم أن يُطبّقوا عليه قانون الأجانب هو أنا، لكنّني لم أفتح فمي. أخذتها من خصرها وانتظرتُ. كانت كاريداد أجنبيةً بالنسبة إلى الله، بالنسبة إلى الشرطة وبالنسبة إلى نفسها، لكن ليس بالنسبة إليّ. الشيء ذاته يمكن أن يُقال عن الحمار. توقّف الشرطيون في منتصف الطريق. دخلوا إلى بار المحطّة، الشرطيان الوطنيان أوّلاً ثمّ الحارس المدني. ويا للمعجزة السمعية! سمعتهم يطلبون بوضوح فنجاني قهوة مع قليل من الحليب وكاراخيّو[1]. عاد الحمار لينهق. بقينا برهة نتأمله. مرّت كاريداد بذراعها على كتفيّ وبقينا هكذا إلى أن جاء القطار.

---

(١) قهوة مضاف إليها براندي أو أي مشروب كحوليّ آخر، من هنا جاء لقب إحدى شخصيات الرواية.

إنريك روسكيّس:

حين عدتُ أخيراً إلى ثِتا كان كلّ شيء مختلفاً

حين عدتُ أخيراً إلى ثِتا كان كلّ شيء مختلفاً إلى حدّ أنّني فكّرتُ أنّني أخطأتُ بالبلدة. أولاً لم يعرفني أحد، وهو ما كان بالنتيجة استثنائياً؛ ذلك أنّني بقيت لأسابيع كثيرة أشهر شخصية في المنطقة وكان يشقّ عليّ أن أُصدِّق أن القضيّة بمجملها قد نُسيت في زمن قصير إلى هذا الحدّ. ثانياً، أنا نفسي لم أعرف كثيراً من أبنية ثِتا وشوارعها، كما لو أنّ أحداً قام بإعادة تصميم المدينة في غيابي بطريقة ناعمة، لكنّها مُدْرَكَة بشكل مؤلم. بدت واجهات المحلاّت أجزاء من هيكلِ تمويهٍ، الأشجار العارية لم تكن حيث يجب أن تكون، اتجاه السير في بعض الشوارع تغيّر بشكل جوهريّ. وحدها دار البلدية، تأكّدتُ من ذلك دون أن أنزل من السيارة، كانت تقدم الواجهة ذاتها صامدةً، وإن لم تعد بيلار هي العمدة (هُزِمت هزيمة كبيرة في الانتخابات الأخيرة) ولا أنا أخو ثقتها الفعّال. فهمتُ بمزيجٍ من الحلاوة والمرارة في آن معاً أنّ المؤسّسة سوف تستمرّ على الرغم من تغييرات الواقع أو ما كان: لم يكن الواقع قادراً، على الرغم من سقوطنا نحن الكائنات البشرية في الرهان، مثلي ومثل بيلار، على تغيير تلك الحجارة المبجلة (وغير

المجدية). بالنظر إلى الأشياء من هذا المنظور يجعل قبول التغيرات الحادثة في البلدة أسهل. على كلّ الأحوال، وتحت تأثير شعور بالحذر الذي تعلّمته مؤخّراً في السجن، لم أنزل من السيارة إلا كي أتناول كأساً في بار مركز البلدة وأذهب إلى المغاسل وأتنزّه قليلاً في الكورنيش البحري. تسألون عمّا إذا وقعتُ في إغواء زيارة قصر بِنفينغوت؟ حسن، الأسهل هو أن أقول لا، أو بلى. الحقيقة هي أنّني قمت بمشوار في السيارة عبر المنحدرات، لكنّني لم أذهب أبعد من ذلك. هناك منعطف مميّز على الطريق من ثِتا إلى إي. يستطيع المرء أن يتأمّل منه الشرمَ والقصر. حين وصلتُ إلى هناك كبحتُ السيارة واستدرت وعدتُ إلى ثِتا. ما الذي كنتُ سأكسبه من زيارة قصر بِنفينغوت؟ لا شيء، سأضيف فقط ألماً إلى الألم المتراكم. ثمّ إنّ القصر في الشتاء كئيب جدّاً. الحجارة التي أتذكّرها زرقاء هي الآن رمادية. الطرق التي أتذكّرها مضاءة تعلوها الآن الظلمات. وهكذا كبحت السيارة واستدرت في منتصف الطريق وعدتُ إلى ثِتا. ولم أنظر في المرآة العاكسة حتى قطعت مسافة كافية. ما ضاع ضاعَ، أقول، وعليّ أن أنظر إلى الأمام...

الفهرس

هذا الكتاب

رأيته لأوّل مرّةٍ في شارع بوكارِلي، في مِكسيكو، أي في المراهقة، في المنطقة المغبَّشة والمقلقلة التي تنتمي إلى شعراء الحديد، في ليلة مشحونة بالضباب الذي كان يُجبر السيارات على أن تسير ببطء وتجعل المارّةَ مستعدين لأن يُعلّقوا بسرور غريب، على الظاهرة الضبابيّة، غير المعهودة في تلك الليالي المكسيكية، على الأقل إلى الحدّ الذي أتذكّره.


ISBN 978-993335331-5

